علم اللسان
من البنيوية الى الذهنية

مازن الوعر

القسم الاول

مدخل

ليس هناك وجهة نظر فكرية او معيار عقلي واحد في حقل المعارف الانسانية ، يمكن استخدامه وتطبيقه على عدد من الدراسات الانسانية، وذلك لان العقل الانساني قدرة فعالة والة دينامية مولدة يمكن لها ان تبدع مايلائم ويناسب الانسان وواقعه .

هذا الخلق الفكري ، الذي هو بطبيعة الامر خلق لواقع وزمان معين انما هو خلق آني مؤقت لابد ان يصبح شيئا مألوفا في حياة الانسان وواقعه ، بل انه سيصبح قديما ، وذلك نتيجة القدرة المبدعة للعقل الانساني على اعطاء عدة وجهات نظر فكرية مخالفة .

ولعل هذا ماعبر عنه علماؤنا السلف في حقل المعارف الادبيةوالشعرية والنقدية كابن قتيبة في « شعره وشعرائه » وذلك منذ احد عشر قرنا من الزمن ، فقد اعتبر هذا الرجل النظريات النقدية في زمنه نظريات آنية متغيرة تغير المحيط الخارجي للانسان عبر البيئة والتاريخ ، وقد اعتبر ايضا الصراع بين القديم والحديث صراعا انيا مؤقتا ، وذلك لان كل

حديث لابد ان يصبح قديما ، وكل قديم لابد ان يتجدد في فترة من فترات التاريخ البشري .

فما يصح في حقل المعارف الادبية والشعرية والنقدية بل العلمية انما ينطبق على المعارف اللسانية واللغوية ايضا ، فما اعتبره علماء اللسان البنيويون معيارا لسانيا ونظرة شاملة علمية يمكن تطبيقها على اية لغة من لغات العالم انما اصبح مجرد ركيزة من ركائز علم اللسان البشري او مجرد وجهة نظر لسانية لا اكثر ولا اقل مختلفة عن وجهات نظر لسانية تجاه الواقع الفيزيائي للانسان .

واذا كانت النظرية الذهنية في القواعد التحويلية والتوليدية والتي كان حجر اساسها عالم اللسان الاميركي تشومسكي قد فندت ونقدت البنيوية من عدة وجوه لسانية فان النظرية الذهنية تمثل ايضا وجهة نظر لسانية مختلفة .

ولكن تشومسكي كان قد فتح الباب عريضا امام اي ابداع او فكر لغوي يمكن ان يسهم في تطوير الدراسات اللغوية المعاصرة على اساس من الاستقصاء والضبط العلمي .

واذا كانت وجهة نظر العالم اللساني الدانماركي هلمسليف وجهة نظر حقة وواقعية في جعل الهدف الاخير للنظرية اللسانية هدفا انسانيا وعالميا ، فانه لابد من ادراك الحركة الجدلية للانسان بواقعه ، وذلك ان ماهو فكري هو واقع وماهو واقع هو فكري في الوقت نفسه .

ان المقولة الفلسفية « انك لاتستطيع ان تستحم بماء النهر مرتين » انما هي مقولة صحيحة عبر التاريخ ، وذلك لان الانسان بحد ذاته قدرة فعالة على الخلق والابداع والتجديد .

ان الهدف من هذه المقالة هو تبيان بعض الوجوه الفكرية المختلفة في الدراسات اللسانية كما يتجلى ذلك في الدراسات الاميريكية بوجه خاص.

١ ــ دراسات لغوية قديمة

ان الدراسة اللسانية لغة قديمة قدم اللغة نفسها ، فالدارس اللساني للظواهر اللغوية عبر التاريخ سيجد ان اللغة قد حظيت بالبحث

والاستقصاء والعناية منذ القدم . ولكن هذه الدراسات اللسانية القديمة قد اختلفت من فترة زمنية الى فترة زمنية اخرى وذلك نتيجة للاهداف والاهتمامات اللغوية في تلك الازمنة .

لقد كانت هذه الدراسات اللسانية للغة دراسات منطقية فلسفية ، وقد كان الهدف الوحيد من دراسة الظاهرة اللغوية تطوير المنهج الفلسفي المنطقي وتحسينه ، وذلك من اجل تأسيس مناهج فلسفية للوصول الى تعريفات دقيقة حول الحقائق الفلسفية والمنطقية .

وهكذا فان دراسة افلاطون للغة انما بنيت على قواعد عقلية بديهية دون معرفة القدرة الفعالة للغة التي هي اكبر في نوعيتها من مسائل الشك والفلسفة والتفريق بين ماهو حقيقي وماهو كذب .

لقد استطاع ارسطو والمدرسة الفلسفية الرواقية ان يطور الدراسات اللغوية ، وذلك من خلال تقديم معايير واضحة وسهلة للوحدات اللغوية المدروسة . وقد حاول ارسطو ان يطور مفهوم الفعل والفاعل على اساس منطقي واضح وبسيط .

على انه في الوقت نفسه فان المدرسة الفلسفية الرواقية استطاعت ان تدرس العلاقات المنطقية الموجودة في الجمل اللغوية اكثر من دراستها للقياس المنطقي التصنيفي والذي كان ارسطو نفسه قد وضعه .

والواقع ان المدرسة الفلسفية الرواقية استطاعت ان تقدم بعض المستويات التحليلية اللسانية المتطورة في الدراسة اللغوية ، ولكن هذا لايعني ان الدراسات اليونانية دراسات نحوية ، على الرغم من ان كثيرا من عبارات النحو الحديث انما هي عبارات فلسفية يونانية . وذلك لان هم الدراسات اليونانية وقتذاك هو الاهتمام بالتركيب الصحيح والمقبول في اللغة والنحو .

وقد كانت معاييرهم اللغوية والنحوية في تقييم التركيب اللغوي والنحوي مختلفة ومتنوعة ، فالتركيب البلاغي الصحيح والمقبول هو ذلك الذي يحرك عواطف المستمعين ويوجههم لفعل عمل ما . ولكن التركيب المنطقي الصحيح والمقبول هو ذلك الذي يقدم حقائق واضحة ناتجة عن منطق قياسي فلسفي (1) .

---

(1) Rodins, R. H., « Anicent and medieval Grammatrcal Theory in Europe » (London, 1951)

لقد ظهرت بدايات العمل النحوي القديم في الدراسات التي قام بها عالم النحو اليوناني « ديونيسيوس ثراكس » (٢) ، تلك الدراسات التي اخذت طابعا علميا دقيقا .

فقد كانت دراسته للنحو دراسة شكلية مستقلة عن المعنى وذلك لان ثراكس حاول ان يجد علاقات شكلية تربط الوحدات اللغوية عن طريق نظام لغوي ينتج تركيبات وصياغات نحوية صحيحة .

والواقع ان الدراسات اللغوية الرومانية مثلت انعطافا كبيرا مختلفا عن الدراسات اليونانية ، فبدلا من دراسة اللغة دراسة شكلية فان علماء اللغة قد ركزوا على العناصر الدلالية للغة ، وهذا بالطبع اعطى الدراسات اللغوية افقا معنويا عميقا لان التحليل اللساني في هذا الوقت قد حاول دراسة المعاني المختلفة للغة والتي كانت اساسا للتحليل اللساني (٣) .

على ان الدراسات اللسانية في العصور الوسطى كانت ضئيلة جدا ، وقد كان البحث اللغوي وقتذاك صورة مشوهة للبحوث التي قام بها اليونانيون والرومان في أوربا .

والواقع ان صعوبة العمل اللساني في العصور الوسطى تجلت في البحوث الصوتية فلم يكن هناك دراسة صوتية جادة تمكن الباحثين من تحليل الوحدات اللغوية تحليلا دقيقا واضحا ، فقد كان هم العلماء وقتذاك هو تطوير النظريات النفسية وربطها بالمذاهب الفلسفية المنطقية .

فقد حاولت هذه المذاهب الفلسفية ان تركز دراساتها حول الاشياء الواقعية وليس حول الكلمات التي تمثل تلك الاشياء . وبهذا فان هذه الدراسات لم تكن دراسات لغوية وذلك لانها لم تعتبر اللغة فعالية قائمة بحد ذاتها . والواقع ان هذه الدراسات الفلسفية كانت نقيضا واضحا للدراسات اللغوية الشكلية التي قام بها ارسطو (٤) .

(2) Robins, R. H., « Dionysius Thrax and the Western Grammatical » Transactions of the philological Society (London, 1957)

(3) Robins, R. H., « A Short Histary of Linguistics » (London, 1967) P. 45 - 65

(4) Robins, R. H « A Short History of Linguistcs » (London, 1967) P. 66 - 93

على ان حركة الرينسانس الانسانية لم تكن رفضا لما قام به الباحثون في العصور الوسطى فحسب بل كانت رفضا لادراسات اللغوية التي قام بها ارسطو ايضا ، فقد اعتبرت هذه الحركة المنطق انه دراسة للقوانين الفكرية والعقلية غير المفصولة عن الواقع الانساني ، وهذا يعني أن حركة الرينسانس الانسانية قد رفضت المنطق الشكلي برمته .

ولكن المنطق الشكلي هذا قد اخذ بعدا جديدا في القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر متأثرا بالدراسات الرياضية . وهكذا فقد اصبح هذا المنطق يدرس العلاقات الشكلية بين الرموز اللغوية معتمدا على المنهجية والاستقصاء والضبط العلمي مبتعدا عن الاهواء الشخصية في التحليل اللساني (٥) .

والواقع لقد اعترف علماء اللسان في هذه الفترة ان اللغات البشرية هي اعتباطية تعسفية .. انها انظمة لغوية متعارف ومتفق عليها ضمن الجماعات البشرية ، وقد ادركوا ايضا ان الاستعمال اللغوي وحدة يحدد طبيعة التركيب اللغوي الصحيح والمقبول .

ان اهم ميزة في الدراسات اللغوية في هذه الفترة التاريخية ان البحث اللغوي لم يعد نتيجة لنزوة فردية بحتة ، بل كان نتيجة لبعض المناهج الموضوعية الدقيقة .

ان المتتبع الباحث للتطورات اللسانية في القرن التاسع عشر سيجد الدراسات اللسانية قد انتعشت بشكل كبير جدا سواء اكانت هذه الدراسات اللسانية تاريخية او مقارنة .

والواقع ان الدراسات الصوتية النطقية في هذه الفترة مثلت تطورا ملحوظا في علم اللسان البشري ، فقد استطاع علماء اللسان في القرن التاسع عشر ان يحللوا الوحدات اللغوية تحليلا صوتيا دقيقا دارسين كل العناصر التي تتركب منها هذه الاصوات وذلك من خلال العلاقات الداخلية المنظمة للبنية الصوتية .. وقد جدهم هذا الاستقصاء والبحث الى وضع مناهج صوتية حديثه لتحليل الصوتيات العالمية .

(5) Rodins, R. H « A Short History of Linguistics » (London, 1967) P. 94 - 132

ان دراسات القرن التاسع عشر اللسانية كانت ركيزة قوية للعمل اللساني الذي قام به عالم اللسان الفرنسي فردينان دي سوسور . والحق يقال ان سوسور يعتبر الاب الحقيقي لعلم اللسان البشري ان كتابه « دروس في علم اللسان العام » Course in General Linguistics بداية جديدة في اللسانيات التي اراد لها سوسور ان تكون علما سنكرونيا بنويا قائما براسه (٦) .

٢ ـ بدايات البنيوية

لقد نمت الحاجة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الى جعل الدراسات اللسانية علمية ومستقلة عن بقية العلوم الاخرى في الوقت نفسه .

وقد عني علماء اللسان بالطريقة العلمية الضبط والدقة في البحث والاستقصاء اللغوي . والواقع ان ماحققه علماء اللسان في القرن التاسع عشر من خلال دراساتهم التاريخية والمقارنة ولاسيما في المجال الصوتي كان املا كبيرا في دراسة اللغات البشرية دراسة علمية .

وربما هذا ماحاول عالم اللسان الفرنسي فردينان دي سوسور التاكيد عليه ، فهو يرى انه من خلال دراسة الرموز والاشارات اللغوية وعلاقاتها المنظمة يمكن للمنهج السنكروني الاني في دراسة اللغات ان يزودنا بطرق علمية مضبوطة ودقيقة . هذه الدراسة السنكرونية للغة ـ على حد راي سوسور ـ يجب ان تكون مستقلة عن بقية العلوم الاخرى (٧).

والواقع ان سوسور لم يبن منهجا تحليليا واضحا يمكن من خلاله فعلا تحليل اللغة تحليلا علميا قائما براسه .

وهكذا فقد كان عالم اللسان الاميركي سابير الذي ادرك الفراغ الذي تركه سوسور في المنهج اللساني التحليلي . وذلك من خلال دراساته الانثروبولوجية للغات الهندية الاميركية ، وهكذا فقد ادرك سابير المفاهيم

---

(6) Bolinger, Dwight « Aspects of Language » (San Francisco 1968) P. 513 - 555.

(7) Ferdinand de Saussure, « Course in General Linguistcs 9 (Nıw York 1959) P. 101 - 137. Translated by Wade Baskin.

اللغوية القديمة والحديثة ، وحاول أن يجمع بين المادة اللغوية القديمة والمنهج اللغوي الحديث .

ولكن سابير نفسه لم يستطع ان يعالج مشكلة الدلالة وعلاقتهابالشكل (اللغوي ، فقد درس سابير الدلالة اللغوية من وجهة نظر سيكولوجية تقليدية على الرغم من ان اسلوبه في معالجة هذه الدلالة كان حديثا) .

فمنذ ان كان النطق الكلامي عبارة عن شكل تسلسلي متعاقب يمثل شكلا صوتيا واحدا ... ومنذ ان كانت الدلالة عبارة عن اشكال متعددة من المعنى .. فان موضوع علمية الدراسات اللسانية واستقلاليتها انما تنحصر في الشكل اللغوي فقط .

وبكلمة اخرى ان علم اللسان واستقلاليته كعلم قائم براسه انما هو علمية الشكل اللغوي واستقلاليته دون المعنى (٨) .

والواقع ان عالم اللسان الاميريكي بلومفيلد — هو اول باحث غربي استطاع ان يجعل الدراسة اللسانية دراسة علمية ومستقلة في الوقت نفسه . ويبدو لكثير من علماء اللسان المعاصرين ان بلومفيلو كان حجر الاساس في بناء النظرية البنوية في علم اللسان البشري كما يتجلى ذلك في كتابه « اللغة » « Language »

فقد كان مفهوم بلومفيلد لعلمية الدراسة اللغوية مفهوما تجريبيا مضبوطا مبنيا على اساس استقرائي « Inductive » في جمع المواد اللغوية ووصفها وصفا دقيقا .

ولكن الخطأ المنهجي الوحيد الذي وقع فيه بلومفيلد في دراسته للغة انما هو اعتماده على علم النفس التجريبي السلوكي .

ففي الفترة التي كان بلومفيلد يكتب كتابه « اللغة « Language » كان هناك منهج تجريبي جديد في علم النفس ذلك المنهج عرف « بالمنهج السلوكي Behaviorism » .

ان اهم النقاط النقدية التي وجهها علماء اللسان الاميركيون لبلومفيلد

---

(8) Edward Sapir « Language : An Introduction to the Study of Speech (New York 1949) P. 57 - 82.

انما هي قبوله بعلم النفس السلوكي على انه الطريقة الوحيدة لدراسة الدلالات اللغوية .

والواقع لم يكن في نية بلومفيلد ان يجعل علم اللسان جزءا متفرعا من علوم اخرى ... بل لقد كان هدف بلومفيلد جعل الدراسة اللسانية علما قائما براسه (٩) .

ا ـ البنيوية وعلم النفس السلوكي

على الرغم من انه كان للفلسفة السلوكية تأثير فعال في علم النفس وعلى الرغم من تأثيراتها القوية في عدة علوم اخرى كعلم اللسان فانها سرعان ماتلاشت (١٠) ، ولكن تأثيراتها اللسانية التي تمت من خلال الدراسات اللسانية التي قام بها بلومفيلد مازالت حية ولا سيما في الولايات المتحدة والواقع ان كثيرا من الافكار اللسانية التي جاء بها بلومفيلد انما عدلت بل ان بعضها قد تجاوزته الدراسات اللسانية الحديثة . . ولكن كتاب بلومفيلد « اللغة هو ركيزة اساسية في بناء ما يسمى بعلم اللسان Linguistics .

صحيح أن بعض الافكار اللسانية التي اتى بها بلومفيلد قد عدلت وبعضها الاخر لم يستخدم البتة الا انه ليس هناك اي كتاب في علم اللسان يمكن ان يحل محل كتاب « اللغة » .

والواقع ان المعايير الدراسية التي بدت لعالم اللسان بلومفيلد على انها معايير فلسفية سلوكية يمكن استخدامها في التحليل البنوي للوحدات المعنوية انما كانت شخصية لاتخضع لاي تحليل علمي استقرائي تجريبي . ان ماحققه بلومفيلد في الدراسات اللسانية هو بناء قاعدة اساسية من التعريفات اللغوية التي يمكن استخدامها في الدراسات اللغوية بشكل

(9) Leonard Bloomfield, « Language » (New York 1933) P. 3 - 20.

(10) O. H. Mawrer, « Learning Theory and Behevior) and « Learning Theory and the Sy mbolic Process » (New York, 1960). and Choms Ky, s revew of B. F Skinneirs Verbal Behavior » (New York, 1957), in Language, 59).

عام . على اية حال لقد كان الهدف الرئيسي في علم النفس السلوكي على حد تعبير مؤسسة « واطسون » هو معرفة حالات معينة وكيفية ردود الفعل الانسانية تجاه هذه الحالات من خلال المثرات او الدوافـــع الخارجية (١١) .

لقد رفض عالم النفس السلوكي واطسون علم النفس التقليدي برمته معتبرا هذا العلم الذي كان قد اسسه « مكدو جال » غير مبني على اسس علمية وذلك لانه يعتمد على الدراسات الغيبية والروحية القائمة علـى اساس من السحر والشعوذة .

وقد علل واطسون هذه الحالة الفلسفية بانه يمكن ان يكون في المجتمع البدائي جماعة مهرة بارعون في ملاحظة سلوكية الاخرين بل هم قادرون على وضع الافراد في حالة من الخوف والفزع وذلك من خلال تهديدهم بقوى خارجية غير مدركة .. وهكذا فان هؤلاء الافراد في المجتمع البدائي سيخضعون لتلك الجماعة البارعة في السحر والشعوذة لتجنب الخطر الذي يمكن ان يتهددهم ، فقد وجد واطسون ان هذه الافكار وهمية ليس لها اساس علمي وهكذا فانه رفض هذه الفلسفة التقليدية الغيبيةمقترحا فلسفة اخرى تعرف بالفلسفة السلوكية القائمة على اساس تجريبي ملحوظ .

هذه الفلسفة تدرس مثلا الجهاز النطقي عند الانسان وكيفية عمله والعوامل التي تجعله يتخذ سلوكا معينا في العملية الكلامية بغض النظر فيما اذا كان هذا السلوك وراثيا او انه نتيجة للمجتمع الذي يعيش بـه الافراد .

لقد راى واطسون انه من خلال دراستنا للدوافع الانسانية ثم الردود الطبيعية لهذه الدوافع فان الفلسفة السلوكية ستزودنا بمعارف دقيقة لفهم السلوك البشري بشكل عام .

والواقع ان واطسون عنى « بالدوافع او المثيرات » Stimulus المواضيع الخارجية او الداخلية « الفيزيولوجية » .

---

(11) J. B. Watson and W. Mac Dougall, « The Battle of Behaviorism » (New York : 1929) P 1 - 17 .

وقد عنى واطسون ايضا « بالردود او الاستجابات » Response الانظمة العضوية النشيطة في الانسان التي هي بطبيعة الامر نتيجة لمثيرات خارجية او داخلية (١٢) .

لقد شرح واطسون العلاقات النظامية بين المثيرات والاستجابات في صيغ رياضية ... وهكذا فاذا كانت C نتيجة لـ A وان B لها علاقة ارتباطية في A .. فان النتيجة الطبيعية ان B سيكون لها نفس العلاقة الارتباطية بـ :

A = C
A = B
B = C

وربما يعبر عن هذه الحالات بالعبارة الفلسفية « الحالة الشرطية » وهكذا فان هذه العلاقات الرياضية في الفلسفة السلوكية جعلت واطسون يعتقد ان الفكر شكل من اشكال السلوك البشري ... فالعملية الفكرية كما يعتقد واطسون انما هي عملية كلامية او سلوك كلامي مخبأ (١٣) .

فالفكر في نظره عبارة عن تنظيم معقد مؤلف من عدة مستويات وظيفية عضوية يمكن للانسان من خلالها ان يفكر بدون اللغة وذلك منذ ان كانت العملية الفكرية سلوكا كلاميا وفرعا من فروع الكلام المستتر والمخبأ (١٤) .

والواقع لقد كانت الفلسفة السلوكية عام ١٩٣٠ تيارا ومنهجا جديدا في حقل العلوم النفسية اسهم في تغيير عدة مفاهيم فلسفية وقد تعدى تأثيرها العلوم النفسية ليشمل العلوم اللسانية ...

ولكن على الرغم من كل ذلك فان علماء النفس التقليديين امثال مكد وجال لم يؤمنوا بهذه الفلسفة الجديدة ولم يتخلوا عن مبادئهم القديمة ، والحقيقة لم تكن فرضيات علم النفس السلوكي فرضيات مبرهنة من الناحية العلمية والتجريبية .

(12) J. B Watson and W. Mac Dougall, « The Battle of Behaviorsm (New York : 1929) P. 19.

(13) J. B Watson, Supra. P 33

(14) J. B Watson, Supra P 38 - 39.

فاذا كانت الفلسفة التقليدية تفترض ان القوة العقلية والذهنية هي اكثر فعالية في معرفة التغيرات والتبدلات في السلوك الانساني ، فان الفلسفة السلوكية تفترض ان مثل هذه التغيرات والتبدلات في السلوك الانساني انما هي نتيجة لمثيرات خارجية فقط .

على اية حال لقد رفض علماء النفس التقليديين البعد الفلسفي السلوكي برمته وقد كان نتيجة ذلك ايضا انهم لم يثقوا بالدراسات البنوية التي اتخذت الفلسفة السلوكية منطلقا لها في تحليل المعاني والدلالات الانسانية .

ب ـ البنيوية وعلم اللسان :

لقد عرّف بلومفيلد اللغة على انها « مجموعة من الرموز اللغوية التي يمكن دراستها دون الاعتماد على نظريات خارجية لمعرفة هذه الرموز وكيفية دلالاتها »(١٥) ان الدراسة البنيوية ـ كما اكد لبلومفيلد ـ انما هي دراسة شاملة للغة تتناول اللغة من كافة جوانبها ... وتبدو الدراسات اللسانية السابقة للدراسات البنوية لبلومفيلد على انها دراسات ضالة غير مبنية على اسس علمية صحيحة . فهذه الدراسات قد استخدمت المنهج الاستنتاجي « deductivc Method » ولم تستخدم المنهج الاستقرائي التجريبي « inductive method » .

ان اصعب مرحلة من مراحل الدراسة اللسانية على حد راي بلومفيلد هي تلك التي تنظر الى اللغة على انها شكل من اشكال السلوك الفيزيولوجي. لقد كانت الدراسات اللغوية السابقة مهتمة بالتحليلات الخارجية للغة كما يرى بلومفيلد كالتحليل الكتابي والتحليل الادبي والتحليل الفقهي للغة مثل هذه التحليلات اللغوية تحليلات للاستعمال اللغوي فقط وليس تحليلا للغة بحد ذاتها .

ان اللغة بالنسبة لبلومفيلد هي سلوك فيزيولوجي تجاه مثيرات خارجية وقد اعطى بلومفيلد مثالا واضحا على ذلك :

« فبينما كان جاك وجيل يتمشيان في حديقة فان جيل رات تفاحة يانعة

(15) Leonard Bloomfiield, « Language » (New York 1933) P. 3 - 20 .

علـــى شـــجرة طويلة ... فقــد جعل هذا المثير الخارجي جيل تحرك حنجرتهـا ولسانهـا وشفتيهـا « عمليــة كلاميــة » وهكـــذا فان استجابة جيل لهذا المثير الخارجي تصبح اثارة اخرى لجاك .. لذلـك نرى جاك يتسلق الشجرة ليجلب التفاحة الى جيل لتاكلها »(١٦) .

ان التحليل اللساني البنوي لهذا الحدث يتمثل في هذه العملية المنطقية :

١ ــ هناك احداث واقعية سابقة لعملية الكلام .
٢ ــ العملية الكلامية .
٣ ــ هناك احداث واقعية لاحقة لعملية الكلام .

وهكذا نرى ان التحليل اللساني البنوي للغة انما هو تحليل سلوكي :

فقد كانت العوامل التي قادت جيل الى الرغبة في الحصول على التفاحة انما هي مثيرات خارجية Stimulus ... وقد كان سلوكها في الحصول على التفاحة استجابات داخلية Responses ...

S ——— R

« مثيرات » « استجابات »

ولما كان جاك موجودا مع جيل فان جيل استطاعت ان تستبدل عملها الفيزيولوجي وتحركها في جلب التفاحة بالعملية الكلامية .

وهكذا فان العملية الكلامية تصبح استجابة بديلة لحركة جيل الفيزيولوجية ان هذا السلوك الكلامي من جيل انما يصبح في الوقت نفسه اثارة خارجية لجاك تدفعه لان يذهب ويجلب التفاحة لجيل .

وربما تتمثل هذه العملية السلوكية في هذه الخطوط :

(١٧) S ——— r ——— s ——— R

« مثيرات » « استجابات » « مثيرات » « استجابات »

(16) Leonard Bloomfield, « Language » (New York : 1933) P 22 - 23 .

(17) Leonard Bloomfield « Language » (New York, 1933) P 21 - 41

والواقع انه يمكن تحليل هذه الاحداث الواقعية من خلال منهجين اثنين وهما على حد راي بلومفيلد المنهج العقلي « Mentalism » والمنهج المادي او الآلي « Mechanism »(١٨) .

وقد حبذ بلومفيلد المنهج المادي في التحليل اللساني وذلك لان المنهج العقلي لايتفق مع الواقع اللغوي .

فالمنهج العقلي ينظر الى التبدلات والتغيرات في السلوك الانساني على انها عائدة الى عوامل غير فيزيائية « كالروح ، والرغبة ، والذهن » .

ولكن المنهج المادي يعتبر أن هذه التبدلات والتغيرات السلوكة انما عائدة الى نظام فيزيولوجي جسمي معقد ... فالسلوك الانساني هنا يخضع لعاملي الدوافع والاستجابات .. وهذا بالطبع يشبه الدراسات الفيزيائية والكيمائية(١٩) .

وقد اعتبر بلومفيلد أن اضعف نقطة في الدراسات اللسانية انما هي الدراسات الدلالية والمعنوية وفي رايه انها ستبقى كذلك الى ان تتقدم الدراسات الانسانية مستفيدة من كل العلوم ... وهكذا فان بلومفيلد حدد الدلالة اللغوية من خلال علوم اخرى ليست لسانية .

ولكن هذا الاعتماد على علوم اخرى لحل المشكلة الدلالية لايمنع علم اللسان على حد راي بلومفيلد ـ ان يكون علما قائما براسه .

ومن جهة اخرى فقد ادعى المنهج العقلي انه يمكن تجنب مشكلة تحديد الدلالة اللغوية وذلك لانه منهج اصحابه بأن هناك عمليات غير فيزيائية ملموسة في السلوك الانساني « كالفكرة والمفهوم والصورة والشعور والرغبة » هذه العمليات غير الفيزيائية انما هي سابقة لعملية النطق اللغوي . وهذا يعني ان الباحث العقلي يحدد المعنى اللغوي على انه حدث عقلي متميز يتصل مباشرة بالنطق اللغوي وذلك من خلال نظام متعارف عليه بين المتكلم والمستمع .

فالانسان الذي ينطق كلمة « تفاحة » مثلا انما يملك صورة عقلية لتلك التفاحة وان نطقه هذا يستدعي صورة مماثلة لتلك التي في عقل المستمع .

(18) Leonard Bloomfiield, Supra P 32 - 33

(19) Leonard Bloomfield, Supra P 32 - 33

وهذا يعني ان اللغة ــ بالنسبة للمنهج العقلي ــ تعبير للفكر والحس والشعور .

والواقع فقدرفض المنهج المادي او الآلي هذا التحليل العقلي للبنية اللسانية برمته . وذلك لان المنهج المادي يعتقد ان هذه الصور العقلية والاحاسيس والمشاعر الفردية انما هي تعابير شائعة لحركات جسمية فيزيولوجية .

وعلى الرغم من ان بلومفيلد راى اختلافا كبيرا بين المنهجين في تناولهما للبنية الدلالية الا انه استنتج ان الاختلاف ضئيل جدا من الناحية التطبيقية وذلك لان المعيار الذي يستخدمانه في تعريف المعنى اللغوي انما هو معيار واحد (٢٠) .

على اية حال ليس هناك اتفاق بين العلماء حول الاساليب التي من خلالها يمكن تحليل العلوم الفيزيائية واللسانية .. ولكنه يبقى اتفاق عام بين هؤلاء العلماء وهو انه يجب على الفلسفة ان تخبرنا عن ماهية الاشياء في حين يجب على العلم ان يخبرنا عن كيفية عمل هذه الاشياء ، والواقع ان بلومفيلد اتخذ المنهج المادي اساسا للتحليل اللساني معتقدا ان المنهج العقلي هو منهج عشوائي غير مبني على اسس علمية تجريبية مضبوطة(٢١)

٣ ــ البنيوية والتحليل اللساني :

لقد تناول البحث البنيوي اللغة من كافة الجوانب تقريبا لذلك فاننا نرى ان علماء اللسان البنويين قد اسسوا قواعد متينة من خلال تجاربهم في البحث والتحقيق في عدة لغات عالمية . والواقع أن هذه التجارب والدراسات كانت اساسا قويا للنظرية اللسانية في الولايات المتحدة واوربا.

لقد درس علماء اللسان البنية اللغوية من عدة مستويات تحليلية يمكن لنا ان نقف عند كل مستوى من هذه المستويات التحليلية :

آ ــ من الواقع اللغوي الى النظرية اللسانية :

ترجع الكفاءة اللغوية Competence الموجودة في الذهن البشري الى المعرفة

(20) Leonard Bloomfield Supra P 143
(21) Leonard Bloomfield, Supra. P 141

اللغوية المتفق عليها بين المتكلم والمستمع... هذه الكفاءة اللغوية غير مدركة بل ليست ملاحظة ايضا أو يمكن قياسها ومعرفتها ...

فلكي يتمكن عالم اللسان البنوي وصف هذه الكفاءة اللغوية فان عليه ان يعتمد على الاداء اللغوي Performance الذي يرجع الى الاستعمال الحقيقي والفعلي للغة .

والواقع ان الاداء اللغوي يعكس الكفاءة اللغوية والتي هي الهدف الاول من التحليل اللساني الذي هو بطبيعته تحليل استقرائي تجريبي Inductive » يعتمد على التحقيق والدقة والثبت اللغوي .

وهكذا فان على عالم اللسان البنوي أن يبدأ بدراسة الاداء اللغوي الذي هو نطق صوتي لمواد لغوية مختلفة .

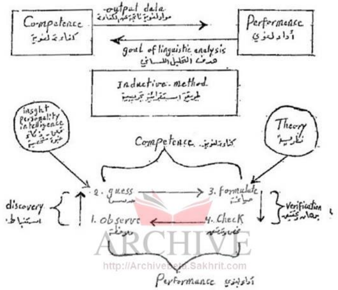
ان الخطوة الاولى في التحليل البنوي اللساني انما هي **الملاحظة** وبعد ملاحظة المواد اللغوية المعطاة فان على عالم اللسان ان يحدس ماهية البنية اللسانية للغة معتمدا على المواد اللغوية وعلى ذكائه وحدسه وخبرته في التحليل اللساني . وبعد ذلك فان عليه ان يصيغ فرضية معينة وذلك بالاعتماد على نظرية مضبوطة ومثبتة .

فاذا ما انتهى من صياغة الفرضية اللسانية فان عليه ان يعود الى المواد اللغوية **ليفحص ويدقق** في الصياغة اللسانية الموضوعة .

فاذا كانت الصياغة اللسانية شاملة لكل المواد اللغوية دون وجود معايير متناقضة في تلك الصياغة ... فان التحليل اللساني سيكون صحيحا ... واذا لم يكن ذلك كذلك فان على عالم اللسان ان يرجع الى فحص الفرضيات ويقيمها من جديد آخذا بالاعتبار البحث الاستقرائي التجريبي العلمي(٢٢) ، لقد وضع علماء اللسان البنويين العملية التحليلية للبنية اللسانية في هذه الصورة :

---

(22) Walter A. Cook, « Various lectures in the Course Tagmemic Analysis fall 1978


output data
Competence
كفاءة لغوية
Performance
أداء لغوي
goal of linguistic analysis
هدف التحليل اللساني
Inductive method
insight
personality
intelligence
Theory
نظرية
Competence
2. guess
3. formulate
discovery
استنباط
1. observe
4. Check
Verification
Performance

وهكذا فان الخطوة الرابعة التي هي فحص الفرضيات المصاغة وتدقيقها انما ستوصل عالم اللسان الى **نتائج موضوعية** يمكن من خلالها صياغة نظرية لسانية(٢٣) .

ب ـ في المفهوم العام للغة :

لقد اعتبر عالم اللسان الفرنسي دي سوسور :
الدراسة السنكرونية الآنية للغة نظاما ساكنا غير متغير ومتبدل ... وقد فهم دي سوسور اللغة من خلال دراسته للرمز اللغوي الذي هو نتيجة للارتباط بين الشيء الخارجي « الموضوع » وبين الصورة الذهنية لذلك الشيء .

ان اهم صفة للرمز اللغوي على حد راي دي سوسور انما هي تسلسلية الصوت وتعاقبه ثم اعتباطية الرمز اللغوي وتعسفيته ... وقد عنى دي سوسور بهذا أنه ليس هناك اي ارتباط او علاقة حتمية بين الشيء المسمى وبين الاصوات التي تمثل هذا الشيء(٢٤) .

ولكن نظرة عالم اللسان الامريكي سابير للغة كانت مختلفة فقد اعتبر سابير اللغة عبارة عن مجموعة من الصياغات البنوية المتغيرة قادرة على اعطاء دلالات ومفاهيم لغوية معروفة(٢٥). وقد اعتبر سابير الجملة اللغوية وحدة وظيفية اساسية في العملية التبليغية او الاتصالية وقد نظر الى الكلمات على أنها وحدات نفسية تختلف من لغة الى اخرى.
وفي نظر سابير يخضع التركيب البنوي للغة لعدة مستويات لسانية « كالتنظيم والترتيب النحوي ، والتركيب اللغوي ، والتغيرات اللغوية الداخلية والتغيرات اللغوية الخارجية ، والابنية الصوتية ثم الاختلافات اللهجية »(٢٦) .

---

(23) Walter A. Cook. « Introduction to Tagmemic Analysis » « Geargetown University Press » P 1 - 12 .

(24) Ferdinand de Saussure, « Course in General Linguistion (New York 1959) P 65 - 80.
This book was translated by « Wade Baskin ».

(25) Edward Sapir « Longuage » (New York : 1921) P. 8.

(26) Edward Sapir « Language » P. 120 - 147.

والواقع ان المفهوم البنوي للغة انما اخذ بعده الواضح من عالم اللسان الاميركي بلومفيلد ، فقد اعتبر بلومفيلد اللغة على انها مجموعة من الاستجابات الانسانية لمثيرات ودوافع فيزيائية محيطة .
هذه الاستجابات الانسانية ليست فطرية غريزية ولا هي موروثة في الوقت نفسه بل انها بديلة لاشكال اخرى من اشكال السلوك الفيزيولوجي(٢٧) .
ان البنية اللغوية ـ على حد راي بلومفيلد ـ تتألف من ثلاثة عناصر اساسية :

١ ـ الفونم « Phoneme » « وحدة لغوية صغرى ذات وظيفة صوتية » .
٢ ـ المرفم « Morpheme » وحدة لغوية صغرى ذات وظيفة دلالية
٣ ـ الشكل النحوي « Grammatical Form »وحدة لغوية ذات معجمية .

وظيفة نحوية وهكذا فان البنية اللغوية هي بنية صوتية نحوية دلالية .

ت ـ في المفهوم النحوي :

لم يفرّق دي سوسور بين المعايير اللسانية النحوية وبين المعايير اللسانية المعجمية فقد اعتبر هذه المعايير واحدة في الدراسات النحوية والمعجمية وذلك منذ ان كانت اللغة نظاما من القيم اللغوية البحتة ...
والواقع ان السبب الذي جعل دي سوسور لا يفرّق بين المعيار النحوي وبين المعيار المعجمي هو أن ما يمكن ان يكون معيارا نحويا في بعض اللغات انما هو معيار معجمي في لغات بشرية اخرى .

وقد عنى دي سوسور بذلك أن ما يمكن أن يكون معيارا نحويا وجزءا لا يتجزأ من النظام اللغوي المتواضع عليه بين الجماعة البشرية « Lalangue» في لغة ما يمكن ان يكون معيارا معجميا وجزءا لا يتجزأ من النظام الكلامي الفعلي في لغة بشرية اخرى(٢٨) .

---

(27) Leonard Bloomfield « Language » (New York : 1933) P. 3 - 21.

(28) Ferdinand de Saussure « A Course in General linguistics» Translated by Wade Baskin (New York : 1959) P. 134

لقد كان هم؛ عالم اللسان الامريكي سابير تطوير نظام نحوي وصفي ... ولكن الواقع ان فهمه النحو يشبه فهم دي سوسور من حيث ان النحو تعبير لمفاهيم ودلالات لغوية يمكن فهمها من خلال العلاقات المنظمة والمنسقة في اطار نحوي رياضي .

فعلى الرغم من أن سابير لم يناقش مفهوم فصل المعايير اللسانية النحوية عن المعايير اللسانية المعجمية الا ان مفهومه للاشكال النحوية ودلالاتها ومفهوم الجبري الرياضي للاشكال المعجمية يوحي بأنه كان يحبذ فصل هذه المعايير اللسانية(٢٩) .

والواقع ان التقنيات والتعريفات الواضحة للنحو انما نراها في كتاب « اللغة » لبلومفيلد .

فقد فهم بلومفيلد النحو فهما بنويا سلوكيا ... فالعملية النحوية في نظره « مجموعة متشابكة من العادات التي يتم من خلالها تحديد الاشكال النحوية وتصنيفها في مستويات لغوية دقيقة ... هذه الاشكال النحوية انما هي اشكال متفق عليها سواء من حيث الصياغة أو الاستعمال النحوي »(٣٠) .

والحقيقة لقد كانت المعايير اللسانية النحوية والمعجمية واضحة بشكل جيد في الدراسات الوصفية التي قام بها بلومفيلد . وقد عنى بلومفيلد بالمستوى المعجمي قائمة من الاشكال اللغوية ذات المعاني المحددة .. وقد عنى بالمستوى النحوي الانظمة والترتيبات اللغوية لهذه الاشكال النحوية ذات المعاني المحددة أيضا .

وقد اعتبر بلومفيلد الاشكال المعجمية أشكالا بنائية لا توجد بنفسها بل مع سلسلة من الابنية اللغوية التي تتجلى من خلال عدة تغيرات صوتية « كالتعدلات الصوتية مثل drink —— drunk والنغمات الصوتية مثل Jahn ! John ? ، ثم الترتيبات النحوية مثل : Man bites dog Dog bites man « يعض الكلب الرجل » .

(29) Edward Sapir « Language » (New York : 1921) P 39.

(30) Leonard Bloomfield « Language » (New Yotk : 1933) P 158 - 168

لقد ناقش بلومفيلد الاشكال النحوية مناقشة مستفيضة معتبرا هـذه الاشكال ابنية نحوية ذات وظائف دلالية . « Free Forms » وقد ناقش ايضا الوحدات النحوية التي تسهم في تحديد المعنى النحوي ولكنها لا تعني اي شيء بحد ذاتها Bound forms » .

هذه الاشكال النحوية في نظر بلومفيلد اما جمل اساسية او جمل فرعية يمكن ان تحلل على عدة مستويات صوتية ومعجمية ونحوية ودلالية ... ولكن بلومفيلد اعتبر المستوى الدلالي في التحليل اللساني اضعف مستوى من هنا فانه ربط هذا المستوى الدلالي بعلوم اخرى ليست علوما لسانية بل هي علوم نفسية فلسفية .

ث ـ في التغير اللغوي والتفرع اللهجي :

لم تكن نظرية فردينان دي سوسور نظرية لغوية تطورية متغيرة وذلك منذ ان كان هذا العالم مهتما في بناء الدراسة السنكرونية الآنية والسكونية للغة وليس بالدراسة الدياكرونية التطورية التي تؤدي بدورها الى تفرعات لهجية جغرافية(٣١) .

والواقع ان سابير عالم اللسان الاميركي قد التفت الى هذه المسألة اللغوية فقد اعتبر سابير اللغة ظاهرة حركية دينامية متغيرة عبر التاريخ ... وهكذا فقد ناقش هذه الحركية المتغيرة للغة من خلال التغيرات الصوتية والمعجمية ومن خلال المثال الذي اتى به شارحا التغير الذي طرأ على « Whom » وتحولها الى « Who » .

وقد شرح سابير العوامل التي تسهم او تسبب هذه التغيرات اللغوية كالعامل النحوي والصوتي والمعجمي والجغرافي والنفسي والاجتماعي(٣٢).

(31) Ferdinand de Saussure « Acourse in General Linguistics Translated by Wade Baskin (New York : 1959) P. 101 - 143.

(32) Edward Sapir « Supra » P. 147 - 170.

وقد تعرّض عالم اللسان البنوي بلومفيلد الى مسألة التغير اللغوي والتفرع اللهجي ... وقد ناقش هذه المسألة من خلال شرحه للغة في مجتمع من المجتمعات وكيف يمكن لهذه اللغة ان تكون متنوعة تنوع الطبقات الاجتماعية الموجودة في مجتمع من المجتمعات ... وقد ناقش بلومفيلد هذه المسالة ايضا من خلال عدة مستويات لغوية « كالمستوى الادبي والمستوى العامي والمستوى الريفي والمدني والمستوى الاسلوبي »(٣٣) .
وقد استنتج بلومفيلد ان التغير الصوتي يمكن ان يكون :

١ ـ تغيرا آليا ميكانيكيا .

٢ ـ تغيرا منظما .

٣ ـ تغيرا ناتجا عن سيطرة فونم Phoneme ليس له وظيفة صوتية على فونم آخر له تلك الوظيفة .

ان التغيّر اللغوي من وجهة نظر بنوية بحتة انما هو تغير في السلوك البشري ذلك السلوك ليس وراثيا ولا فطريا بل هو وضع من اوضاع المجتمع الانساني .

ج ـ في الدلالات اللغوية والمعنى :

لقد كان مفهوم دي سوسور عالم اللسان الفرنسي للمعنى مفهوما تقليديا يشبه مفهوم العصور الوسطى الى حد ما على الرغم من ان دي سوسور لم يكن مهتما بمناقشة المعنى من الناحية السيكولوجية .

لقد نظر دي سوسور الى المعنى على انه نتيجة دلالية لرمز لغوي مكون من الارتباط البنوي بين الموضوع الخارجي وبين الصورة الذهنية لذلك الموضوع هذا الارتباط البنوي انما هو ارتباط وضعي عشوائي .

---

(33) Leonard Bloomfield « Supra » P. 43 - 56.

والواقع ان كل هذه الحقائق والدلالات اللغوية انما هي قيم لغوية تعني اكثر من رمز لغوي ذي دلالة معنوية .

وقد شرح دي سوسور هذه العلاقات الدلالية برموزها الصوتية من خلال طبيعة الصوت التسلسلية المتعاقبة (٣٤) .

وقد كان عالم اللسان الامريكي سابير استمرارا للنظرة التقليدية الى المعنى ولكن وضعه الدلالي كان حديثا الى حد ما .

لقد فهم سابير المعنى على انه عملية عالية من التفكير والتجريد . هذا المعنى هو مصطلح عقلي يرتبط مباشرة بالشكل اللغوي .

والواقع ان هذا المفهوم الدلالي جعل سابير يعتقد ان دراسة الشكل اللغوي يجب ان تكون مفصولة عن دراسة المعنى والدلالة وذلك لانه اذا كانت الرموز الصوتية والاشكال اللغوية مختلفة من لغة الى اخرى فان بعض الوجوه الدلالية انما هي مشتركة بين كثير من اللغات .

وهذا يعني ان سابير اعتبر القضية الدلالية قضية عالمية رغم ان الدلالة تحدد من خلال الشكل اللغوي في كل لغة من لغات العالم (٣٥) .

والواقع لقد كان عالم اللسان الامريكي بلومفيلد اكثر تطرفا في نظرته للمعنى ، نظرة بنوية تتفق مع الفلسفة السلوكية .

فقد اعتبر بلومفيلد المعنى على انه دلالة معجمية قادرة على التغيّر والتبدل من معنى الى آخر حسب اختلافات الوحدات اللغوية وتنوعها . . . ولكن العملية الآلية التي تحدد هذه الوظيفة الدلالية ليست عملية ذهنية فكرية بل انها عملية سلوكية متأثرة بالمحيطات الخارجية والفيزيائية (٣٦) وهذا يعني ان بلومفيلد اعتبر الظاهرة الدلالية ظاهرة نسبية تعتمد على الحالة الفيزيائية والفيزيولوجية من خلال اشكال لغوية .

(34) Ferdinand de Saussure « Supra » P. 49 - 50.

(35) Edward Sapir « Supra » P. 207 - 220.

(36) Leonard Bloomfield « Supra » P. 139 - 156.

وقد ناقش بلومفيلد في كتابه « اللغة « Language » عدة انواع لظاهرة الدلالة شارحا هذه التنوعات والتفرعات الجغرافية واللهجية .

ح ـ في الصوتيات العامة :

لقد ادرك دي سوسور مفهوم « Phoneme » وحدة لغوية صغرى قادرة على تمييز المعنى » ولكن مفهومه هذا كان غامضا .

ان هذه الوحدات اللغوية الصغرى عناصر فعالة في النظام اللغوي الجماعي « La Langue » والنظام اللغوي الفردي « Laparole » (٢٧) .

أما بالنسبة لعالم اللسان الامريكي سابير فانه لم يستخدم مصطلح فونم « Phoneme » في كتابه اللغة « Langnage » ولكنه أدرك مفهوم هذا المصطلح عندما شرح التغيرات الصوتية ... فالفونم كما يراه سابير انما هو وحدة صوتية تجريدية مثالية تهدف الجماعة الاجتماعية لنطقها بشكل سليم (٢٨) .

والواقع ان عالم اللسان الامريكي بلومفيلد قد شرح طبيعة الفونم ووظيفته بشكل واضح وذلك من خلال المعايير التي تتركب منها هـذه الوحدات الصوتية لقد فهم بلومفيلد الفونم على انه « وحدة صوتية صغرى قادرة على تمييز دلالة لغوية معينة »(٢٩) .

وقد ميز بلومفيلد بين الوحدات الصوتية ذات الوظيفة التفريقية القادرة على تمييز المعاني « Distinctive Features » وبين الوحدات الصوتية التي ليس لهاتلك القدرةعلى تمييزالمعنى « Non Disdinctive Features وقد اعتبر بلومفيلد هذه الوحدات الصوتية الاخيرة وحدات صوتية تلوينية النغمة الصوت ودرجته سواء من حيث العلو او الانخفاض .

---

(37) Ferdinand Bloomfield « Supra » P. 38.

(38) Edward Sapir « Supra » P. 56.

(39) Leonard Bloomfielld « Supra » P. 74 - 92.

على اية حال لقد كانت الدراسات الصوتية البنيوية دراسات عميقة وشاملة وقد كانت في الوقت نفسه اساسا قويا في بناء علم اللسان الحديث .

خ ـ تقويم لساني للبنيوية :

نرى مما تقدم ان علماء اللسان البنويين لم يكونوا على اتفاق عام حول المعايير التي من خلالها يتم التحليل اللساني .

وهكذا فان عالم اللسان الفرنسي دي سوسور كان مهتما بنظام القيم اللغوية بين الرموز الصوتية اكثر من اهتمامه بنظام الدلالات اللغوية وذلك لان دي سوسور اعتبر الدلالات اللغوية جزءا من نظام القيم اللغوية التي تعني اكثر من معنى لغوي .

والواقع ان دي سوسور لم يكن مهتما بالمفاهيم الصوتية والذهنية وهو لم يعالج علم الدلالة « Semantics » ذلك العلم الذي اصبح فيما بعد علما قائما براسه .

ان النزة السنكرونية الآنية الساكنة للغة جعلت دي سوسور غير مهتم بالتطورات اللغوية الفردية « Laparole » والتفرعات اللهجية .

وعلى خلاف النظرة السوسورية الفرنسية ، فان عالم اللسان الاميركي سابير نظر الى اللغة على انها حركة تطورية متغيرة على صعيدي الصوت والدلالة .. ولكن سابير لم يدرس الظاهرة الصوتية والدلالية من وجهة نظر فردية خالصة .. وهو لم يهتم ايضا ببعض الاشكال اللغوية الاخرى للسلوك البشري .

واذا كان سابير قد اعتبر اللغة على انها حركة متبدلة متغيرة الا انه لم يتناول العلاقات المتغيرة والمتبدلة ضمن البنية اللغوية .

والواقع ان الابعاد الجديدة لعلم اللسان البشري والتي كانت قد تطورت من خلال الدراسات اللسانية التي قام بها سابير انما هي الدراسات الانثربولوجية للغة . .

فاذا كان علم اللسان الانثروبولوجي « Anthropological Linguistics » قد اخذ ابعاده الواضحة في هذه الايام فانما يعود الفضل في ذلك الى الدراسات التي قام بها سابير على عدة لغات هندية اميركية .

اما بالنسبة الى عالم اللسان الاميركي بلومفيلد فقد نظر الى اللغة ــ متأثرا بالفلسفة السلوكية ــ على انها شكل من اشكال السلوك الانساني .. ولكن بلومفيلد لم يهتم بالتغيرات السلوكية للكلام الفردي في الجماعة البشرية وذلك على الرغم من ان منهجه الاستقرائي التجريبي في التحليل اللساني اكد على جمع المواد اللغوية المختلفة من افواه المتكلمين .
اضف الى ذلك ان بلومفيلد لم يلاحظ القدرة التحويلية المتغيرة ضمن البنية اللغوية ... ان ما اعتبره بلومفيلد تغيرا وتحولا في اللغة انما هو تحول وتغير سلوكي خارجي .

ولكن ــ والحق يقال ــ ان اهم ميزة يمكن ان تقال حول النظرية البنيوية في علم اللسان البشري هي جعل الدراسة اللسانية للغة دراسة علمية مستقلة عن بقية العلوم الاخرى في حقل المعارف الانسانية .

القسم الثاني

٤ ــ ثورة لسانية عالية :

كيف يمكن للانسان ان يكون قادرا على الخلق والابداع اللغوي ؟ بل كيف يمكن له أن يكون قادرا على انتاج عدد غير نهائي من الجمل اللغوية ... وبعبارة اخرى كيف يمكن لنا أن نشرح الحركة الدماغية في الذهن البشري من وجهة نظر لغوية بحتة ؟

ان نظرية القواعد التوليدية والتحويلية
« The Transformational Generatve Grammar
التي تنتمي الى عالم اللسان الاميركي تشومسكي والتي

كانت قد وجهت تلك الاسئلة على ضوء ماكان قد تم تطويره في حقل علم النفس انما قادت الى ثورة عالمية في الدراسات اللسانية بل العلمية ايضا.

لقد ظهر في عام ١٩٥٧ كتابان يتعلقان في الدراسات اللسانية الاول هو « السلوك اللغوي » لـ سكينر « Verdal Behavior Skinner » .. ذلك الكتاب الذي مثل ذروة النظرية البنوية في اللغة تلك النظرية التي تهدف الى وضع منهج سوكي في التعليم اللغوي قائم على اسس بنوية مشتقة من الفلسفة السلوكية .

اما الكتاب الثاني فهو « المباني التركيبية » لـ تشومسكي :
Chomsky. « Syntactic Structures »

فقد مثل هذا الكتاب النظرية الذهنية في علم اللسان البشري عارضا وجهة لسانية جديدة تختلف عن الوجهات اللسانية السابقة .

لقد عرفت هذه النظرية الجديدة في علم اللسان بـ « نظرية القواعد التوليدية والتحويلية » The Transformational Generative Grammar

وقد فتحت هذه الثورة اللسانية العالمية طرقا جديدة امام علماء النفس التقليديين وأمام المناهج النفسية القديمة وفهمها للطبيعة النفسية للغة.

وقد أثبتت هذه الثورة اللسانية ايضا ان العلاقات القائمة بين علم اللسان وعلم النفس انما هي علاقات وشيجة مثمرة بل هي مطلوبة في الوقت نفسه رغم ظهور بعض المشكلات التي يمكن لها ان تظهر من خلال دمج هذين العلمين .

فاذا كان علماء اللسان يحاولون ان يحددوا طبيعة اللغة التي هي استجابات سلوكية مدروسة من قبل علماء النفس ، فان مشروعية علماء اللسان في فعل هذا انما تعتمد على مواد وعينات نفسية لانواع من النطق الكلامي .. وبالتالي على المقدرة الذكائية للنفس البشرية في ادراك تلك الاشكال النطقية ، ان الثورة اللسانية التي كانت في اساسها ثورة نفسية هي تحليل لساني جديد .. ونعني بذلك ان المفاهيم التي جاءت بها هذه

الثورة اطرت ونظرت طرقنا في التحليل والتفكير تجاه الظاهرة اللغوية ... فهي لم تنظر الى الظاهرة اللغوية نظرة الخلف للسلف او نظـرة تقليديـة موروثـة .

وقد كانت هذه المهمة صعبة جدا كلفت تشومسكي صراعات عديدة مازال اثرها واضحا حتى الان .. وذلك لانه ليس من السهل على اي عالم لساني في خمسينات وستينات هذا القرن ان يتحول عن المعايير البنيوية في التحليل اللساني .

والحقيقة ان عددا كبيرا من علماء اللسان في مختلف بلدان العالم قد تقبلوا فيما بعد كثيرا من مبادىء النظرية الذهنية في علم اللسان ... بل لقد اعطى كثير من علماء النفس نتائج باهرة من خلال استخدام النظريـة الذهنية .

فاذا كانت النظرية الذهنية في علم اللسان نظرية قوية مقبولة في عالم اليوم فذلك لانها عالية شمولية بسيطة قادرة على الخلق والابداع اللغوي والواقع .. لم ترفض النظرية الذهنية في علم اللسان ماجاء به البنيويون برمته ... فقد اعترفت هذه النظرية بالجهود التي قام بها علماء اللسان البنويين وخاصةفي الدراسات الصوتية ... ولكنهافي الوقت نفسهحددت الوصف البنيوي للغة واقترحت اساليب جديدة لتصحيح الخطأ الذي وقع فيه البنويون .

لقد كانت نظرية تشومسكي الذهنية ثمرة لاتجاهات ثقافية وعلمية عديدة اثرت على الشكل الخارجي والمضمون الداخلي لتلك النظرية .

فتشومسكي يدين في نظريته الى استاذه عالم اللسان الاميركي زيلغ هاريس ... فقد كان لهذا العالم اللساني تأثير قوي على الشكل الخارجي للنظرية ... بل ان تأثيره تعدى ليشمل تأطير الفكـر اللساني لدى تشومسكي .

وقد كان لعالم اللسان الروسي رومان جاكبسون تأثير عظيم أيضا في بناء النظرية الذهنية ولا سيما في حقل الدراسات الصوتية(٤٢) .

فقد استطاع هذا العالم بقوته الفكرية وبحوثه الدقيقة ان يجعل تشومسكي يضع اللغة في صياغات ومعادلات رياضية تجريدية .. وربما يتجلى هذا في الكتاب الذي يعتبر اساسا للصوتيات العالمية والذي استغرق اكثر من عشر سنوات ليكون مقروءا ذلك الكتاب هو :

« الصياغة الصوتية الانكليزية » The Saund Pattern of English

فقد اعتبر تشومسكي الصوتيات اللغوية عبارة عن حركات توليدية عالمية وقد اثبت ايضا انه يمكن وضع نظرية منطقية لهذه الحركات الصوتية التوليدية والتي من خلالها يمكن ان نحصل على نتائج لغوية في صياغات رياضية .

والواقع ان النظرية الذهنية في علم اللسان مرت بعدة مراحل تطورية تتجلى المرحلة الاولى من مراحل النظرية في كتاب « المباني التركيبية » Syntactic Structures عام ١٩٥٧ ...

وتتجلى المرحلة الثانية من مراحل النظرية الذهنية في كتاب :

« وجوه النظرية النحوية » Aspects of the Theory of Syndax
عام ١٩٦٥ ..

---

(٤٠) انظر جاكبسون ، رومان ، دائرة المعارف البريطانية ، المجلد الخامس ص٥٥٣ فقد جاء فيها أن رومان جاكبسون كان مؤسسا من مؤسسي مدرسة براغ اللسانية التي كانت انعطافا كبيرا عن النظرية البنوية في علم اللسان .. وقد حاضر في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة عام ١٩٤١ .. وقد حاضر ايضا في جامعة هارفرد عام ١٩٤٩ عن اللغات السلافية . يعتبر جاكبسون العالم اللساني الاول الذي استطاع ان يضع الصوتيات اللغوية في اطار عالمي .

على ان المرحلة الثالثة من مراحل النظرية الذهنية انما تتمثل في الاعمال التي قام بها بعض الباحثين الذهنيين امثال « كاتز » و « فودور » والتي تقع تحت نظرية «علم الدلالة التوليدي» Generative Semantics (٤١)

وهكذا فان النظرية الذهنية في علم اللسان انما هي نتيجة للجهود والدراسات التي قام بها عدة باحثين في الولايات المتحدة ... ولكن ــ والحق يقال ــ تشومسكي كان الاب الفعلي لهذه النظرية .

٥ ــ الذهنية والتحليل اللساني :

لكي يحدد عالم اللسان الاهداف التي يمكن للنظرية اللسانية تشميرها فان عليه ان يوضح الموضوع الذي هو بصدد دراسته ثم الاساليب والطرق التي يمكن تطبيقها على ذلك الموضوع المدروس .

لقد اعتبر تشومسكي النحو نظرية لسانية قائمة بحد ذاتها يمكن ان تكشف لنا الاهداف اللسانية وكيفية صياغتها بشكل واضح ومفهوم وذلك من خلال الاساليب والطرق المناسبة .

هذه النظرية التحوية هي نظرية علمية . وعلى حد راي تشومسكي انه عندما نعرف كيف تتركب النظريات العلمية وكيف تصاغ فاننا سنعرف الاسس الفكرية لهذه النظريات وبالتالي سنعرف البنية التركيبية للوحدات اللغوية وعلاقاتها الصياغية .

وقد اعطى تشومسكي مثالا من الدراسات الفيزيائية العلمية ... ففي رايه ان النظرية الفيزيائية تشبه اية نظرية علمية من حيث انها ينبغي ان تعتمد على مايلي :

١ ــ عدد محدد من الملاحظات .
٢ ــ ربط هذه الظواهر الملحوظة .
٣ ــ التنبؤ بظواهر جديدة .

(41) Walter A. Cook, Variaus Lectures in the Course « Introduction to Trnsformational Generative Grammer Spring1979.

ان هذه العمليات التحليلية في الدراسات الفيزيائية هي نفسها في الدراسات اللسانية التي تعتمد على مايلي :

١ — ملاحظة عدد محدد من النطق الصوتي .

٢ — تمييز ماهو نحوي وماهو غير نحوي .

٣ — لكي تتم عملية التمييز بين ماهو نحوي وماهو غير نحوي ينبغي ان يكون هناك قانون عام يعرف العلاقات المنظمة الموجودة في الجمل النحوية . ومن خلال هذا القانون النحوي العام يمكن معرفة بنية الوحدات اللغوية وصياغاتها وبالتالي معرفة البنية النحوية السليمة والبنية النحوية التي هي مجرد صياغة عشوائية لاتخضع لاي قانون نحوي .

وقدنبه تشومسكي على بعض المشكلات التي يمكن لها ان تظهر نتيجة صياغة النظرية اللسانية .. وبهذا يجب على عالم اللسان ان يكون حذرا تجاه هذه المشكلات .

ان من شروط النظرية اللسانية حسب راي تشومسكي ان تخضع لمعيار **الدقة العلمية** .. فمن خلال هذا المعيار فانه يمكن التنبؤ بمعرفة الجمل النحوية التي ينبغي على المتكلم ان يقبلها ويستسيغها . وينبغي على النظرية اللسانية ان تخضع لمعيار **الشمولية والعالمية** . وذلك لان من اهداف النظرية اللسانية معرفة الاسس التي من خلالهايمكن تقرير ماهو لغوي بشكل عام وماليس كذلك .

اما المعيار الثالث الذي ينبغي للنظرية اللسانية تحقيقه انما هو معيار **البساطة اللغوية** . ان على النظرية اللسانية ان تشرح المواد اللغوية بشكل بسيط غير معقد (٤٢) .

لقد كان هم تشومسكي وضع معايير لسانية دقيقة يمكن لها ان تكشف وتظهر البنية النحوية داخل البنية اللسانية العامة .. وبذلك يمكن لنا ان نعرف الصياغات النحوية في اية لغة من لغات العالم .

ويرى تشومسكي ان المشكلة في هذه العملية التحليلية انما هي مشكلة **الاختيار** .. فقد افترض تشومسكي انه اذا كان هناك مشروعان او فرضيتان حول نحو لغة معينة ، فان على عالم اللسان ان يختار بدقة وحذر الفرضية النحوية المناسبة والملائمة للغة المدروسة .. ثم ان عليه ان يحكم ويقيم الفرضية النحوية بشكل موضوعي دقيق ومضبوط .

(42) Chomsky, Noam « Syntactic Stuctures » P. 49 - 60 (New York : 1957).

فاذا حقق عالم اللسان كل هذه الشروط في نظريته اللسانية فانه يمكن عندها معرفة نحو لغة معينة فيما اذا كان مصاغا صياغة جيدة او انه اقل جودة في ذلك ، وذلك من خلال تطبيق القانون النحوي العام الذي يميز بين الجمل النحوية والجمل غير النحوية .

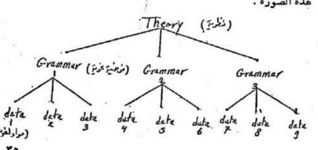
والحقيقة لقد اعتبر تشومسكي كل هذه المعايير اللسانية في تحديد البنية النحوية انما هي معايير نسبية وذلك لان مايمكن ان يكون معيارا بسيطا في لغة ما انما يمكن ان يكون معيارا معقدا متشابكا في لغة اخرى .
من هنا فقد راى تشومسكي ان المعيار اللساني الدقيق في ذلك هو ان ندرس البنية اللغوية التي نتكلمها ونعرفها قبل دراسة بنية لغوية مجهولة.

ا ــ من النظرية اللسانية الى الواقع اللغوي

تختلف النظرية الذهنية في علم اللسان في صياغتها واسلوبها وتطلعها الى الوحدات اللغوية عن النظرية البنيوية .

فاذا كان عالم اللسان بلومفيلد قد اسس النظرية البنيوية في علم اللسان من خلال استقراء الواقع اللغوي .. فان تشومسكي اراد من ذلك الواقع اللغوي ان يلائم ويناسب نظريته الذهنية . وذلك لان هذه النظرية تعتبر شعاعا ذهنيا على واقع لغوي عالمي ... وهذا بالطبع يخالف النظرية البنيوية التي تعتبر الواقع اللغوي واقعا حركيا قادرا على توليد النظرية اللسانية وصياغتها .

وقد اراد تشومسكي لنظريته اللسانية كما راينا من قبل ان يتوفر فيها معايير الشمولية والعالمية ، الدقة والضبط العلمي ، ثم البساطة اللغوية . انه يمكن لنا معرفة العملية التحليلية في النظرية الذهنية من خلال هذه الصورة :



وهكذا نرى من خلال هذه العملية التحليلية ان هناك عدة فرضيات نحوية :

G1 G2 G3) مرتبطة بنظرية ذهنية واحدة (Theory) قادرة على تبيين الاختلافات بين كل هذه الفرضيات النحوية . . وهي قادرة ايضا على كشف الجوانب الايجابية والسلبية لهذه الفرضيات النحوية (٤٣) .

ان عنصر الشمولية والعالمية ـ على حد راي تشومسكي . مطلوب هنا وذلك لربط النظرية اللسانية بالفرضيات النحوية . . وقد عنى تشومسكي بذلك ان نظريته يمكن ان تطبق على اية لغة من لغات العالم بغض النظر عن الاختلافات البنائية والتركيبية بين هذه اللغات سواء اكانت تركيبات نحوية او صوتية .

ان اهم عملية في النظرية اللسانية انما هي العملية التحليلية التقويمية فالتقويم اللساني يخبرنا ان الفرضية النحوية رقم ١ هي افضل من الفرضية النحوية رقم ٢ وان الفرضية النحوية رقم ٢ انما هي احسن من الفرضية النحوية رقم ٣ وهكذا

هذه الفرضيات النحوية المختلفة قادرة على انتاج مواد لغوية مختلفة وان العلاقة بين هذه المواد اللغوية هي علاقة وصفية .

والواقع ان عنصر الدقة والضبط العلمي انما هو مطلوب هنا وذلك لان هذا المعيار اللساني يربط الفرضيات النحوية بالمواد اللغوية . . . وهذا يجعل عالم اللسان يتساءل فيما اذا كانت العلاقة بين الفرضيات النحوية وبين المواد اللغوية علاقة صحيحة سليمة تعمل بشكل جيد .

وبعبارة اخرى . . انه يجب على الفرضية النحوية المختارة ان تكون قادرة على التوليد النحوي السليم ويجب على هذه الفرضية ان تزودنا بالقواعد التي تصف الجمل اللغوية وصفا دقيقا صحيحا .

---

(43) Walter A. Cook Various in the Course « Introduction to Transformational Generative Grammar » SPring 1979.

ب ـ في المفهوم العام للغة :

لقد اعتبر تشومسكي اللغة عبارة عن « عملية توليدية فعالة في الذهن البشري قادرة على الخلق والابداع اللغوي المنظم من خلال قانون نحوي عام في كافة اللغات البشرية » (٤٤) .

وقد رأى تشومسكي ان العملية اللغوية تتالف من ثلاثة عناصر بنائية : العنصر الاول هو **العنصر النحوي ••** وهو اهم عنصر في العملية اللغوية . تشمل الوحدات التركيبية لهذا العنصر كل الجمل النحوية ذات النظام الدقيق .

ان هدف هذا العنصر اللغوي هدف تنظيمي توليدي .. تنظيمي وذلك لانه يعطي معاني نحوية منظمة منسقة ... توليدي وذلك لانه ينتج عددا غير محدود من الجمل النحوية فقط .

اما العنصر الثاني في العملية اللغوية فهو **العنصر التحويلي ••** ونعني بذلك ان هذا العنصر قادر على تحويل الجملة الاساسية « Kernel Sentence الى جمل استفهامية وشرطية وتعجبية ثم الى جمل منفية .

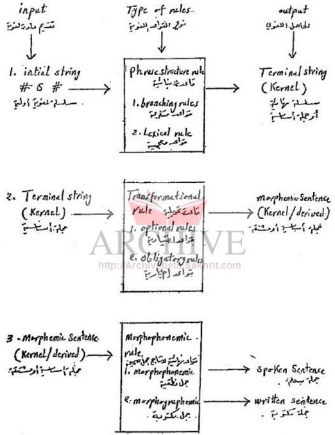
هذا العنصر التحويلي انما هو عنصر اجباري في حالة الجمل الاساسية « Kernel » ولكنه عنصر اختياري واجباري في الوقت نفسه في حالة الجمل التحويلية والمشتقة من الجمل الاساسية Kernea / derived

ان العنصر الثالث في العملية اللغوية **هو عنصر تركيبي** . والهدف من هذا العنصر اللغوي هو انتاج جمل صحيحة في صياغات لغوية اخيرة سواء اكانت هذه الجمل متكلم « Spoken » او مكتوبة « Written ».

والواقع ان العملية اللغوية المؤلفة من عدة مستويات تحليلية تتمثل في هذه الصورة :

---

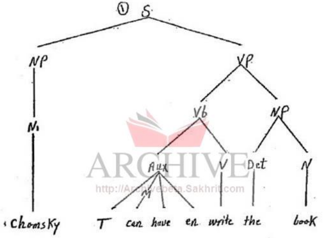
(44) Chamsky, Noam « Syntactic Structures » P. 21 (New York : 1957)


input
تقديم مادة لغوية
Type of rules..
نوع القواعد اللغوية
output
الحاصل اللغوي
1. intial string
S
سلسلة لغوية أولية
Phrase structure rule
قاعدة بنائية
1. branching rules
قواعد متفرعة
2. Lexical rule
قواعد معجمية
Terminal string
(Kernel)
سلسلة نهائية
أو جملة أساسية
2. Terminal string
(Kernel)
جملة أساسية
Transformational rule
قاعدة تحويلية
1. optional rules
قواعد اختيارية
2. obligatory rules
قواعد إجبارية
morphemic Sentence
(Kernel/derived)
جملة أساسية أو مشتقة
3 - Morphemic Sentence
(Kernel/derived)
جملة أساسية أو مشتقة
Morphophonemic rule
1. morphophonemic
جمل نطقية
2. morphographemic
جمل مكتوبة
spoken Sentence
written sentence
جملة مكتوبة

فاذا كان هناك جملة معينة مثل :

« The book Could have been written by Chomsky »

« من الممكن ان يكون الكتاب قد كتب من قبل تشومسكي » فانالحركة التوليدية والصياغة الرياضية لهذه الجملة الانكليزية يمكـن ان تكـون فيما يلي(٤٥) :



---

(45) S = Sentence :	جملة
NP = noun phrase :	عبارة اسمية
VP = Verb phrase :	عبارة فعلية
N = noun :	اسم
Vb = Verd + Auxiliary	فعل + فعل مساعد
V = Verb :	فعل
Aux = Auxiliary	فعل مساعد
Det = determiner	اداة تعريف
T = tense :	زمن

#8# The book could have been written by Chomsky
Chomsky could have written the book

(1)

A - phrase structure rules قواعد بنائية .

branching rules قواعد متفرعة .

1. S → NP + VP
2. VP → Vb + NP_1
3. Vb → AUX + V
4. Aux → T (M) (have + en)
5. M → can
6. NP_1 → Det + N
7. NP → N_1

lexical rules قواعد معجمية .

8. N_1 → Chomsky
9. N → book
10. Det → the
11. V → write

12. Topt - Passive.

B - Transformational rules قواعد تحويلية

NP—Auz—V—NP ——— NP — Aux + be + en—V—by + NP

where : V = transitive. « حيث ان الفعل متعدي »

(46) ——— = becomcs : يصبـــح
( ) = optional : اختيـــاري
M = madals : افعال مساعدة
Topt = Transformational optional : قاعدة تحويلية اختيارية
Passive = : مبني للمجهول
+ = plus : زائـــد

(1) 13. Tob - Tense

$$X - T - Y \Longrightarrow X - \begin{bmatrix} Pres \begin{bmatrix} S/NP_{3s} \\ \emptyset/NP_{e} - \end{bmatrix} \\ Past \end{bmatrix} - Y$$

14. Tob - Affix

$$X - Af + VS - Y \Longrightarrow X - VS + Af - Y$$

where Af = T, en, ing

VS = M, V, have, be

15. Tob - Boundary

$$X - Y \Longrightarrow X - \# Y$$

where $X \neq VS$

$Y \neq Af$

16. can + past ⟶ could

17. be + en ⟶ been

18. write + en ⟶ written

C- Morphophonemic rules [illegible]

(47)

قاعدة تحويلية زمنية اجبارية :

Tob — Tense = Transformational obliigatiry Tense

X — T — Y = عبارة عن رموز تمثل اجزاء الجملة

Pres = Present زمن في الحاضر S/NP = الشخص الثالث الغائب

Past = زمن في الماضي Q/NP = اي ضمير يقع في اي مكان

Affix = اضافة لغوية Af = Affix اضافة لغوية

VS = Verb Stem. الفعل الاصلي

Boundary = حدود بين الوحدات اللغوية

= Baundary اشارة تفصل بين وحدتين لغويتين

≠ = is nat egual غير مساو او معادل

(1)Extended derivation. الاشتقاق اللغوي وتطبيق القواعد

by 1- 11 #.Chomsky + T + can + have + en + write + the + book .# ...
by. 12 .. # the + book + T + can + have + en + be + en + write + by + Chomsky #
by 13 .- # the + book + past + can + have + en + be + en + write + by + Chomsky #
by 14 .# the + book + can + past + have + be + en + write + en + by + Chomsky #
by 15 .# the # book # can + past # have # be + en # write + en # by # Chomsky #
by 16 - 18 .# the # book # could # have # been # written # by # Chomsky .#

(2)« The book could have been written by Chomshy »

وهكذا نجد ان الواحدات اللغوية
(written - been - have - could - book - a - Chomsky - by)
ينبغي ان تمر في عدة معادلات رياضية وذلك ليكون الحل اللغوي صحيحا من الناحية الصوتية والكتابية .

لقد بدا علماء اللسان ـ بعد ظهور كتاب « المباني التركيبية » Syntactic Structures لتشومسكي ـ يفهمون اللغة على انها مؤلفة من عناصر لغوية أساسية وعناصر لغوية فرعية ... هذه العناصر اللغوية انما هي مشتركة بين اللغات البشرية كلها .. من هنا فان اللغة ـ على حد راي تشومسكي ـ بعدا عالميا شموليا .

ت ـ في النحو

لقد فهم تشومسكي النحو على انه عملية تركيبية تنظيمية توليدية قادرة على انتاج جمل نحوية صحيحة من خلال عدة مستويات لغوية (٥٠).

---

(48) by 1 — 11 = ... يتطبيق القاعدة رقم (1) الى (11) ينتج
= = Baundary اشارة تفصل بين وحدتين لغويتين بسيطتين
(49) Walter A. Cook. « Various Lectures in the course » « Introduction to Transformational Generative Grammar » Spring 1979.
(50) Chomsky, Noam « Syntactic Structures » P 13 - 17. (New York : 1957).

وقد ذكر تشومسكي ان هناك معايير لغوية .. يمكن لها تحديد ماهو لغوي في مجتمع من المجتمعات . من هذه المعايير اللغوية :

١ ــ المعيار النحوي .
٢ ــ المعيار القبولي .

ان هذين المعيارين اللغويين انما هما معياران نسبيان .. وقد عنى تشومسكي بذلك ان هناك مستويات عديدة لتحديد صحة الجملة او خطئها .... فهناك الصحيح والحسن والمقبول وهكذا ...

ان المعيار القبولي هو معيار لغوي متعلق بالدراسة اللسانية للاداء الكلامي « Performance » ولكن المعيار النحوي يتعلق بالدراسة اللسانية للكفاءة الكلامية Competence .

ولكي يوضح تشومسكي هذه المسالة فقد اعطى هذا المثال (٥١) :
« I called the man who wrote the book that you told me a bout up »

« لقد اتصلت بالانسان الذي كتب الكتاب الذي كنت اخبرتني عنه »
وقد اراد تشومسكي من ذلك الاستشهاد على ان هذه الجملة الانكليزية انما هي جملة غير مستساغة او مقبولة من حيث المعيار القبولي ولكنها جملة اسلوبية رفيعة من حيث المعيار النحوي .

وقد توصل تشومسكي الى ان المعيار النحوي ليس هو المعيارالوحيد في جعل الجملة اللغوية صحيحة في لغة من اللغات .

ان العامل النحوي هو عامل واحد من عدة عوامل لغوية يمكن لها تقرير صحة الجملة او خطئها .

والواقع لقد اعتبر تشومسكي العملية النحوية مستقلة عن العملية الدلالية او المعنى .. فما هو نحوي يختلف عما هو دلالي على الرغم من أن العلاقة بين النحو والمعنى علاقة نسبية يمكن ان يكون لها جوانب ايجابية (٥٢) .

---

(51) Chomsky, Noam, « Aspects of the theory of Syntax » P. 11. (The massachusetts Institute of Technology : 1965).

(52) Chomsky, Noam « Syntactic Structures » P 13 - 17. (New York : 1957).

على اية حال لقد اشترط تشومسكي في العملية النحوية مايلي :

١ ـ ينبغي على قواعد النحو ان تكون محدودة

٢ ـ ينبغي على قواعد النحو ان تنتج عددا غير محدد من الجمل اللغويــة .

٣ ـ ينبغي على العملية النحوية ان تكون وصفية شكلية مستقلة عن العملية الدلالية والمعنى .

وقد اعطى تشومسكي المثال التالي ليدل على مايعنيه بالعملية النحوية :



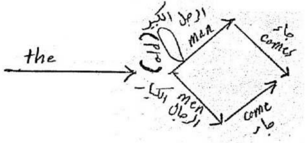
ان هذا المثال يبين الاداة النحوية التي يمكن لها ان تنتج عددا محددا من الجمل اللغوية لذلك فاننا نلاحظ ان هذه الاداة النحوية قد انتجــت جملتين لغويتين :

« The Man comes » جاء الرجل

« The men come » جاء الرجال

وهكذا فان قاعدة نحوية كهذه يمكن ان تسمى « بالقاعدة النحوية المحددة » وذلك لانها تقتصر على حالتين لغويتين فقط .

وقد اشار تشومسكي الى ان هناك قواعد نحوية يمكن لها ان تنتج عددا غير محدد من الجمل اللغوية وذلك من خلال اضافة اداة نحويــة جديدة يمكن لها ان توسع العملية النحوية . وقد اعطى تشومسكي مثالا آخر ليدل على هذه الحالة :



ان اضافة الاداة الجديدة الى العملية النحوية يمكن ان ينتج كلمة جديدة مثل Old كبير .

والواقع ان هناك عددا كبيرا من الادوات النحوية التي يمكن لها ان تنتج عددا غير محدد من الجمل اللغوية في اية لغة من لغات العالم(٥٣) .

ث ــ في الدلالات اللغوية والمعنى :

يعتقد تشومسكي بان نظريات علم الدلالة والمعنى ليست نظريات مضبوطة ودقيقة وهي بالتالي ليست تامة قادرة على وضع معيار دلالي دقيق يمكن من خلاله تحديد طريقة معينة قادرة على تحديد ما هو نحوي وماهو ليس بذلك ، من هنا يرى تشومسكي ان النحو مستقل عن الدلالة والمعنى .. رغم وجود بعض العلاقات النسبية بينهما . وفي رايه ان من الافضل ان نضع تحليلا نحويا واضحا يمكن ان يدعم الدلالات اللغوية بدلا من بناء النحو على اسس دلالية معنوية .

ان الحجة التي اتى بها تشومسكي هي ان هناك جملا غير لغوية ونحوية ولكنها مقبولة مستساغة من الناحية الكلامية وفي الوقت نفســـه

(53) Chomsky, Noam « Syntactic Structures » P 19. (New York : 1957).

هناك جمل نحوية لكنها غير مقبولة او مستساغة كلاميا .. من هنا فان المعيار النحوي يمكن ان يتداخل مع المعيار الدلالي وهذا بالطبع يؤدي الى مشكلات لسانية كثيرة .

لذلك فقد جند تشومسكي فصلهما الى معيارين مستقلين(٥٤) .

والواقع لقد أشار تشومسكي في كتابه Syntactic Structures « المباني التركيبية » للحاجة الى وضع نظرية دلالية في المعنى تسهم في اعطاءتفسيرات نحوية لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية .

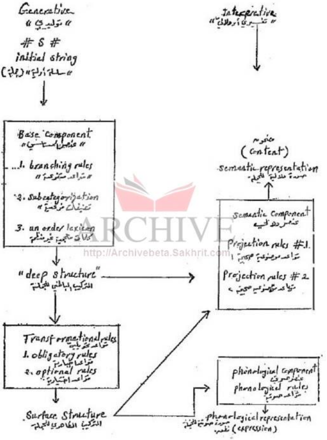
ولكن تشومسكي نفسه لم يكن مهتما بهذه المسألة في بداية المرحلة الاولى من نظريته عام ١٩٥٧ ... ولكنه اثارها من جديد في المرحلة الثانية من مراحل النظرية عام ١٩٦٥ وذلك من خلال كتابه :

« Aspects of the Theory of Syntax » وجوه النظرية النحوية » وقد حاول تشومسكي الاستفادة من الدراسات الدلالية التي قام بها عالما اللسان الامريكيين كاتز و فودور (٥٥) وهكذا نرى ان تشومسكي حاول ان يعدل نظريته عام ١٩٦٥ مفسرا الحركة التوليدية للنحو دلاليا معتمدا الى حد ما على المعنى وربما يظهر هذا التعديل اللساني من خلال هذه الصورة :

---

(54) Chomsky, Noam « Aspects of the theory of Syntax » P. 160 - 162 (Massachusetts Institute of Technology : 1965).

(55) J. J. Katz and P. Postal An Integrated theory of Linguistic Descriptions (M. I. T Press : 1964).



Generative
" توليدي "
S
initial string
" سلسلة أولية " (جملة)
Base component
" عنصر أساسي "
1. branching rules
" قواعد متفرعة "
2. subcategorization
تصنيفات فرعية "
3. un order lexicon
كلمات معجمية غير منظمة
"deep structure"
التركيب الباطني للجملة
Transformational rules
قواعد تحويلية
1. obligatory rules
قواعد إجبارية
2. optional rules
قواعد اختيارية
Surface Structure
التركيب الظاهري للجملة
Interpretative
" تفسيري أو دلالي "
مضمون
(Content)
semantic representation
صورة دلالية للجملة
semantic Component
عنصر دلالي
Projection rules #1.
Projection rules # 2
phonological component
عنصر صوتي
phonological rules
قواعد صوتية
phonological representation
صورة صوتية للجملة
نطق (expression)

وهكذا نلاحظ ان التركيب الظاهري للجملة Surface Structure في المرحلة الاولى من مراحل نظرية القواعد التوليدية والتحويلية لـم يفسر تفسيرا دلاليا .. بل لقد كان يفسر تفسيرا نحويا فقط .

ولكنه في المرحلة الثانية من مراحل النظرية — وكما نرى مـن الصورة المرسومة فان التركيب الظاهري للجملة فسر تفسيرا نحويا ودلاليا في الوقت نفسه(٥٦) .

وهذا بالطبع ردة فكرية لسانية الى التحليل اللساني على معيارين لغويين وهما المعيار الشكلي (النحوي) والمعيار الدلالي (المعنوي) وذلك كضرورة تحليلية لاية بنية لغوية عالمية .

والواقع هذا ما اخذ به علماء اللسان العرب القدامى المتقدمين امثال الخليل بن احمد وسيبويه وابن جنى .. فقد ادرك العلماء ان التحليل اللساني لبنية اللغة العربية انما هو تحليل للشكل والمضمون في الوقت نفسه وذلك لان البنية اللسانية الشكل انما تؤطر البنية اللسانية للمضمون والدلالة .. واذا قلبت الاية تكون قد طبقت المحز على التمام .

ج — في الصوتيات العامة

لم يرفض تشومسكي كل ما جاء بـه البنويون في الدراسـات الصوتية .. ولكن دراساته وبحوثه الصوتية كانت اكثر شمولية ودقة .

فقد نظر تشومسكي الى الصوتيات الحديثة نظرة شمولية عالمية ..

وربما كانت هذه النظرة الصوتية متأثرة بالدراسات الصوتية التي قام بها عالم اللسان الروسي رومان جاكبسون « Roman Jakobson ».

ومن المعروف ان جاكبسون كان الباحث الاول الذي استطاع ان يضع نظرية صوتية عالمية عرفت بـ « نظرية الصفات الصوتية المميزة » « The Distinctive features Theory »

لقد اعتبر تشومسكي الصوتيات الحديثة عبارة عن معادلات رياضية

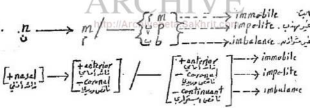
((56) Walter A. Cook. « Various Lectures in the Course 9 « Intraduction to Transformational Generative Grammar » Spring 1979.

تجريدية وذلك لان هدف النظرية الذهنية هو اعطاء بعد توليدي دينامي لكافة الصوتيات العالمية .

ان كتاب تشومسكي The Sound Pattern of English « الصياغة الصوتية للانكليزية » والذي كان نتيجة عمل دام اكثر من عشر سنوات انما يمثل البعد الرياضي التجريدي في الصوتيات العالمية الحديثة .

فاذا كانت الدراسات البنوية قد ادركت بعض الوجوه الصوتية في عدة لغات عالمية وذلك من خلال جمع المواد اللغوية من عدة لغات هندية اميركية وتحليلها تحليلا حديثا .. فان النظرية الذهنية حاولت ان تضع الصوتيات العامة في اطار من المعادلات الرياضية التوليدية تلك المعادلات الرياضية يمكن لها ان تعمق معارفنا الانسانية حول طبيعة الصوت الخلاقة على حد تعبير تشومسكي .

فاذا كان هناك مثلا ظاهرة صوتية تدل على ان النون (n) تصبح ميما (m) اذا اتت قبل الميم (m) او الباء (b) او الباء (P) فان الصاغةالريا ضيةلتلك الظاهرة الصوتيةيمكن ان تكون في هذهالمعادلة:



ويمكن ان نقرأ هذه المعادلة الرياضية كمايلي :

١ ـ ان صوت النون (n) تصبح ميما (m) اذا جاء قبل الاصوات م (M) او ب (P) او ب (b)

وفي المعادلة الرياضية الثانية فقد اعطى تشومسكي الصفات الفيزيولوجية لهذه الاصوات .

٢ ـ ان أي صوت انفي ذي غنة يصبح صوتا ناتجاعن احتكاك صوتي امامي غير وريدي وذلك اذا اتى قبل صوت أمامي غير وريدي او استمراري في حركته الصوتية (٥٧) .

وهكذا فان الهدف من هذه العمليات الرياضية هو تعميق المعرفة الانسانية بطبيعة الصوت وبالتالي معرفة البنية الحركية للصوتيات الحديثة التي هي اساس العمل اللغوي في كافة اللغات البشرية .

ح ـ تقويم لساني عام :

الواقع ان تشومسكي لم يعالج في نظريته الذهنيـة قضية التغير اللغوي والتفرغ اللهجي ... وكأنه اعتبر اللغة نظاما من القيم الانسانية كما كان الامر عند فردينان سوسور عالم اللسان الفرنسي ..

ولكن تشومسكي عالج قضية التغير اللغوي على المستوى الفردي فقط Performance وقد عالج القضية على المستوى الذهني ايضا ولكنه لم يعالج القضية على المستوى الجماعي .

على اية حال لقد حاول تشومسكي من خلال دراساته اللغوية ان يلفت الانظار الى اتجاه جديد في الدراسات اللسانية ذلك الاتجاه الذي له أكثر من بعد تحليلي « بعد رياضي ، بعد فيزيولوجي ، بعد فيزيائي بعد نفسي » .

والحقيقة ان الدراسات اللسانية السابقة كانت دراسات اجتماعية اكثر منها دراسات علمية معتبرة اللغة ظاهرة اجتماعية متغيرة تغيـر الزمان والمكان .

لقد كانت النظرية الذهنية في علم اللسان نظرية علمية فعلا أثبتت أن الدراسة اللسانية للبنية اللغوية لاتقل اهمية عن الدراسات الفيزيائية لبنية العالم الخارجي .

---

(57) Saville - Troike « Various Lectures in the Course : English Structure : Phonology «Summer 1978» See also «Chomsky, Noom « The Sound Pattern of English » (New York:1968).

والواقع لقد فتح تشومسكي بابا جديدا في حقـــل الدراسات اللسانية ذلك الحقل يعرف « بالدراسات الاستراتيجية اللغوية » القائمة بين الولايات المتحدة الامريكية وبين الاتحاد السوفياتي .

ولعل حقل اللسانيات المتعلقة بالعقول الالية او ما يسمى بلغـــة التعريب « كمبتة اللسانيات » Computational Linguistic خير دليل على ذلك ... فلا يمكن للمرء ان يتخيل الاجهزة الموجودة في جامعات الولايات المتحدة والتي من مهماتها الترجمات الالية للغات السلافية وغيرها مـــن اللغات البشرية ترجمة الية معتمدة على العقول بالالكترونية .

٦ ــ وجهة نظر لسانية مقارنة :

ان اهم الاختلافات بين النظرية البنوية وبين النظرية الذهنية يمكن ان تنحصر فما يلي :

١ ــ النظرية البنيوية في علم اللسان نظرية سلوكية واقعية :

لقد كان المنهج اللغوي المعروف في الدراسات البنوية انما هو منهج سلوكي متاثر بالفلسفة السلوكية .. وهذا يعني ان تلك الدراسات نظرت الى اللغة على انها سلوك كلامي متاثر بالعوامل الخارجيـــة التي تحيط بالانسان .

فكل نطق صوتي انما هو استجابة لاثارة خارجية محيطة . وقـــد ركز المنهجالبنوي ايضا على السلوك الخارجي للانسان واعتبره عينات لغوية اصلية يمكن استخدامها في البحث والاستقصاء .

ولكن المنهج البنوي في الوقت نفسهاهمل السلوك الداخلي والفعالية النفسية والفكرية في الدماغ البشري .

وعلى النقيض من ذلك **فان النظرية الذهنية في علم اللســـان هي نظرية فكرية نفسية ركزت على السلوك الداخلي للانسان .**

لقد اعتبر تشومسكي اللغة قدرة فطرية مناسبة للانسان وحـــده لذلك ينبغي على التحليل اللساني ان يشرح تلك المقدرة بوسائل فكريـــة ونفسية لمعرفة طبيعة اللغة وفعالياتها .

لقد اعتبر تشومسكي ان اي منهج يحاول ان يشرح هذه المقدرة اللغوية في مصطلح سلوكي خارجي فقط انما هو غبن واماتة للخلق اللغوي .

٢ ـ النظرية البنيوية في علم اللسان نظرية وصفية :

كان الهدف الوحيد للدراسات البنيوية اللسانية انما هو هدف وصفي فقط .

لقد كان هم المنهج البنوي جمع مواد لغوية ووصفها وصفا خارجيا والكي يكون التحليل اللساني علميا ـ على حد راي بلومفيلد ـ ينبغي ان يكون وصفيا مبتعدا عن التصور التجريدي والعمل الذهني والفكري . **ولكن الهدف الوحيد للنظرية الذهنية في علم اللسان انما هو الشرح اللغوي** فالتحليل اللساني للاداء اللغوي Performance انما هو عملية سابقة لتحليل الكفاءة اللغوية Competence ولكن الهدف من ذلك هو شرح الحركة الذهنية وبالتالي القدرة للكفاءة اللغوية الموجودة في الدماغ البشري .

٣ النظرية البنوية في علم اللسان هي نظرية استقرائية تجريبية « The inductive method »

ان الاسلوب البنوي في وصف اللغات البشرية هو اسلوب استقرائي تجريبي موضوعي يعتمد على الدقة والضبط العلمي ، من خلال خطوات اربع في التحليل اللساني :

١ ـ ملاحظة المادة اللغوية
٢ ـ حدس المادة اللغوية
٣ ـ صياغة فرضية للمادة اللغوية
٤ ـ فحص الفرضية اللغوية وتدقيقها .

وهكذا فان الاسلوب البنوي هو **اسلوب تجريبي** يعتمد على ذكاء عالم اللسان وخبرته في التحليل اللساني .

ثم ان هذا الاسلوب البنوي هو اسلوب قائم على **الضبط العلمي** الذي يجعل التحليل اللساني **تحليلا موضوعيا** .

لقد رفضت النظرية الذهنية في علم اللسان الاسلوب البنوي في التحليل اللساني وذلك **لان هذا الاسلوب انطلق من الواقع اللغوي الى**

النظرية اللسانية ثم انه لم يكن اسلوبا فعالا مولدا وهو لم يشرح الفعالية اللغوية من الداخل بل وصفها وصفا خارجيا .

فلكي يحلل عالم اللسان اية لغة من لغات العالم — على حد رأي تشومسكي — فان عليه ان يقترب اكثر فاكثر من المتكلم لمعرفة المقدرة الكلامية التي تعمل داخل الذهن البشري .

ففي هذه المرحلة فان عالم اللسان يبدأ من النظرية اللسانية والصياغات اللغوية لينتهي الى الواقع اللغوي .

والواقع ان التحليل الذهني اللساني يبدأ من هذه الخطوات التالية

١ — وضع فرضية لغوية حسب نظرية علمية .
٢ — تطبيق الفرضية اللغوية وتجريبها على مواد لغوية معينة .
٣ — اعادة صياغة الفرضية اللغوية اذا دعت الحاجة لذلك .
٤ — تثبيت الفرضية اللغوية في حالة مناسبتها للمواد اللغوية .

وهكذا فان النظرية الذهنية في علم اللسان تبدأ من الذهن البشري الى الواقع اللغوي وذلك لتلائم بين ما هو ذهني فكري وما هو واقعي لغوي .

٧ — نحو نظرية لسانية عالمية انسانية :

الواقع ان التطورات التي تمت في الدراسات اللسانية هي عظيمة في نوعيتها وكيفيتها في الوقت نفسه . ولكن والحق يقال لقد حاول عالم اللسان الاميركي تشومسكي ان يشرح الدراسات اللسانية واستمراريتها في العصر الحديث اكثر مما فعل اي عالم لساني حتى الان .

ان التطور اللساني يقاس من خلال مقدرتنا على ربط الوحدات اللغوية بنظام لساني فائق في التنظيم والتنسيق على ان ربط هذه الوحدات اللغوية بنظام دقيق انما يختلف من عالم لساني الى عالم لساني اخر .. وذلك لانه ليس هناك اتفاق عام بين علماء اللسان حول كيفية التحليل اللساني للظاهرة اللغوية .

فبعضهم يرى ان التحليل اللساني المناسب انما هو التحليل السنكروني الاني وبعضهم يرى ان التحليل التطوري الدياكروني هو انجع

وافضل . على اية حال لقد ربحت الدراسات اللسانية كثيرا من خلال هذا الخلاف والنقاش سواء اكان بنويا أو ذهنيا أو وظيفيا .

ويبدو من خلال هذه الوجهات اللسانية احتمالية كبيرة لتطوير نظرة لسانية تحليلية موحدة حول الحقائق اللغوية وعلاقاتها بالعلوم الاخرى في حياة الانسان .

ان الفرق بين الدراسات اللسانية القديمة والدراسات اللسانية الحديثة هو فرق في **الدقة والشمولية ــ والعالمية** سواء اكان ذلك على صعيد الشكل اللغوي او الدلالة اللغوية .

والحقيقة ان هناك املا كبيرا بين علماء اللسان المعاصرين ولا سيما عالم اللسان الدانماركي هيلمسليف بان العلاقات الوشيجة بين علم اللسان وبقية العلوم الانسانية انما ستثمر دراسات اكثر دقة وعلمية وشمولية (٥٨) .

فليست النظرية اللسانية التي نتطلع اليها رغبة داخلية ولا هي ضرورة خارجية لادراك النظام اللغوي فحسب بل هي نظرية لسانية لادراك الانسان والمجتمع الانساني الذي يقف وراء اللغة ولادراك المعرفة الانسانية من خلال اللغة ايضا .

فاذا كان ذلك كذلك فان النظرية اللسانية ستحقق هدفها النهائي الذي هو هدف انساني وعالمي .

---

(58) Louis Hjelmslev « Prolegomena to a Theory of language P. 127 Translated by Francis whitfield « University of Wisconsin Press : 1961.

ثبت المراجــع

1. Bloomfield, Leonard, « Language » New York : 1933.
2. Bolinger, Dwight « Aspects of Language » Sanfrncisco : 1968.
3. Chomsky, Noam « Syntactic Structures » New York 1957.
4. Chomsky, Noam « Aspects of the Theory of Syntax » Massachasetts Institute of Tech nology. 1965.
5. Chomsky, Noam « The Sound pattern of English » New York : 1968.
6. De Saussure, Ferdinand, « Course in General Linguistics Translated by Wade Baskin, New York 1959.
7. « Encyclopeadia Britannica » Volume V. U. S. A. 1979.
8. J. B. Watson and W. Mac Dougall, « The Battle of Behaviorism » New York : 1929.
9. Robins, R. H. « Ancient and Medieval Grammatical Theory in Europe » London : 1951.
10. Robins, R. H., « Dionysius Thrax and the Western Grammaticla » Transactions of the philological Society. London:1957
11. Robins, R. H., « Ashort History of Linguistic » London, 1967.
12. Sapri, Edward « Language : An Introduction to the Study of Speech » New York 1949.
13. Sapir, Edward « Culture, Language and Personality » London : 1956.
14. Saville, Troike « Various Lectures in the Course : English Structure : Phonology » Summer 1978. « Unpublished ».
15. Skinner « Verbal Behavior New York : 1957.
16. Walter A. Cook « Various Lectures in the Course : Intraduction to Tronsformational Generative Grammar « Spring 1979. Unpublished.
17. Walter A. Cook « Various Lectures in the Course : Tagmemic Analgsis » Fall 1968. Unpublished.

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الموسوعة العلمية الميسرة

المجلد الاول ــ الجزء الاول

تاليف : نخبة من المؤلفين

ترجمة : ابراهيم خوري
ادهم عضمة
زهير شنانة
صموئيل شديد
نجيب جوجود

مراجعة : فؤاد خوري
عبد الكريم ناصيف

■ ■ ■

صالبا

روايـة

تاليف : يلماز غوني

ترجمة : فاضل جنكر

الحقيقة الفلسفية والحقائق العلمية

تيسير شيخ الارض

مقدمة

يميل الذهن البشري الى التجزيء والتجريد ؛ فيرى العالم جملة من الحقائق الجزئية المختلفة، ينشيء لكل منها قانونا عمليا مخالفا للقانون العلمي الذي ينشئه لحقيقة جزئية اخرى . وهكذا يبدو العالم جملة من الظواهر المختلفة المستقل بعضها عن بعض . وهذا يعني ، ان العالم في هذه النظرة فقد وحدته ، واصبح موضوعات جزئية متفرقة . لاشك ان هـذا مقبول بالاضافة الى الانسان العادي من ناحية ، والى العالم من ناحية اخرى . ولكن الفيلسوف لا يسعه الا ان يتساءل : احق ان العالم جملة من الموضوعات المتفرقة، والظواهر المختلفة ؟ أليس وراء هذه الحقائق الجزئية والمجردة حقيقة كلية ومشخصة ؟ وكيف يمكن أن تكون هناك حقائق جزئية ، اذا لم يكن هناك حقيقة كلية تسندها ، فتستمد منها معناها بما هي حقائق جزئية؟ واذا كانت هذه الحقائق هي موضوعات العلوم الجزئية المختلفة ، فما الحقيقة التي يمكن ان تكون « موضوع » الفلسفة ؟

ولكن تساؤلا كهذا يفترض ان هناك حقيقة هي « موضوع » الفلسفة ؛ كما ان الحقائق الجزئية المختلفة هي موضوعات العلوم الجزئية المختلفة . وهذا يجعلنا نتساءل : ما هذه الحقيقة التي يمكن أن تكون « موضوع » الفلسفة ؟ قد يبدو لنا ونحن نقرن « موضوع » الفلسفة بموضوعات العلوم الجزئية ، ان الحقيقة الفلسفية هي الحقيقة الكلية ، طالما أن الحقائق الجزئية هي موضوعات العلوم الجزئية ! ولكن افتراض مثل ذلك لابد له من ان يكون مدعاه للتأمل؛ والتأمل لابد له من ان يجعلنا نسائل انفسنا : هل هناك حقيقة كلية بالمعنى الصحيح للكلمة ؟ وهل الحقيقة امر ذاتي محض او أمر مرتبط بموضوع من الموضوعات ؟ اذا كانت الحقيقة امرا ذاتيا ، لا تختلط عندئذ بالوهم ، وتصبح امرا نصنعه كما يحلو لنا ؟ واذا كانت مرتبطة بموضوع من الموضوعات ، الا تصبح حقيقة جزئية ، من حيث ان الموضوع دائما موضوع ماثل امام الذات ، يحدها وتحده ؟! وفي هذه الحال ، الا تختلط الفلسفة بالعلوم الجزئيــة ، باختلاط « موضوعها » بموضوعات هذه العلوم ؟ ثم الا ينتهي الامر بأن تنطوي الحقيقة الكليــة على تناقض في الحدود ؟

انـنا لانرى ان هناك حقيقة كلية بالمعنى الدقيق للكلمة . فالحقيقة ، اية حقيقة ، ومنها « الحقيقة » الكلية ، هي حقيقة بالاضافة الى الذات ، التي تعدها حقيقة . ومعنى ذلك ، انها محدودة بالذات ، وبالتالي جزئية. وهذا ينتهي الى أن الفلسفة ليس لها حقيقة تدرسها ؛ وانها بالتالي لغو لا طائل وراءه . فهل الفلسفة كذلك يا ترى ؟ اننا لا نعتقد ذلك ، بل نرى خلافا له ، ان « حقيقة » الفلسفة هي « الحقيقة » التي تشتق منها كل حقيقة اخرى . واذا صح ان كل حقيقة لا تناسبها ، كان لابد لنا من التحري عنها ، والبحث عن كلمة مناسبة لها .

لقد أشرنا في مناسبات عدة ، الى ان « موضوع » الفلسفة هو الكل المشخص ؛ او الحقيقة كاملة التشخيص . ولكن انعام النظر في اي من هاتين التسميتين ، يظهر لنا أنها ليست دقيقة الدقة الكافية ؛ فهي لاتنطوي على لبس فقط ؛ بل على تناقض في الحدود ايضا : فالكــل المشخص

يفترض ونحن نتحدث عنه، ذاتا تتصوره وتتحدث عنه. وهذا يعني انه اصبح موضوعا لهذه الذات، وبالتالي جزئيا؛ اي ليس كلا مشخصا. وهذا الكلام يصح بصحة مماثلة على الحقيقة كاملة التشخيص. فكيف نخرج من هذا المأزق؟

في رأينا ان «موضوع» الفلسفة ليس الحقيقة الكلية ولا الحقيقة الجزئية؛ بل ما وراء الحقيقة الكلية والحقائق الجزئية جميعا. وسندعوه الحقثوان؛ اي ما يسبق كل حقيقة. ولكن حذار من ان نفهم «الماوراء» هنا، على غرار فهم الفلسفات التقليدية. ف «الماوراء» هنا هو الوجود المشخص والوجدان في وحدتهما المشخصة السابقة على تمايزهما معرفيا، والتي دعوناها اجدوانا؛ اي ما يسبق الوجود والوجدان. وهكذا نرى ان «الماوراء» لدينا، ليس مبادىء مجردة على غرار مبادىء الفلسفة التقليدية، بل ما يعزو الوجدان اليه هذه المبادىء؛ اعني الوجود المشخص، الذ يجرد العقل منه هذه المبادىء(١). ولكي نبين ذلك، لابد لنا من التوقف عند «الحقيقة» كاملة التشخيص، ونرى كيف يتجرد الوجدان منها، ويجرد الحقيقة الاولى الى وجود وصيرورة من ناحية، وموجودات وحوادث جزئية تنتج عن حركة الصيرورة من ناحية اخرى؛ لننتقل من بعد، الى معنى التغير والتطور والزمان والتاريخ من حيث انها معان لاحقة بالصيرورة؛ ولنكشف عن دور الوجدان في الانتقال من التشخيص الى التجريد، حينما يتجرد هو من جسده، ويصبح ذاتا عارفة؛ فيرى الحقيقة الاولى تارة في وحدتها الوجودية، واخرى في تعددها المجرد؛ ويدرك ان «الحقيقة» كاملة التشخيص لا يمكن ان ترى الا بنظرة كاملة التجريد؛ وان الذات — بما هي جانب مجرد من الوجدان — لا يمكن ان تعبر وحدها عن الحقيقة الفلسفية؛ وان احكامها تظل احكاما جزئية، تفترض وراءها «الحقيقة» كاملة التشخيص.

---

(١) راجع لتوضيح ذلك مقالاتنا: الفحص عن مبادىء التفكير، مجلة المعرفة (ايلول ١٩٧٩)؛ الفحص عن مبدأ الهوية، مجلة المعرفة (تشرين الاول ١٩٧٩)؛ الفحص عن مبدأ العلة الكافية مجلة المعرفة (تشرين الثاني ١٩٧٩).

- ١ -

انني حينما ادرك او اعرف ، يكون هنـاك موضوع لادراكي او معرفتي . هذا الموضوع اما ان يكون موضوعا جزئيا او « الموضوع » الكلي . اما الموضوع الجزئي فلا بد له من ان يكون في مقابلي ، وانا أقف موقفا معينا منه . في حين ان « الموضوع » الكلي لا يمكن ان يكون في مقابلي ؛ ولا ان اقف موقفا معينا منه ؛ لانه ـ ما هو كلي ـ لابد له من ان يحتويني . ولكنه لا يحتويني فحسب ؛ لان افتراض ذلك ، يعني انني اصبح واياه شيئا واحدا ، اي أصبح انا الكل . وهذا يعني ، انه يحتوي، الى جانب احتوائه ذاتي ـ موضوعا واحدا على الاقل ، هو الوجود المشخص ؛ وانه يحتوي موضوعات لا حصر لها على الاكثر ، هي جملة الموضوعات التي تنتج عن صيرورة الوجود المشخص . اما الوجودالمشخص فنحن ندعوه الحقيقة الاولى ؛ لانه اول حقيقة تنتج عن تجرد الوجدان من « الموضوع » الكلي ، في حال استحالته الى ذات . واما الموجودات والحوادث الجزئية الناتجة عن حركة الصيرورة ، فندعوهـا الحقائق الثواني . ويمكن ان ندعو الحقيقة الاولى الحقيقة الكلية ، والحقائق الثواني الحقائق الجزئية .

ان « الموضوع » الكلي ـ بما يشتمل عليه من حقيقة الذات والحقيقة الاولى ، والحقائق الثواني ـ هو « الحقيقة » كاملة التشخيص ، أو الكل المشخص . وقد وضعنا كلمة حقيقة بين هلالين ، لان استعمالها هنـا ليس الاستعمال الصحيح ؛ لان كل حقيقة تفترض الذات ، وهي ـ بما هي كذلك ـ مجردة وجزئية . ولكن ، لنصرف النظر عن تعدد الحقائق الجزئية التي تتضمنها ، والتي هي نتيجة تجريد معرفي ، فما الذي يحدث؟ اننا ننتقل دفعة واحدة من التعدد المجرد الى الوحدة المشخصة ، التي نفضل في هذه الحال تسميتها بـ « الحقوان » اي ما يسبق كل حقيقة ، بدلا من تسميتها بـ « الحقيقة » كاملة التشخيص . وعندئذ لابد لنا من تبيان الكيفيـة التي انتقلنا بهـا من الحقوان الى « الحقيقـة » كاملـة التشخيص ؛ اي عما يسبق كل حقيقة ، الى ما يشمل كل حقيقة !

قلنا ان هناك حركة تجريد ينفصل فيه الوجدان عن الحقيقة الاولى، وفي هذه الحال ، تتبدى الحقيقة الاولى بوجهين : « الوجود في صيرورته» و « الصيرورة في وجودها » . فلنأخذ وجها من هذين الوجهين : « الوجود في صيرورته » ، ولننظر كيف يتأمله الوجدان .

ان للوجدان وجهين : الجسد والذات . أما الجسد فيتشبث بالوجود المشخص ؛ في حين ان الذات — بما هي ذهن — تدركه مجردا ومجزءا بمعونة الصيرورة . وهذا وذاك يجعلان الادراك المجرد ذا اصل في الوجود المشخص . بيد ان الصيرورة من ناحية اخرى ، هي جملة الحوادث والموجودات الجزئية التي تنتج عنها ، والتي تحدث للوجود ذاته، فيه ذاته ؛ وهي ليس لها من صورة تنظمها غير صورة الوجود ذاته . وهذا يعني ، ان الوجود لا يمكنه ان يدرك الوجود مشخصا ومجردا الا بصيرورته، او في لحظة خاطفة من لحظات صيرورته ؛ تارة مع الصيرورة وما تؤدي اليه من موجودات جزئية وحوادث تحدث لها ؛ وتارة ماوراء الصيرورة ، وقد تحول الوجود الى حامل يحمل الموجودات الجزئية ، او الى مسرح للحوادث الجزئية . وهو في هذا وذاك ، يدرك الثبات من خلال الحركة ، والحركة من خلال الثبات .

وهذا يعني ، ان وجهي الثبات والحركة ، في الحقيقة الاولى ، ضروريان للقبض على هذه الحقيقة وفهمها . أما القبض على الوجود فضروري لضمان ان حركة الفكر ، التي تتابع الصيرورة ، لن تكون حركة عابثة ؛ في حين ان فهم الوجود ضروري لانشاء صورة مجردة عن الحقيقة. والحركتان ضروريتان لادراك الحقيقة الاولى ، وتقويم موجوداتها وحوادثها الجزئية ؛ في سبيل اعطاء الحالات الجزئية كيانا في الكل المشخص من ناحية ؛ وفي سبيل تقويمها من خلال الصيرورة ، من ناحية اخرى .

ولكن ، يبدو أن اللغة لاتسعفنا بهذا الصدد ؛ فهي اداة تحليل وتجريد في أصلها ؛ ولا يمكننا أن نعبر بها عن التشخيص ، ولاسيما التشخيص

الوجودي ، الا في حالة خاصة(٢) . فأنا حينما أقول : ان الحقيقة الاولى هي الصيرورة والوجود معا ؛ يرتسم في ذهني ، ان هناك حقيقة الوجود على حدته وحقيقة الصيرورة على حدتها ؛ ولاسيما حينما انتبه الى « واو » العطف التي تربط بينهما ؛ فهي تجمع بينهما من ناحية ، وتقر باستقلال كل منهما من ناحية اخرى . وهذا راجع الى طبيعة التعبير اللغوي . وعلى الرغم من ذلك ، فالحقيقة الاولى حقيقة واحدة لاتتجزأ وراء الوجود والصيرورة ؛ فكيف نعبر عنها ؟ أنقول : انها الوجود في صيرورته ؟ أم الصيرورة في وجودها ؟ واذا فعلنا ذلك ، أنكون نجونا من الوقوع في ما نخشى الوقوع فيه ؟ لاشك اننا لن ننجو ؛ فنحن سنظل في التجريد ؛ وسنبقى نقيم الوجود او الصيرورة اولا ؛ ثم ننعت الوجود بانه في صيرورته ، أو ننعت الصيرورة بأنها في وجودها . وفي كلتا الحالتين، ننطلق من مجرد هو الوجود حينا ، والصيرورة حينا آخر . ويصبح الامر اغرب من ذلك ، حينما نلتفت الى حرف الجر « في » ؛ فنتصور الوجود في الصيرورة ، أو الصيرورة في الوجود ؛ كأن الصيرورة والوجود مكانان ومتمكنان يحل احدهما في الآخر ، آنا بعد آن ! ولكن الامر ليس كذلك ؛ فالاستعمالات اللغوية باعثة على الضلال ؛ ولابد لنا من ان نتجاوز النعت والمنعوت وحرف العطف والجر ؛ ونتصور وراءها الحقيقة المشخصة الاولى ، مزيجا وجوديا من الحقيقتين المذكورتين ، قائما وراء الحدود اللغوية ، ووراء علاقاتها المجردة الفارغة ! ومن هنا كانت الحاجة ماسة لكلمة تعبر عن الحقيقة الاولى من ناحية ، وعن الحقيقة كاملة التشخيص من ناحية اخرى . ولكن البحث عنهما في اللغات المعروفة عبث لا طائل وراءه !

بيد ان الصيرورة اذا كانت غير مستقلة عن الوجود ؛ والوجود غير مستقل عن الصيرورة ؛ فما من شيء يمنع الوجدان من ان يستعير الوجود لفكرة الزمان التي اشتقها اصلا من الصيرورة ؛ أو ان يستعير الصيرورة لفكرة المكان التي اشتقها اصلا من الوجود ؛ فينشيء منهما عالما تصوريا

---

(٢) راجع مقالتنا : الفلسفة والعلم واللغة ، مجلة المعرفة (شباط ١٩٨٠) .

غير هذا العالم . وهذا يفسر لنا ، كيف امكن للخيال ، ان يبدع فكرة السرمدية ، بخلعه صورة الثبات ـ المأخوذة من الوجود ـ على الزمان ؛ او كيف امكن له ان يبدع فكرة اللانهاية ، بخلعه صورة التتابع ـ المأخوذة من الصيرورة ـ على المكان . ولكن ، بما ان الحقيقة الاولى وجود في صيرورته وصيرورة في وجودها ، ولايمكن فيها فصل الصيرورة عن الوجود ، او الوجود عن الصيرورة ، الا في التجريد ، لم يكن بالامكان فصل المكان عن الزمان ، او الزمان عن المكان ، الا في التجريد ايضا ؛ وذلك حينما نتصور العالم مجرد صورة من دون مادة . وهذا يعني ، ان الزمان ـ بل المدة اصله المشخص ـ والمكان ـ بل الامتداد اصله المشخص ـ لاينفصلان في مستوى التشخيص ، عن المادة ، من ناحية ، وفيما بينهما من ناحية اخرى . وهذا مرتبط بالثبات والتغير .

والحقيقة ، ان الحقيقة الاولى تبدو لنا بوجهين مختلفين في مجال التجريد : فالصيرورة تبدو لنا عندئذ تغيرا محضا ، والوجود ثباتا محضا . ولكن الحقيقة الاولى ليست ثباتا محضا ولاتغيرا محضا : انها « الثبات في تغيره ، والتغير في ثباته » . وتلكم هي صورة « المكان في تزمنه والزمان في تمكنه » او صورة « الوحدة في تعددها والتعدد في وحدته » ، الخ ...

- ٢ -

ولكن ، لنتوقف عند الصيرورة ، من حيث هي في أصل كل تجزيء ، ومن حيث هي في الوقت ذاته ، في اصل كل تجريد !

ان الصيرورة هي حقيقة الوجود المشخص . ولكننا ماتكاد نفصلها عن قوامها الوجودي تجريدا ، حتى تستحيل الى مفهوم ؛ ولكنه ليس كسائر المفهومات ؛ لانه خلافا لها ، يصعب التحقق منه ، بما هو كذلك . ولكن ، اذا كانت الصيرورة مفهوما يصعب التحقق منه بما هو كذلك ، لم يكن من الصعب التحقق منه ، بما ينتج عنه من تغير وتطور ؛ اذ ان التغيرات وبالتالي التطورات ، لابد لها من ان تترك آثارها في الاشياء التي تبدو لنا متغيرة او متطورة ، في فترة معينة تفصل بين لحظتين ، سواء اطالت هذه

الفترة ام قصرت . ربما كنا لانستطيع ان نتتبع التغيرات او التطورات التي تطرأ على احد البراعم حتى يصبح زهرة . ولكنه يكفينا ان نرى البرعم في حالة تبرعمه ؛ ثم ان نراه وقد تحول الى زهرة ، حتى ندرك ان فترة مرت بين طوره الاول وطوره الثاني ؛ وان هذه الفترة كانت عبارة عن سلسلة من التغيرات او التطورات . وبذلك نفهم معنى التغير ؛ وان لم نتمكن من متابعة حركة التغير من حيث هي حدوث في موجود ؛ اي نكون فكرة مجردة عن التغير، وان لم نقبض على المتغير في حالات تغيره، وجودا.

واذن ، فالتغير او التطور هو جزء من الصيرورة يتبدى متحققا تحققا فعليا في الشيء المتغير او المتطور . ولهذا نقول : صار البرعم زهرة. واذا لجأنا الى تعبير ارسطو ، قلنا : ان البرعم زهرة بالقوة ؛ وان الزهرة زهرة بالفعل . وهذا يعني ، ان الصيرورة عند ارسطو ، هي انتقال من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل . ولكن ، كيف يحدث ذلك ؟ اننا لاندريه بالضبط ؛ وانما نكون فكرة مجردة عنه ، من خلال « محطات » ادراكية تفصل بين كل محطتين منها مدة زمنية لاندري وضع الوجود فيها !

ويكفي ان ننعم النظر في اي شيء حتى نجد انه خاضع للصيرورة ، او لنتيجتها المتحققة التي ندعوها تغيرا او تطورا . ولكن صيرورة كل شيء، من حيث ان « كل » تعني مجموعة الاشياء الفردية على اختلافها ، تعني صيرورة الكل ، من حيث يعني الوحدة القائمة وراء الاشياء الفردية على اختلافها . وقد تعودنا ان نرى « الكلين » شيئا واحدا ؛ ولكنهما ليسا في الحقيقة كذلك ؛ لان « الكل » بمعنى كل الافراد ، هو نتيجة تجزيء وتجريد معرفيين ؛ في حين ان الكل بمعنى الوحدة القائمة وراء الاشياء الفردية ، هو تشخيص وجودي سابق على كل معرفة للافراد ، ومستمر ماوراء هذه المعرفة ، وباق مابعدها . وهذا ما اشرنا اليه ، حينما نفينا ان يكون هناك وجود منفصل عن الصيرورة ، او صيرورة منفصلة عن الوجود ؛ ورأينا ان الحقيقة الاولى ، من حيث هي كلية ومشخصة ، هي الصيرورة في وجودها والوجود في صيرورته .

لقد اضطررنا الى التذكير بهذا الذي اشرنا اليه مرات متعددة ، لكي نقول : ان الكون ـ بما هو مرادف للوجود طبيعيا ، اي بما هو مادة مرتبطة بالزمان والمكان ـ خاضع للتطور ، هذه الصورة المتحققة من الصيرورة ، التي لاتبين عن حقيقتها ، الا بموازنتها بما سبقها وبما لحقها.

ويكفينا ان نرجع الى النظريات الحديثة عن نشوء الكون ، حتى نرى انها جميعا ـ على الرغم من اختلافها في التفاصيل ـ ترى ان الكون خاضع للتطور ، سواء قلنا : ان الكون كان سديما منتشرا ثم تقلص ؛ فنشأت منه النجوم والكواكب وتوابعها ؛ ام قلنا : انه كان في بداية امره مادة كثيفة ، ثم انفجرت بازدياد الضغط؛ فتناثرت في الفضاء الرحيب ؛واخذت اجزاؤها تتباعد وتتمدد ؛ ام قلنا : انه في حالة خلق وتجدد مستمرين ؛ لابد لكل مادة تستهلك فيه ، من ان تعوض بمادة جديدة وطاقات جديدة ام قلنا ـ كما قال اينشتين ـ : انه كروي متغير حركانيا (ديناميكيا) ؛ ينتقل من الانقباض الى الانتشار ، عند اية اثارة يتعرض لها . وهذا يعني ، ان تطور الكون وصيرورته ، صفة لايمكن انكارها ؛ فهو بأكمله في صيرورة دائمة ، تبدو آثارها في التطور الدائم الذي نلاحظه في الاشياء كلها (٢) .

ولكن الصيرورة ـ كما رأينا ـ في اصل كل تجزيء ؛ فهي التي تجعل من الوجود الواحد، موجودات جزئية متكثرة. لهذا كان لابد لكل مايصدر عنها ، من ان يكون خاضعا هو ذاته للصيرورة . ولكنها ليست الصيرورة الكلية هذه المرة ؛ بل صيرورتها هي ذاتها ، بماهي موجودات جزئية .

---

(٢) نسلم الآن بهذا تسليما مؤقتا ؛ لاننا نعتقد ، ان النظريات العلمية عن الكون لا تقوم على أساس فلسفي سليم : فهي تتصور الكون على غرار تصورنا الاجسام الصلبة الجزئية. وتصور كهذا يعني، ان الكون محاط بالفراغ، كما يحاط جسم صلب ب «الفراغ» وخلاصته ان تصور الكل والتفكير فيه لا يختلف عن « تصور » الاجزاء والتفكير فيها . وهذا هو الضلال بعينه ؛ فالتفكير في الكل يختلف اختلافا اساسيا عن التفكير في اجزائه .

وهذا يعني ، ان حركة الصيرورة ليست واحدة الا في البداية ، حينما تعمل على تجزيء الوجود المشخص الى موجودات جزئية . ولكنها ماتكاد تجْزيء هذه الموجودات ، حتى تتركها لصيرورتها الخاصة من حيث هي صيرورة جزئية ، تخضع لظروفها الخاصة ضمن دائرة الكل ، وبحسب مكانها في الكل . وعندئذ ، يصبح لكل موجود جزئي صيرورته المختلفة في كثير او قليل ، عن صيرورة كل موجود جزئي اخر . وهذا يترك كلا منها لتطوره الخاص ، الذي يظهر عليه في آناته المختلفة . ولهذا كان التطور فرديا في التشخيص . واذا نحن عزوناه الى النوع او الجنس ، كان هذا من الناحية التجريدية التي تستبعد المختلف ، وتستبقي المؤتلف .

والحقيقة ، ان التطور الفردي مرتبط الى حدكبير بالبيئة التي يكون الفرد فيها ، سواء اكان جسيما ذريا ، أم جسما طبيعيا ، أم نباتا ، أم حيوانا ، ام انسانا ، ام كوكبا ، ام نجما ، أم مجرة . وهذا يعني هيمنة الكل على « كل » جزء من اجزائه ، حيث يتحول الكل بمعنى مجموعة الافراد ، الى الكل بمعنى الوحدة . وهذا يؤيد ماذهبنا اليه ، من ان الوجود المشخص هو التعدد في وحدته والوحدة في تعددها ؛ او هوالثبات في تغيره والتغير في ثباته ...

ولكن ، اذا كانت الصيرورة الكلية تنقسم الى صيرورات جزئية تابعة لفردية الموجودات الجزئية ، كان معنى هذا ، ان تنشأ حركات مختلفة يلغي بعضها بعضا . وهذا يوحي بأن قسما من طاقة هذه الموجودات الجزئية يذهب ضياعا ؛ وان الكون يسير في جملته نحو فنائه ونهايته . وهذا ماعبر عنه العلماء بمبدأ انحطاط الطاقة . فما موقفنا منه ؟

لنلاحظ ان هذا المبدأ علمي ؛ وانه من حيث هو كذلك ، لاغبار عليه. ولكن ، حينما يحاول بعضهم تطبيقه على جملة الكون ، كما فعل كلوزيوس يقع في خطأ كبير . وهنا لابد من انتهاز الفرصة ، لبيان ان التفكير العلمي يختلف عن التفكير الفلسفي اختلافا كبيرا . والحقيقة ، ان موضوع العلم جزئي ؛ والطاقة يمكن ان تضيع بالنسبة الى موضوع جزئي ، بانتقالها

الى موضوع جزئي آخر، او عدة موضوعات جزئية اخرى . اما «موضوع» الفلسفة فهو الكل المشخص ، والطاقة فيه لايمكن ان تضيع ؛ لانه واحد لا ثاني له ؛ ولهذا كانت الطاقة تنتقل من احد اجزائه الى الاخر ؛ ولكنها تظل فيه لاتبارحه في نهاية الامر . وهذا يعني ان مبدأ انحطاط الطاقة لايصح بالنسبة الى الكل المشخص ؛ وان مايصح بالنسبة اليه ، هو مبدأ انحفاظ الطاقة .

ومن هنا نستطيع ان نستنتج ، ان الصيرورة مستمرة ؛ وانها تأخذ صورا مختلفة ؛ بحيث تظل الطاقة الكلية للكون معادلة لذاتها ، مهما تعددت صورها الجزئية ! ان بعضها يختفي في باطن الكل المشخص ، وبعضها يظهر في جانب من جوانبه ، او جزء من اجزائه ؛ ولكن ، مع استمرار الصيرورة العامة والصيرورات الجزئية ؛ حيث يظهر ماكان مختفيا ، ويختفي ما كان ظاهرا ، في حركة لاتنتهي ابدا . وهذا ما دعانا الى ربط المعرفة بالصيرورة من ناحية ، وبوعي الذات من ناحية اخرى !

- ٣ -

بيد اننا لانستطيع فهم الصيرورة من دون الزمان ؛ ولا فهم التطور ولا فهم التاريخ . ان حياتنا جزء من الصيرورة ؛ ونحن نحسبها بحساب الزمان . وكذلك مراحل هذه الحياة ؛ فهي تخضع للتطور ؛ ولايمكننا ان نفهمها من دون التاريخ . ولكن ، ما الفرق بين الصيرورة والزمان ، بين التطور والتاريخ ؟

يمكننا ان نقول بادىء ذي بدء : ان الصيرورة قد تتخذ اتجاهات مختلفة ، واشكالا متباينة ؛ في حين ان الزمان محاولة لتنظيم الصيرورة ، وتوجيهها في اتجاه واحد . ولهذا كان الزمان اكثر تجريدا من الصيرورة : انه الاطار الفارغ الذي يمكننا من خلاله ، ان نرى اتجاهات الصيرورة المختلفة ، واشكالها المتباينة ؛ وتحديد ما اذا كانت متعاقبة او متواقتة . أننا ندرك من خلاله التطور ؛ لان التغيرات التي تطرأ على الموجودات

الجزئية ، لايمكن ادراكها الا من خلاله . وذلك لان آناته متماثلة ؛ ومن خلال تماثلها تبدو التغيرات المتعاقبة ، التي تطرأ على المتغير . وهذا يصدق على التاريخ ايضا ؛ لان التاريخ نوع من التطور ؛ على الرغم من اننا تعودنا ان نفهم بالتطور ، الانتقال من طور ادنى الى طور اعلى ، وعلى الرغم من اننا تعودنا ان نفهم التاريخ على انه يتبع مراحل ازدهار ومراحل انحطاط . ولعل الفارق الحقيقي بينهما ينحصر في ان التاريخ انساني ، ويرتبط بذاكرة الانسان ؛ اعني ان الانسان يعي ماضيه ويستدعيه الى حاضره ؛ في حين ان التطور اعم يخضع له الانسان وغير الانسان .

بيد انه لابد لنا من التمييز بين التغير والتطور والتاريخ ؛ من حيث انها جميعا صور من الصيرورة . فلنبدأ بالتغير .

ان التغير هو الصور المتجددة التي تتخذها الصيرورة من خلال الزمان المجرد اصلا منها . وهو قد يكون جزئيا أو كليا . اما التغير الكلي فهو الصيرورة ذاتها ؛ واما التغير الجزئي فهو تغير شيء من الاشياء الناتجة اصلا عن حركة الصيرورة . وفي مجال الاشياء الجزئية ، يمكننا ان نتكلم على تغير كلي وتغير جزئي ، بمعنى غير المعنى الاول . وفي هذه الحال ، يكون التغير الجزئي ذاك الذي يطرأ على جزء من الشيء ، دون ان يمس حقيقته الجوهرية ؛ مثل سقوط اوراق الاشجار في الخريف ؛ بحيث تصبح عارية من اوراقها ، وتظل محافظة على جوهرها من حيث هي اشجار . اما التغير الكلي بالاضافة الى الاشياء ، فهو الذي يتغير الشيء به تغيرا كليا ؛ فيفقد جوهره ، ويستحيل الى شيء آخر ؛ كأن تمس النار شجرة من الاشجار ، وتحولها الى رماد . وليس للتغير خط محدد في اتجاهه؛ فهو قد يتخذ اتجاهات متعددة مختلفة باختلاف الاشياء والحوادث التي تعرض لها .

وليس كذلك التطور ؛ فهو دائما ذو اتجاه . واذا كانت كلمة تطور تعني لغويا ، الانتقال من طور الى طور ؛ دون ان يكون الانتقال دائما من طور ادنى الى طور اعلى ؛ فان الذي اصبحنا نعنيه بها ، منذ داروين

والتطوريين عموما ، هو الانتقال من الاطوار الدنيا الى الاطوار العليا ؛ حتى يبلغ الكائن طور النضج ، او ترتقي الكائنات حتى تصل الى كائن يعد ارقاها جميعا ، بتدخل الانتخاب الطبيعي في ملاءمة الكائنات لبيئاتها . وهذا ماعنيناه حينما قلنا : ان للتطور اتجاها على الدوام .

بيد ان التطور يظل امرا طبيعيا ، خلافا للتاريخ الذي يتعدى الناحية الطبيعية في التطور ، الى الذاكرة الواعية للكائن التاريخي . والحقيقة ، ان التاريخ هو التطور الواعي ، الذي تحتفظ الذاكرة فيه ، في الطور الحاضر ، بالاطوار الهامة السابقة . واذا كان التاريخ يشبه التطور من الناحية الانتخابية ؛ فان انتخاب التاريخ غير انتخاب التطور : ان انتخاب التطور طبيعي ، اي لاشعوري ؛ على حين ان انتخاب التاريخ انتخاب نفسي اجتماعي ، تتدخل فيه الارادة ، وتوجهه القيم ، من ادناها الى اسماها . ولهذا انحصر معنى التاريخ في الانسان ؛ وعلى الاخص في المجتمعات الانسانية ؛ حتى ليمكننا ان نقول : ان التاريخ هو تاريخ الارادة الانسانية في تطلعها نحو القيم ، في سبيل تحقيقها في الاشخاص والحضارات وماالصراع بين بني البشر ، افرادا وجماعات ، الا صراعا بين القيم ، دون ان يكون النصر للقيم العليا دائما .

وفي الصيرورة تتفاعل ضروب التغير والتطور والتاريخ ، تفاعلا معقدا متشابكا ، لايمكن للعقل التنبؤ به ، او التحكم فيه . ومما يزيد من صعوبة التنبؤ والتحكم ، كون التاريخ مرتبطا بالوعي ؛ مما يجعل الارادات الانسانية تفعل في الصيرورة افعالا مختلفة ، اما بتأثير من العقل ، او بتأثير من الغرائز والمصالح . وهذا يجعل الاجزاء ــ بما فيها الاجزاء الواعية ــ محكومة بحتميات الصيرورة المختلفة التي لايمكن التحكم فيها . ومن هنا كان الحديث عن القدر ، والاعتقاد بأن كل شيء خاضع لجبهة لاتقاوم . والحقيقة ، ان مجال الارادة والحرية ضيق جدا ؛ واذا نحن انعمنا النظر فيهما ، بدتا ظاهرتين الى حد بعيد ؛ وهما لاتبدوان حرية وارادة الا في الامور الجزئية . ولكننا اذا تعديناهما الى الكل ، والى مكانتهما في الكل ، وجدناهما خاضعتين لحتمية كلية لايمكن الخروج عليها ؛ لان مايبدو في

النطاق الجزئي اختيارا حرا ، يصبح في نطاق الكل حتما وضرورة . ولكنه حتم لايمكن التنبؤ بالصورة التي يأتي عليها ، اذ ان هناك وجوها كثيرة يمكن ان يتبدى عليها . الم نقل ان الصيرورة العامة تنقسم الى صيرورات متعددة مختلفة تتكثر بتكثر الاشياء الجزئية ؟! فمن هنا كان عجزنا عن فهم هذا النوع من الحتمية ، والاعداد له ، في سبيل توقيه ؛ وان كنا نعرف انه آت لا محالة ؛ لانه جزء من الحتمية الكبرى التي لايمكن الخروج عليها (٤) .

- ٤ -

كنا نتكلم في الفقر السابقة ، وكأن معرفة ما أتينا على ذكره ، هو وليد الصيرورة وحدها . ولكن هذا جانب من الحقيقة اقتصرنا عليه في سبيل الوضوح . اذ ان هناك جانبا آخر هو جانب الذات العارفة ؛ لان كل معرفة لابد لها من ذات تعرفها . لهذا ، كان لابد من الاشارة الى تجربة اصيلة ، تنقلني – بما انا ذات عازمة – من التشخيص الى التجريد !

والحقيقة ، ان كل فعل من افعالي ، يتضمن اسهاما في توضيح تجربة وجودي في العالم ، ولاسيما تجربة معرفتي اياه . بيد ان هذه الافعال لاتبقى في مستوى التشخيص ؛ بل تنتقل الى مستوى التجريد ؛ لانه الوسيلة الوحيدة التي يمكنني ان احتفظ بها ، وان اضم بعضها الى بعض لاتمكن في كل لحظة ، من ان اكون صورة اكثر كمالا عن الكل ؛ هذا الكل الذي تتناوبه صورتان باستمرار : صورة الوحدة المشخصة ، وصورة التعدد المجرد .

في صورة التعدد المجرد اشعر بوجودي مع الاشياء والآخرين ؛ ولكن، من حيث تميزي منهم ، وتميزهم مني ، وتميزهم فيما بينهم . ولا اقف عند هذا الحد ؛ بل اشعر انني واياهم متميزون من العالم ذاته ، الذي

(٤) مقالنا : محاولة لفهم الحرية والحتمية ، مجلة المعرفة (كانون الثاني ١٩٧٩).

يبدو حينئذ ، في صورة مكان يجمعني واياهم . وبما أن العالم صائر ، فانه يبدو لي كذلك ، في صورة الزمان الذي ليس شيئًا آخر ، سوى شعور الفكر بحركة صيرورة الوجود ، ومواكبته لها ؛ هذه الصيرورة التي تظهر في كل لحظة ، كيف تتولد الاشياء من بعضها ؛ وكيف تتعاقب عليها الصور المختلفة ...

بيد أن صورة التعدد المجرد مدعاة للوقوع في الخطأ ، في حال تراخي الانتباه ، أو تلاشي الارادة . ان افعال الفكر والعمل تظل مشروعة ، مادامت تواكب حركة الصيرورة . وعندئذ ، تصبح تفكيرا صحيحا ، وعملا ناجعا . ولكن حركة الصيرورة قد تسبب لنا دوارا فكريا وحيرة عملية ؛ فلا نستطيع ان نواكب الصيرورة في حركتها . وفي هذه الحال ، نسترسل مع سراب الافكار ، ومع آلية العادة ، ذاهلين عن الصيرورة ذاتها ، او عاجزين عن متابعتها . ومن هنا كان المبدأ الذي ننادي به ، وهو العودة الى الوجود المشخص ، كما هو حقيقته .

والحقيقة ، ان « الفلسفة » اذا انطلقت حتى الآن من المجردات ، ولم يؤد هذا بها الى التضارب والاختلاف ، كان لابد لنا من الارتداد بهذه المجردات الى اصلها المشخص . واذا كانت هذه المجردات جزئيات ، كان لابد لنا من الارتداد بها ، الى الكل الذي هي جزئياته ، والى المشخص الذي هي مجرداته .

وهذا يعني ، ان نقطة البدء بالثورة الفلسفية تتمثل في العودة الى الكل المشخص ، ماوراء الافكار المجردة !

بيد ان هذا يرتد بنا الى مسألة المعرفة ، وكيف تبدأ : بالاشياء الفردية ام بخصائصها العامة ؟ لقد رأى الخبرانيون من امثال لوك وكوندياك ، ان المعرفة تبدأ بالاشياء المفردة ؛ ورأى ارسطو انها تبدأ بالخصائص العامة ؛ على حين ذهب برغسون الى انها تبدأ مبهمة ، ثم تتضح خصائص الفرد والخصائص العامة في وقت واحد معا .

واذا تأملنا هذه النظريات جميعا ، وجدناها تبدأ من التجريد . انها تهمل جميعا شيئا اساسيا لولاه ما كانت هناك معرفة للفردي ، ولا معرفة للعام ، ولا معرفة هي مزيج بينهما . والحقيقة ، كيف يمكن لي ان اعرف الفرد من حيث هو فرد ؟ ان كل معرفة تجريد ؛ وكل تجريد يفترض الوجود المشخص الذي جردناه ؛ بل يفترض ايضا الكل المشخص الذي جردناه منه ؛ كائنا ما يكون هذا الكل في لحظة التجريد . . بيد أن ماجردناه عام ، وما جردناه منه فردي . وهذا يعني ، أن المعرفة هي معرفة الفردي والعام في وقت واحد معا . ولكن معرفة الفردي والعام لايمكن ان تحصل من دون هذا الكل المشخص الذي يحيط بالفردي ، والذي يحوي فرديات متعددة اخرى ، تماثل الفردي الذي نحن بصدده من ناحية ، وتخالفه من ناحية اخرى . وهذا ينتهي بنا الى ان المعرفة تقوم على اساس مشخص، تستلهم فيه الكل المشخص، الذي يعد الفرديجزءا من اجزائه.

ومتى وطلنا الى هذه النتيجة ، كان معنى المعرفة انها تجريد من الكل المشخص ، وتجريد من الوجود المشخص . وعندئذ ، يمكننا ان نفهم كيف نعرف ما نعرفه ، في عموميته وفرديته . أما من دون ذلك ، فلابد لنا من ان نتساءل : ما الاساس الذي اعتمدنا عليه في تمييز الفردي ؟ ومن اين أتتنا الافكار العامة التي عرفنا من خلالها ما عرفناه ؟

ان هذا يضعنا امام الفارق بين نوعين من الفهم : علمي وفلسفي ، ومنه يتفرع فارق في التفسير : علمي وفلسفي . والحقيقة ، فقد ذهب المناطقة الى ان الفهم هو توحيد من ناحية ، وتمييز من ناحية اخرى . وهذا النوع من الفهم يدخل في نطاقالفهم العلمي ، لان موضوعه الجزئيات اذ ان ما نوحد بينه من ناحية ونميز بينه من ناحية اخرى ، لايمكن الا ان يكون جزئيا ، والجزئي هو موضوع العلم ، كما لايخفى . وهذا يعني ، ان الذهن هنا ينطلق من المعطيات المختلفة ، فيرى جوانب الائتلاف مرة ، اخرى . ومثل هذه الرؤية او تلك، لايمكن أن تكون من دون تجريد ناشىء عن النظر الى الجزئيات والهذا ، فالتوحيد الذي يصل الذهن اليه ، لايمكن الا ان يكون مجردا ، وبالتالي جزئيا ، لان اصله الجزئيات . ولعلنا

لانفالي اذا قلنا : ان العلم ينشأ من وعي هذه الوحدة الجزئية المجـردة ، المستندة الى رؤية المؤتلف في المختلف .

وليس الامر على هذا النحو بالنسبة الى التوحيد الفلسفي ، لان التوحيد يقتضي هنا ، العودة الى الكل المشخص ، باستبعاد كل تمييز ،من حيث ان التمييز وليد التجزيء والتجريد ، اي بازالة الفروق المعرفية القائمة بين الجزئيات تجريدا ، من اجل طمس معالمها ، وردها الى الوجود المشخص وجودا ، ثم محو التمايز بين الوجود المشخص والوجدان ، من اجل التلاشي في الحقيقة كاملة التشخيص ! وبكلمة مختصرة ، انه وقف وجودي لامعرفي ، يتحد فيه الوجدان بالوجود المشخص . وليست مهمة التفكير الفلسفي شيئا غير رد كل حقيقة جزئية او مجردة الى الحقيقـة كاملة التشخيص .

ومن هنا كان الفهم العلمي عقليا ، وكان الفهم الفلسفي وجدانيا ، وكان لابد لنا ــ ونحن بصدد التفسير الفلسفي ــ من ان نلجأ الى الوجدان لا العقل وحده ــ في سبيل نقل فهمنا الفلسفي الى الاخرين ، والحقيقة ، ان الفهم العلمي يعتمد على التجريد ، بغية الوصول الى الافكار العامة ، وعلى الرغم من ان الوصول الى الافكار العامة يتضمن القيام باطـلاق الاحكام ، فان الذهن لايلبث ان يربط هذه الافكار العامة ، في سبيل انشاء الاحكام ، ثم القيام بالاستدلالات المختلفة ، لكن ذلك لايمكن ان يحدث من دون البدء بالمشخص ، الذي هو في اصل هذه الافكار العامة والاحكام والاستدلالات المكونة انطلاقا منها .

ولهذا لابد لنا من العودة الى تكرار ان البدء يجب ان يكون دائمـا من الكل المشخص ، لان المشخص الجزئي يحيل دائما الى الكل المشخص، والمشخص يدرك بالحدس ، وبما هو وجودي يدرك بالوجد . وهذا يفسر لنا ، لماذا لم تكن هناك قيمة لاية عملية ذهنية مجردة او جزئية ، مالم تصدر عن الوجد ، الذي هو اتحاد الوجدان بالوجود المشخص .

واذا كان الامر على هذا النحو ، بالنسبة الى الفهم ، فهو كذلك بالنسبة الى التفسير ، اذ يكفينا في التفسير العلمي ان نرد المجهول الى المعلوم ، وفقا لمبدا العلة الكافية او مبدا الهوية ، في حين انه لابد لنا ، في التفسير الفلسفي ، من رد الجزء الى الكل ، والمجرد الى المشخص ، وفقا لمبدا الوجد ، حيث تصبح الهوية والعلة الكافية وجهين مجردين من الوجود المشخص !

- ٥ -

تلكم هي « الحقيقة » كاملة التشخيص ، التي لابد لتصورها من الوصول الى نظرة كاملة التجريد ! انها التشخيص الكامل يرى من خلال التجريد الكامل ! وهي اشبه ماتكون بجسم يرى من خلال فيض النور الذي يحيط به ! ولكن الوجود لايلبث ان يبدو غير ثابت ، وانه مسرح للتغير ، في صيرورة اصيلة لايمكن صرف النظر عنها ، حتى ان العقل ليحار في امرها ، اهي اصل والوجد فرع ، ام انها فرع والوجود اصل ؟ ولكنه لا يلبث ان يجد ، ان الوجهين يفرضان انفسهما عليه ، في حقيقة تشملهما معا ، ولكنه يلاحظ من ناحية اخرى ، ان الذات تقف في مقابل هذه الحقيقة تجريدا ، وانها قائمة فيها ــ بماهي وجدان ــ تشخيصا ، وانها بماهي كذلك ــ اي بما هي حقيقة كاملة التشخيص ــ هي حقوان يسبق كل حقيقة ، لان من شروط الحقيقة ان تكون حقيقة في نظر ذات تدركها ، لا ان تكون وجدانا مستغرقا فيها . ففي الحقوان يندمج الوجدان في الوجود المشخص ، وفي الحقيقة يتحول الى ذات منفصلة عنه تجريدا . وهذا الفارق هو جوهر الاختلاف بين الموقف المشخص والنظرة المجردة ! لهذا كانت الحقيقة تفترض التجريد دائما : تجريد الذات التي ترى الحقيقة ، من الموضوع الذي يصبح حقيقة في نظر الذات ، وهذا معناه، ان الانشقاق وجدانا !

ولكن ، كيف يتسنى لنا ، ان نرى الحقيقة كاملة التشخيص ، من خلال نظرة كاملة التجريد ؟ ان هذا يحدث بالخيال الذي ليس شيئا آخر

غير رؤية التشخيص من خلال التجريد ؟ بمعاملة الكل معاملة الجـزء ، والمشخص معاملة المجرد .. فبالخيال يمكنني ان ابدع صورة المطلق ؛ وان اتصور ذاتي فيه ، وامامي الحقيقة الاولى احتل فيها ــ بمالنا وجدان مكانا متميزا ، وبذلك ارى الحقيقة كاملة التشخيص بعين ذاتي المجردة ، القابعة في المطلق ! في هذه الحال ، حال التجريد الكامل ، يصبح الاجدوان موضوعا لي ، يمكن تحليله وتحويله الى معرفة لا تتناوله وحده ، بـل تتناول كل ما يتضمنه ايضا .

غير ان الوجدان لا يكتفي بالانفصال عن الوجود المشخص (الحقيقة الاولى) في النظرة المجردة ، بل يتحرر هو ذاته ، ويصبح ذاتا تكون فـي حال المعرفة ذهنا ، وفي حال العمل الاخلاقي ضميرا ، وفي حال العمـل الفني بديعا . وعندئذ ، ترصد الوقائع ، او تنشىء القيم ، وتقوم بالعمل ، ففي مجال رصد الوقائع ، تعمل الذات ــ بماهي وجدان ــ على القبض على الوجود بالجسد ، وعلى ادراك المجردات بالذهن . وفي هذه الحال ، يلمس الجسد ــ بما هو جملة حواس ــ الصيرورة ضمن حدود قدرات حواسه ، وعندئذ ، يتلقفها الذهن ، ويحولها بالفكر الى صيرورة فكرية ، لايلبث ان يطبعها بالعقل ماهية لها صفة الثبات . وهكذا ينشأ فـعلان متضادان : فعل الفكر في حركته المتجهة الى مالا نهاية له ، وفعل العقل في كفه لحركة الفكر ، وابقائها في حدود تناهي الوجود المجرد . امـا في مجال القيم ، فتنشأ من هذين الفعلين ، موازنة بين الجزئـي والكلي : الجزئي بما حادث في الصيرورة ، والكلي بما هو صورة الوجود المجرد ، ثم يتلو هذه الموازنة حكم على الجزئي من خلال الكلي ، كما سنبين فيما بعد . اما القيمة فتكون ايجابية ، اذا كان هناك توافق بين الجزئي والكلي ، والا كانت سلبية . وقد يحدث التقويم من خلال الحكم على الواقـع ، او بالتحقيق العملي في الواقع ، سواء اكان ذلك في مجال الاخلاق ام في مجال الفن ! وهذا يعني ، ان التقويم ليس نظريا فقط ، بل عملي ايضا ، هذا اذا لم نقل انه نظري وعملي في وقت واحد معا ، من حيث ان كل تقويم

يكون بالوجدان الذي هو في اصل كل نظر وكل عمل ، ومن حيث ان التقويم الايجابي يدعونا الى العمــل ، وان التقويم السلبي يدعونا الى تجنب العمل !

- ٦ -

رأينا الجانب الهام الذي تقوم به الذات في انشاء الحقيقة ، وهذا يجعلنا نتساءل : الا يمكن ان تكون الذات هي موضوع الفلسفة ، مادامت الفلسفة هي نظرية الحقيقة ؟

لابد لنا ان نسرع فنجيب : ليست الفلسفة علما كسائر العلوم ، لانها ليست علم الكل فقط ، بل علم الكل المشخص ، اذا جاز لنا ان نصف شيئا بصفة تفترضه اصلا ! ومن هنا لم يكن من الممكن لها ، ان تكون « موضوع » الفلسفة ، والحقيقة ، فالذات بامكانها ان تستوعب المجردات ولكنها عاجزة عن استيعاب المشخصات ، لان كل ما هو مشخص خارجها . وهذا يعني ، ان الكل الذي تستوعبه كل مجرد . ولكن الكل المجرد ليس كلا بالمعنى الدقيق للكلمة ، بل ينطوي على تناقض في الحدود. وما دام الامر كذلك ، فلا بد لنا من البحث عن الكل الذي لا يتناقض مع ذاته : الكل المشخص ، الذي يشمل المشخصات والمجردات جميعا ، ويشمل معها الذات التي تقوم بالتجريد !

وهذا ينتهي الى ان الكل المشخص (الحقيقة كاملة التشخيص) هو « موضوع » الفلسفة ، لا الذات التي تعي هذا « الموضوع » . وهـــذا يضعنا في موقف المعارضة من « الفلسفة » . التي اعتقدت منذ ديكارت والـ « انا افكر » ، ان الفلسفة هي علم الذات ، أي العلم الذي موضوعه الذات ، والحقيقة فقد فرقت بذلك ، بين العلم بمعناه الدقيق ، وموضوعه ظواهر العالم المختلفة ، والفلسفة كما فهمتها ، وموضوعها الذات ، بيد ان « الفلاسفة » سرعان ما اكتشفوا ، ان الذات تختلف اختلافـا بينا عن موضوعات العلوم الاخرى ، وان النظر اليها على انها موضوع الفلسفة ،

يؤدي الى الخلط بين الذات والموضوع ، ويخلق وهما بأن الذات تمكن دراستها كما يدرس الموضوع !

ولكن الفلسفة ليست علما مثل اي من العلوم الجزئية، و «موضوعها» ليس موضوعا مثل اي من الموضوعات الجزئية . والحقيقة ، ان الذات ليست موضوعا بين موضوعات العالم ، بل هي ذات مفارقة لهذا العالم وموضوعاته الجزئية ، وكونها مفارقة يجعلها متميزة من هذه الموضوعات الجزئية ، ويجعل « علمها » متميزا من العلوم الجزئية : انها وعي خالص لا موضوع وعي ، وهي هذا الوعي بما هو فعل له حريته وحتمياته ، وكونها وعيا ، يعني انها تعي ذاتها بذاتها ، اما من حيث هي مجرد ذات ، او من حيث هي ذات فاعلة او منفعلة على نحو من الانحاء .

ولكن الذات في حالتي وعيها ، لايمكنها ان تقتصر على ذاتها ، في هذا الوعي وذاك . فهي في حالة وعيها انها مجرد ذات ، تعي ذاتها في « شيء » يتجاوزها ، وهو شرط وجودها ووعيها . وهذا « الشيء » هو المطلق . وهي في حالة وعيها انها ذات فاعلة او منفعلة ، تعي ذاتها تجاه موضوع تفعل فيه ، او تنفعل به ، وانها هي وهذا الموضوع في « شيء يتجاوزهما معا ، وهو شرط وجودها ووجوده . وهذا «الشيء» هو « الحقيقة » كاملة التشخيص هذه المرة .

وهذا يعني ، ان الذات لايمكنها ان تكون « موضوع » الفلسفة ، من حيث هي مجرد ذات . انها جزء من هذا « الموضوع » بماهي وجدان ، وهي مجرد ذات عارفة او متفلسفة خارج هذا « الموضوع » تجريدا . وهذا يعني ، انها من دون اصلها المشخص ــ الوجدان ــ ليست شيئا ، وانها بهذا الاصل المشخص جزء من « موضوع » الفلسفة فقط . لهــذا قلنا : ليست الفلسفة علم الكليات ، بل علم الكل ، وليست العلم الــذي يبدأ من الجزء او الاجزاء ، بل الذي يبدأ من الكل ، وعنينا بالكل الكل المشخص ! .

وهذا يعني ، ان « موضوع » الفلسفة ليس كليا ، بمعنى الكلي الذي هو نتيجة تجريد بعض الصفات من الجزئيات المختلفة ، بل هو «موضوع»

كلي بمعنى النسبة الى الكل الذي هو وحدة قائمة بذاتها تشخيصا . والحقيقة ، ليس هناك سوى الكل المشخص وما يتضمنه . لهذا كان لابد من احلال الموقف الفلسفي — من حيث هو معبر عن الكل المشخص — محل النظرة « الفلسفية » — من حيث هي تعبير عن جزئيات ومجردات فهذا من شأنه ان يوحد نقطة البدء في التفكير الفلسفي ، ويؤدي الى اقامة الفلسفة الواحدة الوحيدة .

والحقيقة ، ان ادراك الوجود المشخص ، هو ادراك للكل المشخص، من حيث ان الوجدان جزء منه ، في حين ان ادراك احد الموجودات الجزئية، هو ادراك له من حيث هو جزء في الكل المشخص ناتج عن حركة الصيرورة، وقد تركز عليه وعي الذات ، واضاءه فكرا وعقلا ، وترك ما عداه غائصا في عتمة الوجدان .

وتلكم بداية تجريد ، اذ ان الوعي لايلبث ان يتابع عمله التحليلي ، بادراك الموجودات الجزئية واحدا بعد الاخر في خضم الصيرورة وتأمل صفاتها المختلفة ، التي كانت سببا ساعد الوجدان على تحليلها من الوجود المشخص ، لكي يتناول هذه الصفات ، ويرفعها الى مصاف المجردات ، بعمليتي التجريد والتعميم . وعندئذ ، يصل الى حقائق حسية (ظواهر) وعقلية (ماهيات) يشتقها من الحقيقة الوجودية المشخصة ، ولكن بمعونة الصيرورة . والى هذا الحد يكون عمله مشروعا . ولكنه يشرع بالخطأ ، منذ ان يقيم هـذه الحقائق الحسية والعقلية مقام الحقيقة الوجودية المشخصة اولا ، ومنذ ان يجعل الحقيقة المجردة الثابتة وحدها حقيقة ، غافلا عن جانبها الحركي المشخص .

لهذا كانت معرفة الوجدان للوجود المشخص معرفة مباشرة ، وكانت معرفة المجردات غير مباشرة . انني ادرك هذه الشجرة والعالم الذي تقوم فيه دفعة واحدة . ولكنني لا ابدا بادراك أنها مؤلفة من جذع واغصان واوراق وجذور الا بعد لاي ، وبعد ان افصلها (اجردها) عن كل ما يحيط بها ، بل ان ادراكي للون جذعها الضارب الى السواد ، واغصانها المتفرعة والمتشابكة ، واوراقها الضاربة الى الخضرة ، او المائلة الى

الصفرة ، لايتم الا بعد عمليات حسية وعقلية طويلة ومعقدة ، وان كنت استطيع ان اقوم بها الان بسرعة عجيبة ! بل اننا اذا شئنا ان نكون اصدق قولا ، كان لابد لنا من ان نقول : ان مجرد ادراك الشجرة بداية عملية تحليل سابقة على هذه العمليات كلها ، لان الشجرة تؤلف هي والوجود وحدة ، وهي وحدة وجودية لاتنحل الا بالمعرفة . لهذا كانت معرفة المجردات وليدة عمليات استدلالية طويلة ومتتابعة ، لهذا كانت معرفة الوجود المشخص بدء ، وكانت معرفة المجردات ، ومنها الوجود بما هو وجود ، بآخره !

ولكن العقل لايكتفي بتجريد المجردات من اصولها الوجودية المشخصة ، بل يعود الى جمع هذه المجردات ، او بعضها ، في هوية او ماهية ، بعدها بديل الاصل الوجودي المشخص الذي جردت منه ، ثم يعامل مجموعة هذه المجردات ، كما لو كانت الاصل الوجودي المشخص ذاته . ولكنه غالبا مايستخدم الماهية ، ويهمل الهوية ، لان الماهية تقتصر على الصفات الثابتة الكلية والضرورية ، في حين ان الهوية تتعدى هذه الصفات ، الى الصفات المتغيرة ، الفردية العارضة . وهنا لا بد لنا من التساؤل : هل يمكن للماهية ان تحل محل الاصل الوجودي المشخص الذي هي ماهية له ، ولو من ناحية المعرفة ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال بالايجاب ، تعني ان المعرفة تقتصر على الحواس والعقل ، وهما لا يتواصلان الا الى معرفة الظواهر والماهيات . اما الوجود القابع « وراء » هذه الظواهر والماهيات، فلا سبيل الى معرفته ولكي نبين ذلك ، لابد لنا من التفريق بين الماهية والهوية والوجود .

قلنا ان هوية الشيء هي مجموع صفاته ، ما يشارك بها افرادنوعه وهي التي ندعوها ماهية ، وما تقتصر عليه وحده ، وقد يشارك في بعضها بعض افراد نوعه ، وهي تشكل مع الصفات التي يشارك بها نوعه ، كل صفاته ، اعني هويته . بيد ان الصفات التي ندعوها ماهية هي ثابتة وكلية وضرورية : ثابتة بالنسبة الى كل الافراد في النوع ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، وضرورية بالنسبة اليهم ، اي لابد من اتصاف كل

فرد منهم بها ، في الماضي والحاضر والمستقبل . ومعنى هذا ، ان الماهية لاتعبر عن حقيقة الشيء : انها مجردة من ناحية ، وناقصة من ناحية اخرى . لهذا لم تكن هي وجوده . ولكن اذا لم تكن الماهية هي وجود الشيء فهل الهوية هي هذا الوجود ؟

لنلاحظ ان الهوية هي مجموع صفات الشيء ، ولكن الصفات ليست وجود الشيء ، بل مايميز هذا الشيء من غيره من ناحية ، وما يجعله مشابها له من ناحية اخرى ، اي ما تجرده الحواس والعقل من وجوده وهذا يعني ، ان الوجود هو قوام الصفات في وحدتها ، من دون هذه الصفات في وحدتها المشخصة ، لا التشخيص الحسي ، بل التشخيص الوجودي . فهل بامكاننا ادراك هذا الوجود ؟

لقد راى بعضهم ، ان ما ندركه من الشيء ينحصر في صفاته : هويته اولا ، ثم ماهيته ثانيا ، اما الوجود فلا ! ولكننا نذهب غير هذا المذهب ، ونرى ان الوجود ذاته تمكن معرفته ايضا ، لا بالحواس والعقل ، بل بالوجدان الذي هو في اصلهما ، والذي لا يمكن ان يكونا من دونه ، فهما به يعملان في جانب من جوانب الوجود ، وينطلقان منه الى كل الوجود في تشخيصه وتجريده . وهذا يعني ، اننا ندرك الظواهر والماهيات والوجود ، ندرك الظواهر بما نحن حواس ، والماهيات بما نحن عقل ، والوجود بما نحن جسد مغروس في الوجود المشخص ذاته ، ولنا صلة مباشرة بموجوداته الجزئية . اننا بكلمة مختصرة ندرك الوجود في تشخيصه وتجريده ، في موجوداته الجزئية وصفاتها المجردة، بفعل واحد هو الوجد ، دفعة واحدة ، لايلبث ان يبرز منه فعل الحواس ، ثم فعل الذهن ، على التعاقب ، ولكن طول التمرس بذلك ، يخفي التمايز بين هذه الافعال ، ويبدلها في المعرفة الحدسية فعلا واحدا !

- ٧ -

وكل هذا يعني ، ان الحقائق الجزئية والمجردة ، ذات اصل في الوجود المشخص وموجوداته الجزئية ، وهذا اساس الحقائق العلمية في اعتمادها على الحقيقة الفلسفية . ولكن هذا يصح على هذه الحقائق

من حيث هي بداية تجريد ، اي من حيث هي تصورات ومفهومات، ظواهر وماهيات ، وهذه ليست كل الحقائق العلمية ، لان العلم لايلبث ان يلجأ الى الاحكام والاستدلالات ، ليبني على التصورات والمفهومات ، حقائق علمية ابعد تجريدا ، واعم شمولا . لهذا كان لابد لنا من متابعة بحثنا ، لنرى كيف تقوم الحقائق العلمية الموغلة ابعد الايغال في التجريد ، على الحقيقة الفلسفية الراسخة اشد رسوخ في التشخيص !

والحقيقة ، فقد كنا نتكلم حتى الان ، وكأن هناك حقائق جزئية من ناحية ، وحقيقة كلية من ناحية اخرى . وهذا ارث « فلسفي » لم نتمكن من التخلص منه ، اذ انه ما من حقيقة كلية بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما حقائق جزئية فقط . فالحقيقة هي حقيقة دائما في نظر الذات ، وهي في اصلها مشخصة ، ولا يمكن للحقيقة المشخصة الا ان تكون في مقابل الذات التي تنظر اليها على انها حقيقة . وهذا يعني انها تحدها ، وانها بالتالي جزئية . اما « الحقيقة » الكلية فلا يمكنها ان تكون حقيقة ، الا بالنسبة الى الذات ايضا ، وهذا لا يمكن ان يحدث الا بالتجريد ، حيث تتصور الذات نفسها هي و « الحقيقة » الكلية في مطلق يشملهما معا ، وهي واقفة من « الحقيقة » الكلية تتأملها . وهذا يظهر بوضوح ، انها حولتها الى حقيقة جزئية ، وعاملتها معاملة الحقيقة الجزئية . ولهذا قلنا : انه ما من حقيقة كلية ، بل حقوان ، اي ما يسبق كل حقيقة !

واذا كانت الحقيقة مرتبطة بالذات ، كان لابد للذات من ان تعبر عنها بنحو من الانحاء . هذا النحو من انحاء التعبر ندعوه حكما او قضية . ولهذا كان الحكم في اساس العلم ، او في اساس الحقائق التي يتألف منها العلم ، بتجزئتها من ناحية ، وتجريدها من ناحية . لهذا ذهب «الفلاسفة» الى ان الحقيقة وليدة الحكم ، وانه ما من حقيقة خارج الحكم .

بيد ان هذا اذا صح على الحقائق الجزئية ، فهو لايصح على « الحقيقة » الكلية . والحقيقة ، فهو ينطوي — في رأينا — على مبالغة تعمم على الكل ما يصح فقط على الجزء ، وتنسى ان كل حكم يفترض

تمييزا بين الحاكم والمحكوم عليه من جهة ، وبين المحكوم عليه والمحكوم به من جهة اخرى . وهذا وذاك يفترضان تجريدا للمحكوم به ، من المحكوم عليه ، سبقه تجريد للحاكم والمحكوم عليه ، من الكل المشخص الذي هما جزآن منه ، وهما يفترضان نشوءالحقائق الجزئية من « الحقيقة » الكلية ، وقيام موضوعات العلوم الجزئية من تمايز « موضوع » العلم الكلي ، اعني الفلسفة . وهذا يعني ، ان كل حكم يفترض الكل المشخص سابقا عليه ، شرطا ضروريا له ، وان العلوم الجزئية هي نتيجة تجريد الحقائق الجزئية من « الحقيقة » الكلية(٥) .

واذا كان الامر كذلك ، كان لابد لنا من ان نتساءل : كيف توصل « الفلاسفة » الى القول بان الحقيقة هي وليدة الحكم ؟ نعتقد ان ذلك يصح على « الحقيقة » الكلية ، بل بكلمة اخرى ، عن خلطهم بين العلوم الجزئية والفلسفة ، بل يمكننا ان نعزو ذلك ، الى خلطهم بين العالم بما هو وحدة الاشياء وجوديا قبل تمايزها بالعقل ، والعالم بما هو هذه الاشياء وقد تمايزت بالعقل (ابتداء من الحس) . ولكي نميز بين الحالتين لا بد لنا من الكلام على العالم بما هو هذه الاشياء المتمايزة بالعقل ، لانه يستحيل علينا التعبير مباشرة عن هذا العالم قبل تمايزه ، اذ ان كل تعبير تجريد ، والتجريد هو بحد ذاته تمييز بين العالم واشيائه والذات التي تدركهما ، في سبيل انشاء العلوم الجزئية .

وهذا يعني ، ان العالمَ يتفتت في نظر العقل ، ويستحيل الى جزئيات ، يمكن بعدئذ ، ان يحمل بعضها على بعض؛ فيجعل بعضها موضوعا ، وبعضها محمولا ، فينشىء الحقائق الجزئية المختلفة . ولاشك ان « الفلاسفة » محقون ضمن هذا الحد ، ولكنهم مايكادون يعممون على الكل ماصدق على الجزء ، حتى يقعوا في استحالة لامخرج منها : فالعالم ليس موضوعا ماثلا امام الذات ؛ وان كانت اللغة تبديه لنا كذلك ، باللفظة التي تخصه بها . وقل الشيء ذاته عن صفاته التي تتمايز من بعد منه ، لتحملها عليه،

---

(٥) مقالنا : الفحص عن اساس الحكم ، مجلة المعرفة (حزيران ١٩٧٩) دمشق .

في حكم او قضية . انها لاتتمايز منه الا بالالفاظ الكثير المختلفة ، التي نطلقها عليه ، والتي هي في اصلها منه . والحقيقة ، ان الذات تتمايز من العالم ؛ وتتميز من صفاته ، حينما تتجرد منه ، وتجرده الى اشياء متكثرة ، وصفات مختلفة . وبما انها تقف من اشيائه وصفاتها التي هي ماثلة امامها ، فانها سرعان ماتعامله هو ذاته معاملة اشيائه وصفاتها ؛ فيخيل اليها انه ماثل امامها ، مثل مثول اشيائه وصفاتها . وهذا يعني ، انها تعامله في وحدته ، معاملتها اياه وهو جملة اشيائه وصفاتها المتمايزة؛ وانها تنظر اليه نظرة علمية ؛ وهو ليس موضوع نظرة علمية !

ولكن في هذا حيلة من حيل التجريد ؛ وهي غير جائزة ؛ لانها في أصل تشويه « الحقيقة » الكلية ، وتصورها على غرار الحقيقة الجزئية ؛ اي الحقيقة الناتجة عن اسناد محمول لموضوع . ولكن « الحقيقة » الكلية ليست نتيجة اسناد محمول لموضوع ؛ لانها « الموضوع » الذي يحمل في ذاته الاشياء كلها ، ومحمولاتها كلها . انها « الحقيقة » كاملة التشخيص، التي غرق الوجدان في الوجود المتشخص فيها ، قبل تمايزه منه ، وقبل تمايزه الى ذات وجسد ، وتمايز الذات الى ذهن وضمير وبديع ، وتمايز الذهن الى فكر وعقل ، بامكانه بهما ان يسند محمولا لموضوع . والحقيقة ان اسناد محمول لموضوع يصدق على الحقائق الذهنية – وهي حقائق جزئية – حيث تنتهي عمليات الفكر باحكام العقل ، في سبيل اقامة هذا العالم الجزئي أو ذاك !

خاتمة

يمكننا ان نستخلص من الذي قدمناه ، ان الحقيقة بالمعنى الصحيح للكلمة ، يفترض امرين : ذاتا وموضوعا . وهذان شرطان ضروريان لكل حقيقة . قد يبدو هذان الشرطان بديهيين الى اقصى حدود البداهة ؛ حتى ان المرء ليعجب من اننا حاولنا اثباتهما بعد هذا البحث الطويل ، الذي استغرق هذا العدد من الصفحات ! والحقيقة ، انهما بديهيان كما يبدو ؛ ولسنا بحاجة الى كل هذا العناء لاستخلاصهما . ولكن كونهما

بديهيين لايعني ان مايترتب عليهما بديهي أيضا . ولهذا كان استخلاصهما ضروريا ، لندرك ان ماوصلنا اليه يعتمد على البداهة .

وهنا نجد انفسنا امام نقطتين لابد من جلائهما بالنسبة الى موضوعنا . وهاتان النقطتان تتعلقان بـ « الحقيقة » الفلسفية والحقيقة العلمية ، فلنبدأ بالاولى منهما :

١) ان كل حقيقة لا بد لها من أن تكون جزئية او مجردة ، وهذا ناتج عن كونها مرتبطة بموضوع من ناحية ، وبالذات من ناحية اخرى ، أما انها مرتبطة بموضوع فأمر ضروري تماما ؛ لانها من دون هذا الموضوع تصبح وهما ، وتفقد صفة الحقيقة . واما انها مرتبطة بالذات ، فهذا الذي يجعلها جزئية أو مجردة . لانها في هذه الحال ، اما ان تكون جزءا من الكل المشخص ، او ان تكون هي الكل المشخص ؛ فاذا كانت جزءا من الكل المشخص ؛ كانت الذات ــ بما هي وجدان ــ في مقابله ، تحده وبحدها ؛ كما هو الامر بالنسبة الى مكتبي الذي اجلس اليه الآن ، وانا اخط هذه السطور على الورقة ؛ فهو يحدني ، وانا احده ؛ وهو جزئي وانا جزئي . واذا كانت هي الكل المشخص ، كنت انا ذاتي ــ بما انا وجدان ــ جزءا منه . وفي هذه الحال ، لا استطيع ان اعيه بما هو كذلك . ولكنني استطيع ان اعيه على نحو آخر ؛ فأتصور ذاتي خارجه في مطلق يضمني أنا واياه ؛ وعندئذ ، اكون عكسته امامي تجريدا ، في هذا المطلق الذي ابدعه خيالي ، والذي هو امتداد لانهائي للوجود المشخص ، ولكن ، لنلاحظ هنا ، ان هذه الحقيقة المجردة ، التي يفترض فيهـا ان تكون كلية ، لانها صورة الكل المشخص ، فقدت كليتها ، واصبحت جزئية ، لانها كانت في مقابل ذاتي ، وكل منهما تحد الاخرى !

وهذا يعني ، ان « الحقيقة » الكلية التي هي « موضوع » الفلسفة ليست كلية ؛ لاننا اذا نظرنا اليهـا في التجريد ، اصبحت محدودة بالذات ، اي جزئية ؛ واذا افترضناها في التشخيص وجودا ، وراء كل تجريد ، اصبحت حقوانا ، اي ما يسبق كل حقيقة . وعندئذ تكون هي والاجدوان شيئا واحدا .

٢) بيد أن الاشكال الذي رأيناه بالاضافة الى « الحقيقة » الفلسفية ، ينعدم بالاضافة الى الحقائق العلمية ، دون شك ؛ لان الحقائق العلمية جزئية ومجردة بطبيعتها . ولكن الحقائق العلمية تصبح بحاجة الى اساس تقوم عليه ، فهل يكفيها الاساس المجرد الذي تستند اليه ، وهو مزيج من الخبرة والعقل ؟ انا لانعتقد ذلك ؛ ونحن نذهب هنا ، كما ذهب « الفلاسفة » ، الى ضرورة البحث عن الاوليات التي يعتمد عليها التفكير العلمي . ولكننا اذا جاريناهم في هذا الامر ، لايمكننا ان نذهب معهم ، الى ان هذه الاوليات عقلية خالصة ، وان مبادىء التفكير من عدم تناقض وثالث مرفوع وسببية وغائية ، كافية بهذا الصدد ؛ بل لا بد من تجاوزها الى مبداي الهوية والعلة الكافية ، اللذين هما صورتان مجردتان من الكل المشخص ، تستمدان يقينهما منه . وفي هذه الحال ، الا يرتد يقين الحقائق العلمية الى يقين « الحقيقة » الفلسفية ، اي الى وحدة الوجود والوجدان؟

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

البلبل الشجاع

قصص للاطفال
تاليف : عبدو محمد

■ ■ ■

١٠١ قصيدة من شعر الاطفال

ترجمة : عبد اللطيف الارناؤوط

■ ■ ■

بيل وسيباستيان

القسم الاول
رواية للاطفال واليافعين

تاليف : سيسيل اوبري
ترجمة : زياد العودة

مفهوم الذات
تاريخه وتطوره

د . عبد المجيد نشواتي

اثارت نظرية مفهوم الذات اهتمام العديد من العلماء والباحثين في ميداني علم النفس والتربية خلال السنوات الاخيرة . فمما لا شك فيه ، ان احد اهم التفسيرات التي تتناول بحث الشخصية الانسانية يقع في مجال هذه النظرية . ويرى معظم علماء النفس المعاصرين ، ان مفهوم الذات يلعب دورا رئيسيا في تكامل الشخصية الانسانية ، وفي الواقعية السلوكية ، وفي الحصول على صحة تفسير سليمة . وقد تكون رغبة الناس في معرفة الكثير عن انفسهم ، ومعرفة الدوافع التي تشكل سلوكهم ، من الاسباب الهامة التي تحث على دراسة السلوك الانساني وبحثه . وان لجوء علماء النفس الى تكوين نظرية حول مفهوم الذات،ليس الا اسلوبا اجرائيا للاجابة عن السؤال الفلسفي الخالد ((من انا)) . فقد اقتنع سقراط بان العلم الحقيقي هو العلم بالنفس من اجل تقويمها ، واتخذ شعارا له عبارة قراها في معبد دلفي ، هي ((اعرف نفسك)) . وقد خبر كل منا هذا

السؤال في وقت ما ، ففي الحين الذي نشعر فيه احيانا باننا نعرف من نحن فعلا ، فاننا نشعر في احيان اخرى بالاضطراب والغموض والضياع بحيث نعجز عن تحديد هويتنا على نحو واضح ومفهوم بالنسبة لانفسنا على اقل تقدير .

وقد تاخذنا الدهشة عندما نكتشف ان مدركاتنا لا تتفق مع مدركات الآخرين ، ونتعلم بالمصادفة وحدها العديد من الامور حول ذواتنا لم نفكر بوجودها اطلاقا . فعندما يتملكنا الغضب ، او نخالف قاعدة سلوكية ما ، نشعر باننا لسنا على حقيقتنا ، وان الذات قد اصابها نوع من التشوه او الخلل ، وهنا يلعب العلاج النفسي دورا رئيسيا في الكشف عن الجوانب والمستويات اللاشعورية التي تشكل جزءا من ذواتنا ، ولا ندركها ادراكا مباشرا او واضحا .

ان البحث عن هوية في عالمنا المعاصر الذي يتصف بالتقنية والتعقيد وسرعة التغير وانعدام العلاقات الشخصية المتبادلة ، يشكل حاجة ملحة ومسيطرة لدى العديد من الافراد الذين يضمهم هذا العالم . وقد سعى الانسان جاهدا ، ومنذ فجر تاريخه ، الى فهم سلوكه ومعرفة مغزى وجوده ، وايجاد معنى لهويته . فكل انسان ، هو عالم نفس غير محترف ، يحاول باستمرار ، معرفة الحوادث التي تحيط به والتنبؤ بها ؛ كما يقوم بدور العالم المحترف ، فيضع الفروض ، ويتحقق من صحتها ، ويستخرج النتائج ، في محاولة منه لايجاد معنى لذاته ولبيئته، وقد زودت الاديان والفلسفات الانسان ببعض النظريات أو الفروض من اجل فهم نفسه ، حيث قيل عموما بثنائية الجسد والروح ، وافترض وجود بعض العوامل الداخلية غير المادية ، التي تنظم حياة الجسد ، وانتشرت مصطلحات عديدة للدلالة على تلك العوامل ، كالنفس والروح والجوهر والارادة ... الخ . وقد رفض علماء النفس هذه المفاهيم

لبعدها عن المنهج العلمي التجريبي ، ولكونها ناتجة عن عمليات التأمل . اما مفهوم الذات ، باعتباره مجموعة الآراء او المعتقدات التي يكونها الفرد عن ذاته ، من خلال وجوده في البيئة التي يعيش فيها ، فانه امر مقبول من معظم علماء النفس المعاصرين ، لانه موضوع جدير بالدراسة ، طالما يخضع لشروط البحث العلمي ووسائله . ويؤيد هؤلاء العلماء بحث مفهوم الذات لانه يلعب دورا رئيسيا وهاما في خبرات الفرد الذاتية ، ويؤثر على كافة جوانب سلوكه العقلية وغير العقلية .

وعلى الرغم من القول بأن اللغة خاصية انسانية ، ينفرد بها الانسان دون كافة المخلوقات الحية الاخرى ، فان مفهوم الذات اقوى من اللغة ، من حيث قيامه بدور التمييز بين الانسان والكائنات الاخرى . ويرى فروم « ١٩٦٤ » ان الانسان يسمو على كافة اشكال الحياة الاخرى ، لانه حياة تدرك ذاتها بذاتها . فالانسان هو المخلوق الوحيد الذي يملك القدرة على جعل ذاته موضوعا ، فيقف بعيدا عن ذاته ، ويتأمل ماهيته، ويفكر فيما يحب وفي الصورة التي يرغب ان يكون على شاكلتها . ويرى دوبزهانسكي « ١٩٦٧ » عالم الوراثة الشهير ، ان وعي الانسان لذاته وادراكه لها ، صفة اساسية وتطور خلاق للعقل البشري . ولما كان ادراك الذات يتضمن اصلا البحث عن معنى الحياة ذاتها ، فانه يؤكد على اهمية الخبرة البشرية وما تنطوي عليه من مضمونات مختلفة . ان ادراك الفرد لهويته ، يمكنه من معرفة الماضي وحوادث الحاضر وامكانات المستقبل ، كما يساعده على تحديد موقعه في البيئة التي يعيش فيها ، ويؤثر في طريقة اختياره لسلوكه وطموحاته وما ينتظره من الحياة عموما . وبتعبير آخر ، ان تصور الانسان لذاته ، يؤثر على مجمل حياته ككل .

ولقد بينت دراسات عديدة « بوهلر ١٩٣٥ ، جودانف ١٩٣٨ ، جيزل ١٩٤٩ ، روجرز ١٩٥١ » تناولت الاصحاء والمرضى النفسيين على حد سواء ، ان حوالي ٤٠٪ من مجموع الالفاظ التي يتداولها الافراد الذين تناولتهم هذه الدراسات ، قد دارت حول الذات ، واتخذت من الذات موضوعا لها . وتبين ايضا ، انه يمكن الاعتماد على مثل هذه الالفاظ ، واعتبارها طريقة صادقة لدراسة مفهوم الذات .

وعلى الرغم من أهمية مفهوم الذات ودوره الاساسي في عملية تفسير السلوك الانساني وفهمه ، فقد حالت عدة مشكلات دون الاعتراف بهذا الدور قبل بدء النصف الثاني من هذا القرن . وأهم هذه المشكلات هي ، وفرة التعريفات والمصطلحات الدالة على الذات ، الامر الذي ينتج عنه صعوبة تحديد مفهوم الذات ، والتعارض القائم بين مناهج البحث المختلفة في علم النفس ، كالتعارض بين المنهج الذي يتبعه السلوكيون ، والمنهج الذي يتبعه المعرفيون ، واخيرا ، الصعوبات التي يواجهها الباحثون في قياس الخبرة الذاتية .

تطور مفهوم الذات في فترة ما قبل علم النفس :

يعود نشوء مصطلح « مفهوم الذات » ودخوله ميدان الدراسات النفسية الى القرن العشرين فقط ، وان معظم البحوث التي تناولت « الذات » قبل هذا القرن ، لم تحدد هذا المفهوم تحديدا واضحا ، وذلك بسبب استخدام بعض المفاهيم الميتافيزيقية ، كالروح والارادة والنفس ، نتيجة لتأثير العقائد الدينية والفلسفية ، حيث صورت هذه العقائد الروح على انها مبدأ غير مادي تقطن جسدا ماديا ، وهي مبدا حياة هذا الجسم وحركته . وتتواتر هذه الثنائية ، ثنائية الروح والجسد ، عند أفلاطون وارسطو والمعاصرون لهما ؛ ولقد عززت المسيحية فيما بعد هذا التمييز بين الروح والجسد ، واتصفت الروح بالخلود ، حيث تذهب الى السماء في حال موت الجسد .

وبظهور الفلسفة العقلية الحديثة في أوروبا خلال القرن السابع عشر ، بدأت ثنائية جديدة بالبزوغ ، تختلف كل الاختلاف عن الثنائية التي كانت سائدة قبل هذه الفلسفات . وهذه الثنائية ، هي ثنائية التفكير وموضوع التفكير ، والتي تطورت فيما بعد الى تمييز مقبول بين الذات الواعية التي تقوم بعملية التفكير والادراك ، والذات المدركة ، وهي موضوع التفكير والادراك . ولقد ساهم ديكارت مساهمة أساسية في بناء هذه الثنائية عندما وضع الكوجيتو الخاص به « انا افكر ، اذن

انا موجود » حيث اكد على مركزية الذات في الشعور . ويرى ديكارت ، بالرغم من ثنائيته ، ان النفس والجسم يشكلان اتحادا جوهريا ، يشكل كلا واحدا ، فادراك الجرح او الاذى الذي يصيب الجسم ، لا يتم بالعقل وحده ، بل بالاحساس بالالم ايضا ، فالالم والجرح والعطش وكافة الانفعالات الاخرى ، لا تصيب النفس بما هي عليه ، بل تنشأ من اتحاد النفس والجسم واختلاطهما . وبذلك أثار ديكارت الانتباه الى التوافق بين الوظائف الجسدية والظواهر السلوكية والنفسية .

وقد طور هيوم ولوك هذه الفكرة ووضعا الجانب الآخر للمعادلة من خلال تأكيدهما على الخبرات الحسية . اذ يرى لوك ان الانسان موجود مفكر ، قادر على التأمل والتعقل ، ويستطيع ان يفكر في ذاته كذات ، والانا هو الشيء المفكر والمدرك لافعاله ، ووجوده موضوع حدس باطني لا يتطرق اليه شك ولا يحتاج الى دليل او برهان . اما هيوم فيرى ان الادراك قاصر على الظواهر ، ولا يمكن ان يحضر في الذهن الا ادراكات ، والنفس ليست الا مجموع الظواهر الباطنية وعلاقاتها ، ولا يمكن اثبات الذات من خلال الشعور ، لهذا حبذ هيوم الذات المبنية على الاحساس، مدعيا بأنه عندما ينفذ الى صميم الذات ، يقع دائما على ادراك جزئي ، اي على ظاهرة حية ، ولم يستطع ادراك ذاته مطلقا دون ادراك شيء ما .

وعبر هذا التيار الفلسفي طور « كانت » في كتابه « نقد العقل النظري » ثنائية الذات ، وذلك بالتمييز الحاد بين الذات ــ الفاعلة ، والذات ــ الموضوع . وقد نمق شوبنهور هذه الثنائية ، بحيث اشار الى هذين الجانبين للذات مطلقا عليهما « الذات العارفة » و « الذات المعروفة او موضوع المعرفة » .

وبهذا ، مهدت هذه الفلسفات السبيل لنشوء فكرة الذات الكلية التي يمكن تقسيمها الى جزئين متميزين ، هما الذات والموضوع ، والتي غدت موضوع بحوث متعددة في ميدان علم النفس في نهاية القرن التاسع عشر .

وليم جيمس : اكد وليم جيمس (١٨٩٠) علـى التمييز بـين الذات والموضوع على نحو مسهب ومقنع . وساهم بشكل فعال في عملية نشوء مفهوم الذات في علم النفس ؛ بحيث يمكن اعتبار ما كتبه في هذا المجال ، محددا للتغير بين اساليب التفكير القديمة والحديثة التي تتناول الذات بالدراسة والبحث . لقد انتقد جيمس الافكار الفلسفية السابقة مبينا ان « الروح » نتاج فلسفي خاطىء ، وكان موضوعيا في تناوله لهـذه المشكلة ، وافترض ان كل شيء موضوعي ، سواء أكان ذاتا ام غير ذات.

يعرف وليم جيمس الذات او الانا الاختبارية بانها المجموع الكلي لكل ما يدعي الفرد بانه له ، كالجسد والقدرات المختلفة والاسرة والاصدقاء والمهنة والهواية والممتلكات المادية ... الخ . ويميز بين جانبين متباينين للذات ، هما الذات كموضوع والذات كعملية . وتحدد الذات ــ الموضوع، اتجاهات الفرد ومشاعره وادراكاته وتقويمه لنفسه ، عندما يتخذ من نفسـه موضوعا ، وتشير الذات بهذا المعنى الى فكرة الشخص عن نفسه. اما الذات ــ العملية ، فهي الذات الفاعلة التي تتكون من عدة عمليات مختلفة كالتفكير والتخيل والتذكر والادراك ... الخ .

ان هذا التمييز بين الذات ــ الموضوع ، والذات ــ العملية ، يتبين على نحو واضح في المعاني اللغوية ، حيث تميز هذه المعاني بين الانا ــ الفاعل والانا ــ المفعول . وهذا يؤكد على امتلاك الانسان للشعور الذي يتمكن بوساطته من ادراك عناصر بيئته . بيد ان هذا التمييز ، على الرغم من وضوحه ، يثير بعض المشكلات على المستوى النفسي ، لان الذات ــ العمليـة تتضمن اصلا الذات ــ الموضوع ، ولا يمكن تحقيق الوجـود المستقل لواحدة دون الاخرى ، وبتعبير آخر ، لا يوجد شعور محصن او مجرد ، فالشعور دائما هو شعور بشيء ما ، والخبرة تنطوي باستمرار على « خبرة شيء ما » . وقد كان جيمس مدركا لهذه المشكلة ، وان التمييز اللغوي لهذين الجانبين من الذات قد يكون مضللا ، لذا قال بان الذات ــ الموضوع والذات ــ العملية ، هما جانبان متمايزان لعملية اختبارية واحـدة ، اي للذات الكليـة التي لا يقل مفهومها عن مفهوم الشخص ذاته .

ويرى جيمس ان الذات او الانا الاختبارية تتكون من اربع مكونات ، هي : الذات الروحية ، والذات المادية ، والذات الاجتماعية ، والذات الجسدية .

ان الذات الروحية هي تيار التفكير الذي يتكون من شعور الفرد بهويته الشخصية فيدرك ما يبدو عليه فعلا ؛ فعندما يفكر المرء في قدرته على التمييز والمناقشة ، وفي ضميره وعواطفه الاخلاقية او في ارادته الخلاقة، يكون اقرب ما يمكن من الذات الروحية ، وان اي تغير يطرأ على هذه الجوانب يؤدي الى الشعور بالاغتراب عن الذات ، ان الذات الروحية ، هي المحور الذي تتجمع حوله كافة جوانب الانا الاختبارية الاخرى ، وهي مصدر الميول والاهتمامات والانتباه والارادة والاختيار ، وتؤلف بين كافة الطموحات الاخلاقية والدينية والفكرية للفرد ، ومنها ينشأ الاحساس بالتفوق العقلي والاخلاقي ، او الاحساس بالدونية والشعور بالذنب .

ولم يميز جيمس بين الذات الاجتماعية والذات المادية من حيث الاهمية، بل جعلهما في مرتبة متوسطة ، بين الذات الروحية والذات الجسدية ، فالشخص يمتلك عددا كبيرا من الذوات الاجتماعية ، تختلف باختلاف الجماعات والافراد الذين يتجه اليهم هذا الشخص . ويبدو ان اكثر هذه الذوات اهمية هي تلك الذوات التي ترتبط بالافراد او الجماعات التي نحبها ونميل اليها ، كالاصدقاء والاسرة . ان الذات الاجتماعية تعزز احترام الذات لدى الفرد ، وتحقق بعض الاهداف الاجتماعية كالتأثير في الآخرين والتأثر بهم والحصول على موافقتهم وتقبلهم لما نقوم من اعمال .

اما الذات المادية ، فتتكون من كافة الممتلكات المادية التي يعتبرها المرء جزءا منه . فالملابس تشكل جزءا من هذه الممتلكات ، وتبدو اهميتها عندما تحدد هذه الملابس هوية صاحبها من حيث انتمائه الى مهنة معينة او جماعة معينة او ثقافة معينة . وقد تسيطر الجوانب المادية على حياة البعض ، فتشكل الذات المادية جزءا هاما من مفهوم الذات الكلي لدى هؤلاء . ويتضح ذلك على نحو جلي من خلال طبيعة الاشياء التي يقتنيها

الفرد ، والتي يهدف من وراء اقتنائه لها الى تشكيل « مفهوم ذات » معين ، يدرك فيه هويته ، كما يرغب أن يدركه الآخرون من خلال هذه الهوية ذاتها .

واحتلت الذات الجسدية ادنى المراتب من حيث الاهمية طبقا لراي جيمس . وقد يكون جيمس غير محق في ذلك ، نظرا للاهمية التي يتسم بها الجسد لدى الاطفال والمراهقين ، بل وحتى الراشدين . فالجسد تعبير عن نشاطات الفرد وسلوكه ، والشعور بالذات يبدأ باختبار الجسد والشعور به من خلال رجاع الآخرين نحوه ، وكلما كان الشعور الذاتي بالجسد مرضيا ، كلما كانت أفعال الفرد أكثر حيوية ونشاطا .

تتوحد هذه الذوات الاربع بطريقة فريدة ، لتشكيل الكيفية التي يدرك بها الانسان ماهيته . ويتعذر فصل هذه الذوات عن بعضها ، نظرا للارتباط العضوي القائم بينها ، حيث تقوم كل ذات بتعزيز الذوات الاخرى ودعمها .

ان المجتمع المعقد الذي نعيش فيه يؤدي بالفرد الى اختيار اهداف معينة ، ترتبط بمكونات الذات لديه ، وتتوقف على الكيفية التي يرى فيها نفسه ، وان المركز الذي يحتله في هذا العالم مرهون بنجاحه أو فشله ، الامر الذي يحدد لديه عاطفة احترام الذات . وعلى الرغم من الميل الطبيعي لدى الانسان الى تضخيم ذواته المختلفة ، الا أن العديد من المعوقات العقلية والجسدية والاجتماعية تحول دون ذلك ، لذا يترتب على الفرد أن يختار ذواتا محددة يجد فيها نفسه ، بحيث يوجد نوعا من التوازن بين قدراته ومطامحه كي لا يمنى بالفشل ويقلل من احترامه لذاته .

وهكذا بين جيمس الجوانب المتكاملة لمفهوم الذات الذي يتضمن الشعور والتفكير والاتجاهات والمحاكمة والتقويم ، والذات سواء كانت موضوعا او عملية او الاثنين معا ، فهي لا تشير الى « روح » أو « نفس » أو « عقل » له وجود مستقل عن الشخص ، بل تشير الى العمليات النفسية ذاتها او الى موضوع هذه العمليات ، والتي يتحكم فيها مبدأ السببية .

فالذات ليست مفهوما ميتافيزيقيا ، بل هي مفهوم واقعي ، تتناوله الدراسات والبحوث العلمية في ميدان علم النفس العلمي ، لتفسير بعض الظواهر والملاحظات السلوكية التي يتمكن الفرد من ادراكها .

السلوكية : على الرغم من التمييز الحاد الذي قال به جيمس من خلال ثنائية الذات ــ الموضوع ، والذات ــ العملية ، فان معظم علماء النفس قد تجنبوا الحديث عن « الذات » حتى منتصف هذا القرن ، وذلك بسبب غموض المفاهيم التي تكتنف هذه « الذات » وبسبب سيطرة مبادىء السلوكية خلال العقود الاربعة الاولى من هذا القرن وكما قال بها واطسن وثورندايك وهل وسكنر . لقد اكدت السلوكية على المنهج العلمي السائد في ميدان العلوم الفيزيائية ، ووجهت انتباه علماء النفس الى دراسة الظواهر السلوكية التي يمكن ملاحظتها وقياسها .

لقد اعتمدت السلوكية على عملية الارتباط بين المثيرات والاستجابات التي يمكن تعريفها على نحو اجرائي . ونبذت كافة النظريات التي تتخذ الاستبطان والتأمل والتقارير الذاتية منهجا لها ، لان هذا المنهج غير علمي ، ولا يمكن التحقق من صدق النتائج التي يقول بها . كما رفضت العديد من المفاهيم ، كالشعور والتفكير والقصد والتوقع والنفس لانه لا يمكن اختبارها علميا ، ولن يغدو علم النفس علما ، ويحتل مكانته بين العلوم الاخرى الا بانفصاله عن الفلسفة وبتخليه عن المفاهيم الميتافيزيقية، ودراسته للسلوك من خلال ثنائية المثير والاستجابة .

لقد وضعت السلوكية « مفهوم الذات » في موقف حرج ، لان هذا المفهوم ينطوي اصلا من حيث مدلولاته، على الخبرة الداخلية والتقارير الشخصية والتفسيرات الذاتية . ونتيجة لذلك ، تضاءلت الدراسات النفسية التي تناولت مفهوم الذات ، وتحقق النجاح في بادىء الامر للسلوكية ، بسبب الاجراءات الاحصائية المتعلقة بقياس المثيرات والاستجابات وبسبب الشروط التجريبية التي تستخدمها في الوصول الى نتائجها .

وظهرت بعض الحقائق والصعوبات على المستوى التطبيقي والنظري ، ادت بالسلوكيين الى تعديل افكارهم ووجهات نظرهم . فلقد تبين ان

المنهج السلوكي قد ضيق الى حد كبير ميدان الدراسات النفسية وذلك باقتصاره على دراسة السلوك الملاحظ والقابل للقياس ، بحيث استبعد الجوانب التي تميز السلوك الانساني بشكل واضح ، كالاهتمامات والتوقعات والاهداف والطموحات والافكار والمعتقدات ، وبدات تظهر بعض الدلائل على وجود انواع من السلوك ، لايمكن تفسيره بمجرد الربط الآلي بين المثير والاستجابة ، ولا بد من افتراض وجود بعض العمليات الداخلية التي يجب الرجوع اليها لتبرير هذا السلوك . فلقد تبين مثلا ان الحيوان يستطيع التعلم واختزان المعلومات دون استخدام عمليات التعزيز ، بحيث اضطر كل من « تولمان » و « هل » الى افتراض وجود بعض « المتغيرات » التي تتدخل بين المثير والاستجابة لتفسير الحالات الداخلية التي تقوم بتعزيز السلوك ، وان الاعتراف باهمية مثل هذه الحالات التي تتميز بها العضوية والتي تؤثر على عملية التعلم ، يفسح المجال لمفهوم الذات الفينومنيولوجي ضمن الدراسات النفسية .

وبانتشار النظرية الفينومينولوجية ، كما جاءت في نظرية المجال عند « ليفين » ونظرية الذات عند « روجرز » اعتبر مفهوم الذات المكون الاساسي الذي يجب دراسته لفهم طبيعة السلوك البشري . وازدادت خلال السنوات العشرين الماضية ، وبشكل كبير جدا ، الدراسات والبحوث التي اتخذت هذا المفهوم موضوعا لها .

ويبدو ظاهريا ، ان السلوكية تتعارض مع نظرية الذات الفينومينولوجية ، بحيث تتحدث كل من هاتين النظرتين عن نموذجين مختلفين للانسان ، ويرتبط بكل نموذج منهج خاص به ، الامر الذي يوحي بان قبول احدهما ينطوي على رفض الاخر حكما . بيد ان التعمق في هاتين النظريتين يبين انهما متكاملتان ، وان منهاجيهما ضروريان من اجل الفهم الشامل لتعقيدات السلوك الانساني . ففي الوقت الذي تشير فيه نظرية مفهوم الذات ، الى تأثير هذا المفهوم ، بما ينطوي عليه من ادراك وتبصر واهداف واتجاهات ، في السلوك ، فانها تفتقر الى بيان الكيفية التي يتم فيها مثل هذا التأثير . وهنا تبدو أهمية النظرية السلوكية ومبادئها . فالتعزيز الايجابي مثلا ، يمكن الفرد الفاشل من الشعور بالنجاح ، الامر الذي

يؤدي الى تصاعد عملية احترام الذات ، والى تغيير ادراك الفرد لذاته ولبيئته وللاخرين ؛ اي الى تغيير مفهوم الذات من خلال عملية تعديل السلوك ؛ وبذلك يتضح ان النظرية السلوكية ، ونظرية مفهوم الذات ، على صلة وثيقة ببعضهما .

لقد اثرت السلوكية تأثيرا مفيدا في ميدان دراسة مفهوم الذات ، بحيث تناول الباحثون اكثر جوانب الذات وضوحا وتحديدا ، والتي يمكن تعريفها اجرائيا ، ووصفوا لها الفرضيات التي يمكن اختبارها ، كما استخدموا ادوات مختلفة لقياسها . وبذلك غدت دراسة الذات بمظاهرها المختلفة اكثر منهجية وتحديدا ودقة ، وذلك بفضل استخدام المنهج السلوكي في ميدان علم النفس . واصبح في الامكان مثلا ، تحديد موقف الفرد من نفسه ومن الاخرين ، وتحديد العديد من المظاهر التي تتخذها الذات بطرق علمية مقبولة .

بيد ان هذا النهج العلمي الذي اتبعته دراسات مفهوم الذات لم يكن وليد المنهج السلوكي فقط ، بل اتبع عدد من الباحثين اصول هذا المنهج منذ فترة زمنية بعيدة ، فقد قام « كوفان ١٩١٥ » وقبل تطور السلوكية ، مع بعض زملائه بدراسة العلاقة بين التقدير الذاتي « للذات » وبين تقويم الاخرين لهذه « الذات » ووجد اتفاقا كبيرا على السمات المرغوب فيها ، بينما لم يجد هذا الاتفاق على السمات غير المرغوب فيها . . كما قام « شترن ، ١٩٢٢ » في المانيا ، بدراسة مفهوم الذات عند مجموعة من الافراد المنحرفين . وهكذا يتضح وجود مايدل على دراسة مفهوم الذات دراسة علمية قبل تطور السلوكية وسيطرتها في ميدان الدراسات النفسية .

مفهوم الذات والتفاعلية الرمزية :

لقد ساد في الماضي وحتى بداية القرن العشرين ، افتراض مفاده بان « وجود » الافراد ، يسبق دخولهم في علاقات متبادلة مع الآخرين . بيد ان كتابات جيمس وفرويد قد نبهت الاذهان الى اهمية التنشئة الاجتماعية التي يواجهها الطفل في سنوات حياته المبكرة ، وتاثيرها على

شخصيته المستقبلية . ويؤكد هذه الحقيقة طول المرحلة الزمنية التي يحياها الطفل معتمدا على الراشدين ، وتوافر الفرص الكثيرة لتعلم قيم المجتمع ومعاييره .

ولقد ادت وجهة النظر هـذه ، الى ربط نظرية مفهوم الذات بنظريـة سوسيولوجيـة ، والى ظهور منهج جديد لبحث العلاقة بـين الفرد والمجتمع .

تنطوي التفاعلية الرمزية على ثلاث مسلمات أساسية هي : ١ ـ يستجيب الفرد للبيئة وفقا للمعاني التي تنطوي عليها عناصر هذه البيئة ، وكما يدركها الفرد ذاته . ٢ ـ ان هـذه المعاني هي نتاج لعملية التفاعـل الاجتماعي ، ٣ ـ تتعدل هذه المعاني ـ الاجتماعية الثقافية ـ من خلال عملية التفسير أو الفهم الفردي ، وضمن نطاق التفاعل المتبادل .

وبهذا المعنى تشكل الذات مع الآخرين وحدة غير منفصلة ، لان المجتمع قائم اصلا على سلوك الافراد الذين يشكلونه ، ومن ثم توضع القيود الاجتماعية على سلوك الفرد . وفي الحين الذي يمكن فيه فصل الذات عن المجتمع من الوجهة التحليلية ، فان التفاعلية الرمزية تفترض بان الفهم الكلي للذات ، يتطلب الفهم الكلي للمجتمع ، والعكس صحيح . ولقد وضع كل من « كولي » و « جورج ميد » الافكار الاساسية للتفاعلية الرمزية .

لقد كان كولي يعتقد باسبقية الفرد على المجتمع ، الا انه عدل وجهة نظره واكد على اهمية المجتمع والعلاقات الاجتماعية ، بحيث راى ان المجتمع والذات توامان ، وان « الانا » المنفصلة والمستقلة عن المجتمع ليست الا وهما وضلالا . فسلوك الفرد وضغوط المجتمع تعدل بعضها على نحو متبادل . ويرى امكانية تمييز الذات من خلال اللغة ، بحيث تشير كافة الضمائر الخاصة « بالمتكلم المفرد » اليها ، وان الذات تستثير من الانفعالات ما لا يستثيره غيرها ، ولا يمكن التعرف عليها الا من خلال الشعور بالانفعالات الذاتية .

وميز كولي بين الذات « كما يدركها صاحبها » ، والذات « كما يدركها

الآخرون » ولكن من وجهة نظر الفرد ذاته ، اي بين الذات التي يعتقد الفرد بانها تمثل هويته الواقعية او ما هو عليه فعلا ، والذات التي يعتقد بأن الآخرين يدركونه من خلالها . وكان كولي أول من أشار الى اهمية الآخرين من حيث كونهم مصدر بيانات رئيسي عن الذات ، والى اهمية الدور الذي تلعبه هذه البيانات كنوع من التغذية الراجعة . وهذا يعني ان مفهوم الذات يتأثر على نحو قوي بما نعتقده بأنه تصور الآخرين لنا او فكرتهم عنا . لذلك وضع كولي مفهوم « الذات المنعكسة » أي مفهوم الذات كما تنعكس لدى الفرد من خلال فكرة الآخرين عنه . فاذا اعتقد طفل ما مثلا ، بأنه غبي من وجهة نظر الآخرين المحيطين به ، فقد يغدو غبيا فعلا ، ويسلك بطريقة غبية .

وتتشكل « الذات المنعكسة » من خلال عملية التفاعل الرمزي بين الفرد والجماعات الاساسية المتنوعة التي ينشأ فيها وعلى راسها الاسرة . وتتميز هذه الجماعات باستمرارها النسبي وقلة عدد افرادها والعلاقات الودية التي تسودها ، بحيث تؤدي في نهاية المطاف الى تكامل الفردية والجماعة . ان هذه الجماعات تقوم بدور التغذية الراجعة بالنسبة للفرد، بحيث يستطيع القيام بعملية تقويم الذات وتعلم القيم والاتجاهات والادوار التي تسود فيها . وهكذا يتبين ان الذات والمجتمع توامان ؛ ولا يمكن التعرف على احدهما الا بالرجوع الى الآخر .

ويتفق ميد مع كولي من حيث اعتبار المجتمع والذات توامين . ورای تأثرا بجيمس وكولي ان الذات تنمو من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي، فمفهوم الذات « كموضوع » ينشأ عن عمليات التفاعل هذه ، و « كنمو » عن اهتمام الفرد بالكيفية التي يستجيب فيها الآخرون لسلوكه وافعاله. لذا يتنبأ الفرد برجاع الآخرين ويسلك على نحو يتلاءم مع هذه الرجاع ؛ كما يتعلم ان يفهم البيئة كما يفهمها الآخرون ، الامر الذي يزوده بالاسس الرئيسية للتنظيم الداخلي للذات والذي يغدو موجها وحافظا للسلوك ، حتى في حال عدم استمرار وجود القوى الخارجية عن الذات . فالذات بنية اجتماعية تنشأ عن ممارسة ومواجهة الخبرات الاجتماعية المختلفة. وتستطيع بعد تكونها ، أن ترفد نفسها بالعديد من هذه الخبرات .

وبرى ميد أن اللغة هي صلة الوصل بين الذات والمجتمع ، فعندما يمتلك الفرد الرموز اللغوية ، يستطيع التحدث الى نفسه كما يتحدث الى الاخر ، وبذلك يسلك تجاه ذاته كما يسلك الاخرون تجاهه ، ويغدو موضوعا لذاته . ويميز ميد بين الذات ـ الموضوع ، والذات ـ العملية ، ويخصص لكل منها سياقات اجتماعية خاصة بها تعمل ضمنها . فالذات الموضوع تتبدى في عمليات التفاعل الاجتماعي والعضوية في الجماعات المختلفة والادوار الاجتماعية ، بينما تتبدى الذات ـ العملية ، في تمييز الذات عن الاخرين ، من خلال القدرات الفردية ، واتخاذ المواقف او الاتجاهات المختلفة .

ان هذا التقسيم للانا ، كذات وكموضوع ، يختلف عن تقسيم جيمس في اساسه . فالانا ـ الذات عند ميد تشير الى نزعة اندفاعية غير منظمة، ونشاط لا متمايز شبيه « بالهي » عند فرويد ، فالسلوك يبدأ من الانا ـ الذات بتزويد الفرد بالدافعية ، بينما تزوده الانا ـ الموضوع بالاتجاه . وبهذا يعتمد نمو « الذات » على ظهور الانا ـ الموضوع . فالفرد يستجيب لنفسه ويطور اتجاهاته الذاتية بطريقة تتسق مع الاتجاهات التي يعبر عنها الاخرون في عالمه . فيقدر نفسه كما يقدره الاخرون ويحط من هذا القدر عندما يرفضه الاخرون او يتجاهلونه . ويصل ميد الى ماوصل اليه كولي من نتائج ، وهي ان الفرد يدرك ذاته وكأنه يملك الصفات والقيم التي ينسبها الاخرون اليه .

توحي كتابات ميد بأن « الذات ، مؤلفة من عدة ذوات اساسية تعكس جوانب بنية العملية الاجتماعية ، وان الذات المتكاملة تعكس هذه العملية بكليتها . كما ان الذات القادرة على التلاؤم مع كافة جوانب النظام الاجتماعي الواقعي ، تمثل فكرة الهوية الاجتماعية . فكل فرد يمتلك عددا من الهويات الاجتماعية يربط بينها وبين المجتمع تلك الذات المتكاملة ؛ وبذلك يؤكد ميد على عدم الفصل بين الذات والمجتمع كما فعل « كولي » قبله .

على الرغم من الافكار التي جاءت بها التفاعلية الرمزية ، لتفسير

تكوين مفهوم الذات ، فانها فشلت في تحديد مفهوم الذات تحديدا إجرائيا يقبل به الباحثون . ففي الحين الذي اكدت فيه التفاعلية الرمزية على اهمية العوامل البيئية والاجتماعية في عملية تكوين مفهوم الذات فانها قد تجاهلت العوامل العاطفية والانفعالية واللاشعورية لدى تفسيرها للسلوك الانساني . فالفشل في عملية تنظيم المشاعر والسلوك بطريقة تتسق مع المعايير الاجتماعية القائمة ، قد يؤدي الى الاضرار بالحياة الاجتماعية وتقويض المجتمع . فالفرد الذي يختار هوية اجتماعية معينه ، عليه ان يملك القدرة على معرفة القرائن الرمزية التي تعطي معنى وتعريفا لهذه الهوية ، لكي تكون صحيحة ومتطابقة مع المعايير الاجتماعية ، وهذا امر ينطوي على العوامل البيئية والشخصية على حد سواء ، وهو ما يدفعنا الى الحديث عن العلماء الذين تناولوا الجانب الانفعالي واللاشعوري في تكوين الذات .

مفهوم الذات والتحليل النفسي :

على الرغم من ان فرويد لم يتناول « مفهوم الذات » بمعناه الحديث على نحو مباشر ، الا انه يمكن القول ، بان كتاباته عن الشخصية تنطوي على مضمون هذا المفهوم . يرى فرويد ان الشخصية تكون ثلاثة نظم رئيسية هي : ال « هو او الهي » Id والانا Egoوالانا الاعلى Super - Ego ان الانا تمثل الذات عند فرويد ، لانها تشير الى كل ماهو صحي وسليم ومنطقي في الحياة النفسية ، اذا ماقورنت « بالهي » التي تتسم بالاندفاع واللامعقولية ، وانها تشير الى مجموعة من العمليات كالتفكير والادراك ، وتحدد مضمون الشعور ، وتميز بين الواقع والخيال . لذا فهي تعمل وفق مبدا الواقع وتفرق بين الاشياء التي توجد في العقل والاشياء التي توجد في العالم الخارجي .

ان الانا جهاز اداري للشخصية ، يسيطر على افعال وسلوك الفرد ويختار من البيئة الجوانب التي تستجيب لها ، كما يقرر الغرائز التي يجب اشباعها والكيفية التي يجب ان تشبع بها . وتعمل الانا بهذهالطريقة

على التوفيق بين مطالب الهي ومطالب الانا الاعلى ، اي بين الحاجات الفريزية للفرد وظروف البيئة المحيطة به . ان الانا في ضوء هذا التحديد مطابقة للذات الكلية التي تتكون من مجموعة العمليات النفسية الضابطة لقوة الشعور واتجاهه ، والمعنية بشكل اساسي بالسلوك الدافعي الهادف.

تشير الانا عند فرويد الى جوانب متعددة ، فهي تشير احيانا الى « الشخص » وفي احيان اخرى الى عملية التوازن النفسي بين مطالب « الهي » ومطالب « الانا الاعلى » كما تشير في بعض الاحيان الى « قوى تنفيذية » تتجاوز العمليات العقلية ، كما في حالة الاليات الدفاعية المختلفة كالتعويض والتبرير والاسقاط ... الخ . وهذا يؤدي الى نوع من الغموض يحول دون تحديد مفهوم الذات تحديدا واضحا. فالانا «كشخص» تشعر بالتهديد نتيجة احتمال تغلب غرائز «الهي» عليها ، فتقوم «كعملية» بكبت هذه الغرائز لايجاد نوع من التوازن النفسي بين « الهى » و « الانا الاعلى » او تتجاوز العمليات العقلية ، فتقوم باستخدام بعض اليات الدفاع « كقوى تنفيذية » .

من الواضح ان الانا هي الجزء المنظم لا هو والمتطور عنه ، ولا وجود للانا دون وجود ال هو ، الامر الذي يعني وجود جذور الانا في العمليات الدينامكية اللاشعورية ، وهذا يختلف على نحو جذري عن مفهوم الذات وبخاصة كما تعبر عنه النظرية الفينومينولوجية ، حيث يقوم مفهوم الذات على الادراك والخبرة الذاتية الشعوريين . ومع ان فرويد لاينكر بأن السلوك الانساني محكوم بذات شعورية واعية ، الا انه يؤكد على نحو لايقبل الشك على دور اللاشعور في تحديد السلوك .

اما « يونغ » فيرى ان « الانا » ، كما هو الحال عند فرويد ، هي العقل الشعوري وتتكون من كافة المدركات الشعورية والافكار والذكريات وهي المسؤولة عن شعور المرء بهويته وديمومته . فالذات تمثل كافة الجوانب الشعورية واللاشعورية لدى الانسان ، وهي النموذج الاساسي الذي يسعى المرء من اجل وحدته وتكامله ، وبتعبير اخر ، ان الذات هي الشخصية في حال اكتمال نموها ووحدتها .

ان الذات عند يونغ ، تمثل مركز الشخصية ، وتحتل مركزا وسطا بين الشعور واللاشعور ، بحيث تقوم بعملية توازن بين هذين الجانبين من الحياة النفسية عند الفرد . والذات مي هدف الحياة الذي نادرا مايبلغه الناس . ويعتقد يونغ ان الذات لاتظهر قبل بلوغ الفرد منتصف العمر ، حيث تنمو كافة مكونات الشخصية نموا كاملا ومتفردا . وقد يكون مفهوم الذات من اكثر اكتشافات يونغ النفسية اهمية ، لانه يمثل ذروة دراساته المتعمقة للانماط الاولية او المكونات البنيوية للاشعور الجمعي . كما ان سعي الفرد ونضاله في سبيل الذات ، وهو هدف الحياة بعيد المنال ، قريب جدا من عملية تحقيق الذات في المذاهب الفينومينولوجي .

اما ادلر ، فيرفض افتراض فرويد الاساسي القائل بأن السلوك الانساني مدفوع بمجموعة الغرائز الفطرية ، كما يرفض ماذهب اليه يونغ عندما افترض بأن السلوك البشري مدفوع بأنماط اولية فطرية او لاشعور جمعي . ان ادلر يعتقد بان الانسان كائن اجتماعي اصلا ومدفوع في سلوكه بالحوافز الاجتماعية . لذا يقيم الفرد علاقات مع الاخرين ويقوم بنشاطات اجتماعية تعاونية ، ويفضل المصلحة الجماعية ، ويكتسب اسلوبا حياتيا تسود فيه الاتجاهات الاجتماعية ، لان للفرد اهتماما اجتماعيا فطريا ، وليس لمجرد كونه عرضة للعمليات والعلاقات الاجتماعية وبذلك وجه ادلر اهتمام علماء النفس الى المتغيرات الاجتماعية واهميتها في مجال تكوين الذات ، وهو الجانب الذي قلل من شأنه كل من فرويد ويونغ .

اما الذات لدى ادلر ، فهي شخصية الى حد بعيد ، وتشكل نظاما ذاتيا يقوم الفرد من خلاله بتغير خبراته واضفاء معنى ما عليها ، وعلى النقيض من فرويد ، يؤكد ادلر على الشعور او الادراك الواعي ويعتبره مركزا للشخصية ، فالانسان موجود مدرك وواع ، ولديه القدرة على ادراك اسباب سلوكه وعلى تنظيم وتوجيه هذا السلوك بكل ماينطوي عليه من تعقيدات .

تبحث الذات عن الخبرات التي يتمكن الفرد من خلالها تحقيق اسلوبه الفردي في الحياة ؛ وهي قادرة على ايجادها في حال عدم توافرها، وهذا ماحدا بأدلر الى القول بالذات المبدعة . بيد ان « اساليب الحياة » متعددة ، ويستطيع الفرد اختيار الاسلوب الذي يشاء مدفوعا بهدف اساسي ، هو تأكيد الذات . يعتقد بأن كل انسان يشعر بعدم الاكتمال والنقص ، الامر الذي يشكل لديه « عقدة نقص » تجعله مسرحا للشعور بالدونية . لذا يندفع الى تأكيد الذات والحصول على التفوق خوفا من هذا الشعور .

يعتمد أسلوب حياة الفرد الى حد كبير على مركبات النقص ، سواء اكانت هذه المركبات واقعية ام خيالية ، وان تصرف الانسان تجاه هذه المركبات هو الذي يحدد الذات الى حد كبير ، فاسلوب الحياة يهدف الى التغلب على مشاعر النقص او تعويضها ، وتبتدىء الذات من خلال السلوك المتبع في معالجة هذه المشاعر .

اما سوليفان فيرى ان نظام الذات نتاج محض للخبرات الخاصة بالعلاقات الشخصية المتبادلة ، التي تلعب الام فيها الدور الاكبر . فالذات تنظيم الخبرات التربوية الناشئة عن ضرورة تجنب او تخفيف حالات القلق . ان سوليفان يدرك تماما ماهية الذات ، الا انه لايقدم تعريفا مناسبا لها . وعندما يتحدث عن « نظام الذات » فانما يعني « الدينامية» وهي نمط من انماط السلوك ، اخذ شكل عادات معينة ، يمارسها الفرد تجنبا للقلق ، وقد تعني احيانا موقف الفرد من ذاته أو وجهة نظره نحو هذه الذات .

يرى سوليفان ان نظام الذات مدفوع بتجنب القلق أو الابتعاد عن الانفعالات غير السارة . ولكي يحقق الفرد ذلك يشكل أنواعا مختلفة من الاساليب الوقائية والضابطة لسلوكه ، فيتعلم تجنب العقاب من خلال الامتثال لاوامر والديه ، وان أساليب الثواب والعقاب التي تلجأ اليها الام أو من يقوم مقامها خلال السنوات الاولى المبكرة من حياة الطفل ، تمكنه من القيام بعملية تذويب أو استيعاب للقيم الاجتماعية السائدة ، بحيث يدرك ما هو محرم او مسموح به . ان وسائل الامن هذه تشكل

« نظام ذات » يرتضي انماطا معينة من السلوك ، فتتبدى « الذات الخيرة » ويمنع انماطا اخرى ، فتتبدى « الذات الشريرة » .

وبما ان الذات تقي الفرد من القلق ، وتوفر له الامن ، فهي محاطة بالتقدير وبعيدة عن النقد ، الامر الذي يحول دون قيام الفرد باصدار احكام موضوعية على سلوكه ، لذا يستبعد نظام الذات كافة المعلومات والخبرات التي لا تتفق مع تنظيمه الحالي ويخفق في الاستفادة منها ، وكلما ازداد قلق الفرد ، تضخم نظام الذات وازداد انفصالا عن بقية الشخصية . وهنا يلعب هذا النظام دورا معوقا في قدرة الفرد على انشاء علاقات بناءة مع الآخرين ، على الرغم من فائدته من حيث خفض التوتر وتخفيف القلق .

اما هورني ، فقد اتفقت مع ادلر وسوليفان حين انتقدا تركيز فرويد على القوى الغريزية ، على الرغم من انها تعتقد أن افكارها تندرج ضمن اطار علم النفس الفرويدي . وقد ارادت تخليص هذا العلم من الاتجاه البيولوجي الميكانيكي ، لذا رأت — كما هو الحال عند سوليفان — أن نظام الذات ينشأ عن القلق ، وقد اقامت افكارها حول مفهوم القلق الاساسي الذي تعرفه « بانه الاحساس الذي ينتاب الطفل بسبب عزلته وقلة حيلته في عالم حافل بالعدوان ... » وترى هورني ، أن البيئة مليئة بالعوامل التي تؤدي الى الشعور بعدم الامن عند الطفل ، فالسيطرة المباشرة أو غير المباشرة ، والسلوك الشاذ ، وعدم احترام حاجات الطفل الفردية ، والافتقار الى التوجيه الواقعي ، والاتجاهات السلبية والمتناقضة والتطرف من حيث الاعجاب او عدمه ، وفقدان الحنان ، وموالاة احد الوالدين اثناء خلافاتهما ، وزيادة المسؤولية او نقصانها على نحو متطرف ، والحماية الزائدة ، والانعزال عن الاطفال الآخرين ، وعدم العدالة ، والتمييز من حيث المعاملة ، وعدم الوفاء بالوعود ، والجو العدواني ... كلها أمور تؤدي الى القلق عند الطفل والشعور بعدم الامن .

وتشير هورني الى أن أيا من هذه الخبرات او اية مجموعة منها يمكن أن تؤدي بالفرد الى تبني بعض الاستراتيجيات المعينة لارضاء

حاجة عصابية او تخفيف حاجات ناشئة عن العلاقات الانسانية المضطربة. وقد تغدو هذه الاستراتيجيات على قدر كبير من الثبات في الشخصية، فتتخذ شكل الدافع المميز لديناميات الشخصية. فقد يعمل الفرد مثلا على تحقيق السيطرة على الآخرين نتيجة افتقاره للحب، فيعوض احساسه بالعجز، ويجد منفذا للعدوان، نحو الآخرين أو نحو الذات.

وقد وصفت هورني عشر حاجات عصابية، كالحاجة العصابية للحب والتقبل، والحاجة العصابية للقوة، والحاجة العصابية للمكانة المرموقة، والحاجة العصابية للاكتفاء الذاتي والاستقلال .... الخ وترى هورني ان هذه الحاجات غير واقعية وتكتسب نتيجة لمحاولة الفرد حل مشكلة العلاقات الانسانية المضطربة.

وادرجت هورني فيما بعد هذه الحاجات تحت ثلاث فئات هي:

١ ـ التحرك نحو الناس، كالحاجة الى الحب والانتماء.

٢ ـ التحرك بعيدا عن الناس، كالحاجة الى الاستقلال وتأكيد الذات.

٣ ـ التحرك ضد الناس، كالحاجة الى القوة والسيطرة.

وان كلا من هذه الفئات تمثل اتجاها اساسيا نحو الآخرين ونحو الذات، وهي أساس الصراع الداخلي عند الفرد، والفارق الاساسي بين الصراع السوي والصراع العصابي، هو فارق درجة وليس فارق نوع.

فاذا كانت السمة السائدة عند شخص ما، هي من نوع التحرك نحو الناس، فتشير الى انه يرغب بالمحبة والتودد والموافقة والتقبل، بحيث يحصل على الامن والاطمئنان من خلال اتكاله على الآخرين والاعتماد عليهم.

اما الشخص الذي يتحرك ضد الآخرين، فيجد العالم مكانا شرسا وعدوانيا، لا مكان فيه الا للاقوى والافضل تلاؤما، ويرى في الآخرين القوة والعدوان، لذا يحقق الامن من خلال التفوق والنجاح والحصول على مكانة مرموقة.

والشخص الذي يتحرك بعيدا عن الناس، يبحث عن الاستقلال والخصوصية، ويخشى التعلقات والالتزامات، ويرغب في تجنب اذى الآخرين.

وترى هورني ان الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته الا من خلال اقامة نموذج للذات المثالية ، الا ان هذه الذات غير واقعية ، وتنشأ نتيجة الهروب من القلق الاساسي . ولما كانت الذات المثالية هدفا لا يمكن تحقيقه، فان صراعا داخليا سينشأ لدى الفرد ويؤدي الى السلوك العصابي . ولا تبين هورني ما اذا كان الفرد مدركا لعدم واقعية الذات المثالية أم لا ، الا انها تعتقد انه يمكن حل جميع الصراعات اذا نشأ الطفل في أسرة توفر له الامن والثقة والحب والاحترام والتسامح والحنان .

وبذلك ترى هورني ، وهي على نقيض في ذلك مع فرويد ، انالصراع ناتج عن ظروف اجتماعية ، وليس جزءا لا مفر منه من طبيعة الانسان ، فالشخص العصابي ، هو الشخص الذي واجه خبرات وصعوبات اجتماعية وثقافية ، وبخاصة في فترة طفولته .

ويبدو من خلال اعمال ادلر وسوليفان وهورني ، انهم يركزون على الاوضاع الاجتماعية الثقافية ، وعلى العلاقات الشخصية التفاعلية بين الافراد ، من حيث كونها عاملا هاما في تحديد الذات كموضوع . فالذات لديهم ، شيء يتعلمه الفرد من خلال اتصالاته الاجتماعية وخبراته التراكمية ، وينشأ مفهوم سلبي للذات من خلال تشوه تلك العلاقات ، الامر الذي يدفع بالفرد الى السعي والكفاح من اجل تحقيق شخصية سليمة ومتكاملة ومن اجل الحفاظ عليها . ويرى هؤلاء أن الذاتالمثالية متعلمة ايضا ، من خلال العلاقات السوية مع الاخرين ، والتي يسودها الحب والعطاء والثناء والثواب ، لان هذه العوامل تشكل المصدر الرئيسي لتعلم مفهوم الذات المثالي .

التمييز بين مفهوم الانا ومفهوم الذات

أثار عدم التمييز بين الانا والذات الكثير من الجدل بين العلماء خلال العقدين الرابع والخامس من هذا القرن ، فقد ادعى البورت(١٩٤٣) ان الانا والذات يشيران الى شيء واحد ، وحاول صياغة نظرية موحدة للانا والذات . بيد ان عددا من العلماء حاولوا ايجاد صيغ مختلفةومفاهيم متباينة للانا وللذات ، لاعتقادهم بأنهما مختلفان من حيث الاصلوالمنشأ.

ويرى تشين (١٩٤٤) ان الذات مضمون الشعور او الوعي ، ولا وجود لها خارج الوعي اطلاقا من الوجهة الواقعية ، والذات هي المعنية عندما نستخدم مصطلح الوعي ولا تقوم باية عملية ، لان العمل هو الدور الذي تقوم به الانا . فالانا تكوين واقعي – معرفي مبني حول الذات ، وتقوم بوظيفة تعزيز الذات وتشجيعها والدفاع عنها والمحافظة عليها ضد الاخطار التي تتعرض لها . ويبدو ان هذا الراي متفق مع ما جاء بـه جيمس من حيث تمييزه بين الذات « كموضوع » والذات « كعملية » فالذات « الموضوع » تشير الى ما يعيه الانسان ، في حين تشير « الانا » الى مجموعة العمليات النفسية المختلفة . الا ان تشين يفسح المجال لوجود بعض العمليات التي تحدد بعض جوانب السلوك خارج نطاق الانا ، ولا يبين ما اذا كانت هذه العمليات شبيهة بالهي والانا الاعلى عند فرويد ، او اللاشعور الجمعي الذي قام به يونغ .

ونهج بيرتوكي (١٩٤٥) نهج تشين من حيث تمييزه بين مصطلحي الذات والانا ، الا انه استخدمهما بطريقة معاكسة لطريقة تشين ، بحيث تشير الذات الى العمليات النفسية ، بينما تشير الانا الى الوعي اوموضوع هذه العمليات .

أما شريف وكانتريل (١٩٤٧) فقد عرفا الانا بأنها الذات – الموضوع وليست الانا الفاعلة كما هي في نظرية التحليل النفسي ، وهي مجموعة من الاتجاهات التي تشير الى ما أراه في نفسي واقومه ويعين هويتي ولا وجود للانا خارج هذه الاتجاهات . ويؤكد شريف وكانتريل ، أن الانا ، أي الذات كموضوع ، تشكل قوة دافعية توجه السلوك وتعززه وتزوده بالقوة ، ولا ينكران وجود دوافع اخرى خارج نطاق الانا تقوم بالعمل نفسه ، بيد ان اتجاهات الانا أكثر فعالية في توجيه السلوك وضبطه من الدوافع الاخرى ، بحيث ينشط الفرد ويبذل جهدا اكبر عندما يتعلق سلوكه باحترامه لذاته ، لان الدافع وراء هذا الجهد ، هو اتجاهات الانا ذاتها . وعلى الرغم من تشابه ما قال به شريف وكانتريل مع ما هو سائد الآن في المذهب الفينومينولوجي من حيث التمييز بين «الموضوع» و «العملية»، الا انهما لم يميزا بوضوح بين « الذات – الموضوع » و « الذاتالعملية » .

ونظر هيلجارد (١٩٤٩) الى الذات بوصفها شيئا ضروريا لا يمكن الاستغناء عنه من اجل الوصول الى فهم كامل لميكانيزمات دفاع الانا التي قال بها فرويد . ولمعرفة هذه الميكانيزمات لابد من معرفة الصورة التي يرى فيها الفرد نفسه . فالذات عند هيلجارد هي صورة الانسان عن نفسه .

ولكن كيف يمكن تحديد هذه الصورة ومعرفتها ؟ اي كيف يمكن تحديد مفهوم الذات ؟ يرفض هيلجارد الطرق الاستبطانية لانها تنطوي على عوامل لاشعورية قد تشوه صورة الذات الواعية ، ويفضل استنتاج صورة الذات بطرق غير استبطانية ، كالطرق الاسقاطية والمقابلات الاكلينيكية .. وغيرها . ويدعو الصورة التي يتم الوصول اليها من خلال هذه الطرق « الذات المستنتجة » .

ويحاول هيلجارد تبيان السبب الذي ادى الى شيوع مفهومين عن الذات ، الذات كموضوع ، والذات كعملية . ويرى ان ذلك يعود الى نزوع الفرد الى رؤية نفسه كمنفذ لسلوكه الخاص ، بحيث يقوم بتنفيذ ما يرغب فيه ، والسلوك هو الشيء الذي تحدده الذات كليا . ويرى هيلجارد ان صورة الذات هذه ، غير دقيقة ، لان السلوك ليس نتاجا للذات ، بل هو نتاج لعمليات نفسية معقدة تثيرها مثيرات عديدة لا يدركها الفرد على نحو جيد ، لذلك يعتقد بعض علماء النفس خطا أن الذات هي العامل الفعال والمحدد للسلوك ، وبذلك يخلطون بين الذات الموضوع والذات الفاعل او العملية .

وكان الامر متروكا لسيموندس (١٩٥١) حتى يؤكد التباين الواضح بين الانا والذات . فهو يعرف الانا بأنها مجموعة من العمليات ، كالملاحظة والادراك والتفكير والتذكر ، وهي المسؤولة عن تطوير وتنفيذ خطة عمل للوصول الى حالة الاشباع أو الرضى ، استجابة للدوافع الداخلية ، وتشكل جانب الشخصية الذي يحدد عملية التكيف مع العالم الخارجي .

اما الذات ، فهي الجانب الذي يحدد الطرق والاساليب التي يستجيب الفرد بها لنفسه ، وذلك من خلال ملاحظته وادراكه وتقويمه لنفسه ،

وكذلك من خلال ما يعتقده في نفسه وفي كيفية تعزيزه لها ودفاعه عنها . فالذات تشير الى كافة العمليات الجسدية والفكرية ، كما يلاحظها ويدركها ويقومها الفرد ذاته .

وعلى الرغم من ان الانا والذات تشكلات جانبين متمايزين للشخصية، فان سيموندس يعتقد بوجود تفاعل كبير بينهما . فالفرد ينزع الى رؤية نفسه في صورة حسنة اذا كانت الانا فعالة من حيث مواجهة كافةالمطالب الداخلية والواقع الخارجي . واذا كان الفرد حسن الاعتقاد بنفسه أيضا ، فستنزع عمليات الانا لديه الى القيام بوظائفها على نحو فعال . بيد انه يجب في كل الاحوال ان تظهر فعالية الانا قبل شعور الفرد باحترامه لذاته او ثقته بنفسه .

الجوهر عند البورت

ان عدم التمييز الواضح والحاسم بين مفهومي الذات والانا ، وتعدد المعاني التي ينطوي عليها كل من هذين المفهومين ، قادا البورت (١٩٥٥) الى طرح السؤال الحاسم التالي : ما هي الذات ؟ وهل يعد مفهوم الذات ضروريا ؟ ولكي يتجنب البورت الغموض او الخلط الذي يكتنف مفهوم الانا والذات ، استنبط مفهوما جديدا ، دعاه « الجوهر » وقصد به كافة جوانب ومجالات النشاط الذي يمارسه الفرد في حياته ، والتي يعتبرها خاصة به على نحو اصيل ووثيق . ويتكون هذا الجوهر من سبعة جوانب هي :

١ ـ الاحساسات الجسدية المختلفة .

٢ ـ هوية الذات : اي الهوية الذاتية والاحساس باستمرار الوجود او الديمومة عبر الزمان .

٣ ـ تقدير الذات : اي النزعة الى حب الذات والعمل على تأكيدها .

٤ ـ امتداد الذات : اي النزعة الى التطابق مع الآخرين والاشياء .

٥ ـ العقلانية : اي التفكير المنطقي والتخطيط ومعرفة اصول التعامل .

٦ ـ تصور الذات : اي الصورة الذاتية التي يكونها الفرد عن نفسه ويرى ذاته من خلالها .

٧ ـ الكفاح الجوهري : اي السلوك المدفوع بهدف تعزيز الصورة الذاتية .

ان هذه الجوانب التي تكون « الجوهر » ، تميز اتجاهات الفرد واهدافه وتقويماته . والجوهر ليس فطريا او ولاديا ، بل ينمو مع تقدم الفرد من حيث السن ، ففي خلال السنوات الثلاث الاولى من حياة الطفل ، تنمو لديه الاحساسات الجسدية، وهوية الذات ، وتقدير الذات، اما الجوانب الاخرى ، كالعقلانية وتصور الذات والكفاح الجوهري ،فتنمو وتتطور في المراحل اللاحقة من العمر ، بحيث يحاول الطفل مع اقتراب فترة المراهقة التغلب على مشكلاته عن طريق المحاكمة والتفكير ، فيضع الاهداف ، ويقيم الفرضيات البعيدة المدى التي تتأكد في مرحلة المراهقة ، ولا يمتلك الفرد ذاتا متكاملة الا في منتصف العمر كحد ادنى ، ويتفق البورت في ذلك مع يونغ ، فالشخص الناضج ، هو الامتداد الصحيح والصادق لكافة مفاهيم الذات التي يحققها هذا الشخص ، لدى بلوغه مرحلة الرشـد .

لقد طمح البورت من خـلال تناوله للذات على هذا الشكل ، الى تحاشي الموقف الذي اتخذه بعض اصحاب النظريات ، والذي ادى بهم الى القول بأن الذات او الانا شبيهة بقزم صغير يقبع داخل الانسان ويقوم بتنظيم الشخصية وادارة نظامها .

وعلى الرغم من أن البورت يعترف بأهمية كافة الوظائف النفسية التي تنسب للذات وللانا ، الا انه يرغب صادقا في تجنب هذا النوع من النظريات ، ويرى ان استخدام مفهومي الذات والانا يهدف الى الدلالة على الوظائف الجوهرية للشخصية ، ولا يرى وجود مبرر لذلك ، لانه لا وجود للذات او الانا التي تعمل على نحو مستقل عن باقي جوانب الشخصية الاخرى .

عاطفة الذات عند كاتل ــ الذات البنيوية :

اعترف كاتل بمفهوم الذات ،واعتبره ركنا هاما من اركان الشخصية، وحاول ربط الذات بالبنيان المعقد لسمات الشخصية التي قال بها ، واكد على دورها الهام من حيث نمو وتنظيم السلوك الانساني . وقدم كاتل مفهوما متميزا عن الذات وعن عاطفة الذات بالاعتماد على مفاهيم الهي والانا والانا الاعلى الفرويدية ومتأثرا بعاطفة اعتبار الذات عند مكدوجال .

يميز كاتل بين ثلاثة انواع للذات ، الذات الواقعية ، والذات المثالية والذات البنيوية أو عاطفة الذات .

تشير الذات الواقعية الى مجموع ما يعتقده الشخص بأنه هو ، اي تشير الى ما هو عليه فعلا كما يقربه هو . اما الذات المثالية ، فتشير الى مجموع ما يحب الشخص أن يكون عليه ، أي تشير الى الصورة التي يرغب ان يكون على شاكلتها ، وكما يقربها هو ايضا ، انها تاليف بين رغباتــــه وواجباته معا ، ولها دور هام في الحياة الاجتماعية والشهرة الاجتماعية . وبذلك يتضح انه يمكن استنتاج الذات الواقعية والذات المثالية مـــن خلال التقارير الذاتية والطرق الاستبطانية .

اما الذات البنيوية ، او بتعبير ادق ، عاطفة الذات ، فهي من النوع الوصفي ، وتشير الى مفهوم نظري استخدمه كاتل بمثابة« بنية ديناميكية موحدة ،تمارس تأثيرا فعالا على السمات الديناميكية للشخصية في تفاعلها المعقد . وتشكل بعدا رابعا للشخصية الى جانب الهي والانا والانا الاعلى ، بحيث تعمل على توحيد الشخصية وتكاملها . وهذا يعني أن الـــذات البنيوية تشارك في اي عمل تقوم به اية سمة ديناميكية ، الامر الذي يسهل لهذه السمة عملية تعبيرها عن ذاتها واتساقها مع عاطفة الذات ، وان اي نوع من (استقلال) السمة عن الذات ، يمكن ان يؤدي الى نوع من السلوك المضطرب او الى بعض الحالات العصابية .

ويقر كاتل بأهمية أرتباط الادراك أو الانتباه الانتقائي بمفهـــوم الذات . فالذات هي التي تدفع الفرد الى الانتباه الى مجموعة مـــن

الموضوعات المعينة بحيث يستجيب لها بطريقة معينة . وهذا يعني أن مفهوم الذات عند كاتل ، ينطوي على مفهومين للذات ، الذات كموضوع، وتشير الى الموضوعات التي ينزع الفرد الى ادراكها والانتباه اليهـا ، والذات كعملية ، وتشير الى الطرق المعينة التي يستجيب الفرد مـن خلالها لهذه الموضوعات . وبذلك يتفق كاتل مع كل من جيمس والبورت ولكن في الوقت الذي اكد فيه جيمس على ديناميكية احترام الـذات ، واكد فيه البورت على وظيفة الكفاح الجوهرية للذات ، فان كاتـل قـد اكد على دورها الفعال والهام من حيث توحيد الشخصية وتكاملها .

اريكسون وتشكيل الهوية :

استمد اريكسون (١٩٦٥) جذور نظريته من التحليل وربطهـا باتجاهات اخرى هامة ، كالاتجاه الانثربولوجي والاتجـاه الاجتماعي . وتنعكس هذه الاتجاهات في كتاباته التي تناول فيها تكوين الهوية او نمو الشخصية ، فقد اكدلدى دراسته للظواهر النفسية المختلفةعلى الجوانب التاريخية والاجتماعية والثقافية التي ينمو فيها الفرد .

يرى اريكسون ان علم النفس المناسب ، هو العلم الذي يتنـاول سيكولوجية الانا ، فالانا ، كما يرى ادلر ، ليست الا الاسلوب المتميـز للفرد ، وتنطوي على كافة مظاهر طبيعته النفسية . ويقول اريكسـون في حديثه عن الهوية بالتمييز بين الذات كعملية ، وهي عامل منظم اساسي والذات كموضوع ، وتنمو نتيجة للخبرة . ويؤكد بان الذات لاتنمو الا ضمن سياق اجتماعي ثقافي ، فالثقافات المختلفة تنشىء هويات مختلفة تتلاءم مع هذه الثقافات ، بحيث تحمل كل هوية معنى بالنسبة للثقافة التي نشأت فيها . وتتكون الهوية نتيجة الدمج والتكامل التدريجيين لكافة انواع السلوك التي يمارسها الطفل في تطابقه وتوحده مع الآخرين، ونتيجة تقمصه لكافة الادوار التي تفرضها عليه ثقافته ، لهذا من الهام جدا أن يكون الطفل على علاقة ودية واتصال مستمر وحميم مع الراشدين الذي يزودونه بمثل هذه الادوار ، ويلعبون بالنسبة اليه دور المثل التي يتقمصها ويحتذي بها .

ويضع اريكسون ثماني مراحل لنمو الهوية هي :

١ ـ مرحلة الاحساس بالثقة : وتظهر في السنة الاولى من حياة الطفل ، وتعبر بشكل مختصر ومتميز عن كافة خبرات الطفل المبكرة التي تتسم بالرضى والاشباع .

٢ ـ مرحلة الاحساس بالاستقلال : وتظهر مع بدء السنة الثانية وتشير الى احساس الطفل بالاستقلال عن الاخرين على الرغم من ادراكه لحاجته اليهم وقدرته على استخدام مساعدتهم وتوجيههم .

٣ ـ مرحلة الاحساس بالمبادهة : وتظهر فيما بين السنة الرابعة والخامسة ، وتشير الى الفترة التي يرغب فيها الطفل في اكتشاف نوع الشخص التي يمكن ان يكون عليه ، وهي فترة تعلم نشيطة ينمو فيها الخيال ، بحيث يستطيع الطفل ادراك نواحي قصوره وامكاناته المستقبلية .

٤ ـ مرحلة الاحساس بالانجاز : وتظهر في بداية السنة السادسة وتستمر حوالي خمس سنوات ، اي حتى بداية المراهقة تقريبا ، وهي مرحلة الاحساس بالجد او التحصيل او الانجاز . وينصرف الطفل خلالها الى ممارسة الاعمال التي يستطيع اكمالها وانجازها .

٥ ـ مرحلة الاحساس بالهوية : وتبدأ مع بدء المراهقة ، حيث يضع الطفل كافة ما ايقن به سابقا موضع الشك والتساؤل ، وتلعب العوامل الثقافية دوراً هاما في هذه المرحلة ، من حيث النمو السوي للهوية . والمشكلة الرئيسية التي يعاني منها المراهق ، هي مشكلة الاحساس بالهوية وتحديدها ، اي معرفة من هــو وما دوره في المجتمع . وقد يواجه المراهق في هذه المرحلة خطر تشتت الذات ، بحيث يؤدي هذا الخطر ، في حال عدم تمكن المراهق من السيطرة عليه ، الى الجنوح او العصاب او الذهان . ويتوقف ذلك بشــكل رئيسي على خبراته السابقة ، لان الخبرات الناجحة تعزز شعور احترام الذات لديه ، كما تشجعه على ادراك المغزى الثقافي لسلوكه وهويته .

٦ ــ مرحلة الاحساس بالالفة : وتظهر في نهاية مرحلة المراهقة ، اذ يشعر المراهق بالود والالفة مع ذاته ومع الاخرين من الجنسين . وتلعب الثقافة هنا دورا هاماجدا من حيث تعزيزها او اعاقتها لهــذا الاحساس .

٧ ــ مرحلة الاحساس الوالدي : وتظهر في سن الرشد ، وتشير الى نزعة الفرد الى الرغبة في انجاب الاطفال ورعايتهم والقدرة علــى القيام باعباء المسؤولية الوالدية .

٨ ــ مرحلة الاحساس بالتكامل : وهي شعور الفرد بصحة نفسيــة سليمة ، حيث تغدو المثل العليا للثقافة التي يعيش فيها محــور تكامل شخصيته في هذه المرحلة .

وهكذا يبدو ان الهوية تتشكل عبر عملية من الملاحظة والتامل ، تحدث على كافة مستويات الوظائف العقلية ، بحيث يحكم الفرد مــن خلالها على نفسه ، في ضوء معايير الاخرين كما يدركها هو ، وفي ضــوء مقارنة نفسه بهم .

ان عملية تشكيل الذات هذه ، شبيهة بما جاء به كولي وميد عندما تحدثا عن فكرة « تعميم الاخر » على الذات اثناء تكونها . بيد انه ينتقد بعض المفاهيم الاخرى ، كتصور الذات ، واعتبار الذات ، وصورة الذات لانها توحي بنظرة جامدة لعملية نمو الذات ، فهــذه العمليــة في رأيه مستمرة ومتطورة ، فالهوية لاتنشأ اطلاقا على شكل « درع شخصي » ثابت وغير متغير ، ان تشكيل الذات ، كما هو الحال عند جولد شتاين وماسلو وروجرز بالنسبة لتحقيق الذات ، عملية مستمرة ومتقدمة من التمايز والتركيز ، وتعمل على توسيــع وعي الذات واكتشافهــا . فالوعي المفاجيء بعدم كفاءة الهوية القائمة لدى التقدم في الحياة ، يولد اضطرابا اوليا متبوعا بالعمل على اكتشاف هويات جديدة وطرق وجود جديدة . ويدعي اريكســون ان افضل معنى للهوية ، يشير الى احساس الفرد بالثقة والامن الداخليين ومعرفته الى اين هو ذاهب .

النظرية العضوية والدافع الى تحقيق الذات :

تشكل « النظرية العضوية » احدى المحاولات المتعددة التي يقوم بها علماء النفس من وقت لاخر : للجمع بين النفس والجسم معا، ودراسة الكائن ككل منتظم موحد . ويتبنى كل من جولد شتاين وانجيال وماسلو وجهات نظر متشابهة ضمن الاطار العام لهذه النظرية ، حيث يعتقدون أن الكائن العضوي يسلك دائما ككل واحد وليس كأجزاء متمايزة ، وأن العقل والجسم يشكلان كيانا واحدا وليس كيانين منفصلين . واهم السمات التي تميز هذه النظرية ، هي :

١ ــ ان الشخص « تنظيم » عضوي موحد ، اذ يعمل هذا التنظيم على تكامل وثبات ووحدة الشخصية السوية ، كما يشير الى الحالة الطبيعية للكائن العضوي الذي لايمكن ان يدرس على نحو مجزأ ، بل يجب تناول اي جزء فيه ضمن الكيان العضوي الكلي ، لان كل عضو فيه يؤثر في الكل ، ولان الكل يؤدي وظائفه طبقا لقوانين لايمكن استخلاصها من وظائف الاجزاء . وبذلك تتجاوز النظرية العضوية مشكلة افتراض « المنظم » الذي يعمل على ايجاد التكامل والوحدة بين الاجزاء لكي تغدو كلاً منظماً .

٢ ــ تفترض هذه النظرية أن سلوك الشخص مدفوع بدافع رئيسي واحد ، وليس بمجموعة من الدوافع ، وهو دافع تحقيق الذات ، أي الدافع لتحقيق كافة امكانات الفرد وقدراته الداخلية الاصيلة ، وان الدوافع المختلفة ، كدافع الجوع ، واقدام الذات ، والقوة ، والانجاز . . ليست الا مظاهر هدف اسمى ، هو تحقيق الذات .

يرى جولد شتاين أن تحقيق الذات هو الدافع الرئيسي والوحيد للفرد ، وان اي دافع اخر ، لايحتل مكانة هامة الا اذا كان شرطا ضروريا لتحقيق الذات لدى الكائن العضوي بمجمله . فتحقيق الذات ، هو الاتجاه الخلاق في الطبيعة الانسانية ،وهو المبدأ العضوي الذي يمكن الفرد من النمو على نحو اكثر تحققا وكمالا .

وعلى الرغم من ان عملية تحقيق الذات ، تعتبر ظاهرة عامة ، تشيع

بين جميع الافراد ، الا انها تختلف من فرد لاخر ، وتأخذ شكلا مختلفا لدى كل فرد ، وذلك بسبب وجود فروق بين الافراد من حيث امكاناتهم وقدراتهم الداخلية التي توجه طريقة نموهم ، ومن حيث نوعية الغايات التي يحاولون تحقيقها ، وكذلك من حيث البيئات والثقافات التي يجب ان يتكيفوا معها .

ويرى جولد شتاين انه يمكن تقدير امكانيات الفرد وقدراته من خلال ما يفضله من اعمال ، وما ينجزه على الشكل الافضل ، وهنا يفترض جولد شتاين وجود تطابق بين امكانيات الفرد وتفضيلاته ، وهو امـــر مشكوك فيه ، بيد انه يؤكد على الدافعية الشعورية ، ويعتبرها سائدة لدى الفرد الذي يحقق ذاته من خلال توافقه مع بيئته .

وعلى الرغم من تأكيد جولد شتاين على المحددات الداخلية للسلوك، فانه يعترف باهمية البيئة كمصدر للاضطراب يجب على الفــرد ان يواجهه ، وكمصدر للحاجات التي يستطيع من خلالها تحقيق هدفـــه لذا يجب على الشخص ان يتوافق مع بيئته لانها تزوده بالوسائل التي يحقق من خلالها ذاته ، وتنطوي في الوقت ذاته على العقبات التي تأخذ شكل ضغوط وتهديدات تعوق عملية تحقيق الذات .

فالشخص السوي ، هو الذي يستطيع ان يتغلب على الاضطـراب الناشىء عن التصادم مع العالم الخارجي بدافع داخلي لتحقيق الذات ، رغبة منه في الحصول على متعة النصر وليس بغرض تجنب القلــق ، فالتوافق مع البيئة ، يقوم اساسا على عملية السيطرة عليها او في قبول الصعوبات التي يفرضها العالم الواقعي والتكيف معهـــا . واذا كان التناقض كبيرا جدا بين اهداف الفرد وواقعه البيئي ، فعليه ان يخفض مستوى اهدافه لكي يستطيع تحقيق ذاته على هذا المستوى والا سينهار

ويتفق انجيال (١٩٤١) مع جولد شتاين من حيث ضرورة وجـود علم يحتوي في جوهره الشخص ككل ، ولا يقتصر فقط على الجوانـــب النفسية والاجتماعية او الفيزيولوجية ، بيد انه يرى ايضا استحالـــة المفاضلة او الفصل بين الكائن العضوي والبيئة التي ينمو فيها، لتداخلهما

بطريقة معقدة ، بحيث تؤدي اية محاولة للفصل بينهما الى هدم الوحدة الطبيعية للكل . ويدعو انجيال الكيان الكلي الذي يتضمن الشخص والبيئة معا بالمجال الحيوي ، لان الشخص والبيئة يشكلان وجهين لحقيقة واحدة ، ينطوي جانبها النفسي على الوظائف الرمزية للفرد ، كالادراك والتفكير والتخيل والتذكر ، بينما ينطوي جانبها الاجتماعي على تفاعلات الفرد مع المجتمع .

وبالرغم من عدم امكانية تجزئة المجال الحيوي ، الا انه قائم على بنى تتصل ببعضها ، بحيث يمكن التعرف على الخطوط الفاصلة بين هذه البنى ، والتي تحددها البنية الطبيعية للكل ذاته . وان الخطوط التي تفصل بين الكائن العضوي اي الذات ، وبين البيئة ، اي الموضوع هي اكثر الخطوط رسوخا ووضوحا ، فالكائن العضوي والبيئة يشكلان قطبي المجال الحيوي ، ويجب دراستهما معا للتعرف على حقائق هذا المجال .

وادرك انجيال ان في استطاعة الفرد تكوين العديد من الافكار حول نفسه ، لان اكثر عملياته تغدو شعورية ، لذلك افترض وجود ذات ومزية مكونة من المجموع الكلي لكافة المفاهيم التي يمتلكها حول ذاته . بيد ان انجيال ينبه الى ان الذات الرمزية ليست دليلا ثابتا وصادقا على الذات الواقعية للفرد ، لان مايعتقده الفرد حول ذاته ، نادرا مايشكل صورة صادقة عنه ، فاذا سلك الفرد طبقا لما تمليه عليه الذات الرمزية ، اي طبقا للمفاهيم التي كونها عن نفسه ، فقد يكون سلوكه غير ملائم لحاجاته الحقيقية او للاوضاع والمناسبات التي يواجهها .

وينسب انجيال للذات نزعتين اساسيتين ، النزعة الى تقرير الذات وهي اساس الاستقلال الذاتي ، والنزعة الى استسلام الذات ، وهي اساس الاندماج في البيئة ، والنزعتان ضروريتان من اجل النمو الكامل للفرد ، وتنشآن نتيجة التوترات القائمة بين قطبي المجال الحيوي ، اي بين الشخص والبيئة . ويرى انجيال ان ذلك يؤدي الى وجود نمطين للذات ، احدهما صحي ، وينمو من خلال الشعور بالثقة والاستقلال ،

والآخر : عصابي وينمو من خلال الشعور بالشك والضعف وعدم الثقة . وان هذين النمطين موجودان لدى كل فرد ، ولكن يسود احدهما عادة ، بناء على حقائق المجال الحيوي للفرد .

ويتحدث ماسلو (١٩٥٤) عن وجهة نظر يسميها بالكلية الدينامية ويعتبر نفسه على صلة وثيقة بالنظرية العضوية . وقاساهم مساهمة فعالة من خلال تاكيده على سيادة دافع الذات ضمن اطار نظرية الدافعية الانسانية . وادرك ماسلو انه يجب على علم النفس ان يعنى بالاصحاء من الناس وليس بالمرضى منهم كما يجب ان يتناول بالدراسة الجوانب الايجابية من حياتهم كالفضيلة والسيادة والحب والرضى ، وان لايقتصر على الجوانب التي تتمثل بالشقاء والصراع والخجل والعدوان ومشاعر الضعف والذنب . وقد اخذ ماسلو على عاتقه مسؤولية بيان الجانب المشرق من الانسان ، بحيث يقدم صورة كلية عنه .

يدعي ماسلو (١٩٦٧) ، متفقا بذلك مع جولد شتاين ، ان كل كائن بشري يملك ارادة فعالة ودافعا قويا للنمو السليم وتحقيق طاقاته وقدراته الكامنة ، ويرى ان الذات خيِّرة بطبيعتها ، وان البيئة هي مصدر الجهل والبؤس والسلوك العصابي ، وان القلق ناتج عن خوف الفرد من عدم قدرته على تحقيق انسانيته تحقيقا كاملا .

ووضع ماسلو نظرية في الدافعية الانسانية ، يرى فيها ان الحاجات المختلفة للفرد تتدرج في تنظيم هرمي بحسب اولويتها وتلح في طلب الاشباع . ويفترض ماسلو ان كل فرد يملك خمس حاجات اساسية مرتبة هرميا بحيث تبدأ بالحاجات الاكثر قوة ، وتنتهي بالحاجات الاقل قوة ، وذلك على النحو التالي :

١ ــ الحاجات الفيزيولوجية ، كالجوع والعطش .
٢ ــ حاجات الامن والطمأنينة .
٣ ــ حاجات الحب والانتماء .
٤ ــ الحاجة الى تقدير الذات .
٥ ــ الحاجة الى تحقيق الذات .

وقد قام ماسلو بدراسة متعمقة وشاملة لمجموعة من الشخصيات النادرة كبيتهوفن ولنكولن واينشتاين وروزفلت ، والتي استطاع اصحابها تحقيق ذواتهم على نحو ممتاز ، وذلك باستخدام المنهج الاكلينيكي لاكتشاف الخصائص التي تميزهم عن غيرهم من الناس العاديين ، ووجد ان هذه الشخصيات تتسم بالواقعية والتلقائية والاستقلال الذاتي وتقبل الذات والواقع وعدم التمركز حول الذات والمرونة والديمقراطية والابتكار والمرح ومقاومة الخضوع للثقافة .

ان الاسهام الاصيل لماسلو ضمن اطار النظرية العضوية هو اهتمامه بالاصحاء من الناس عوضا عن المرضى ، وادراكه بأن هذين النوعين من الافراد يولدان انواعا مختلفة من النظريات ، فجولد شتاين وانجيال تعاملا بحكم تخصصهما في العلاج والطب النفسي مع مجموعات من الافراد الذين يعانون من اضطرابات نفسية مختلفة ، وصاغ كل منهما نظرية تتضمن الكائن العضوي كله وتنطبق على المريض انطباقها على السليم . أما ماسلو ، ، فقد تناول بالدراسة الافراد الذين يتصفون بصحة نفسية سليمة ، حيث حققوا ذواتهم على النحو الافضل ، وغدوا النماذج التي تتجسد من خلالها النظرية العضوية .

الحياة وقدرتها الابداعية

بقلم : ي . و . سينوت
ترجمة : عبدالكريم ناصيف

المستويات الاعلى للابداع لدى الانسان :

يتكشف الانسان عن سوية سلوكية ارفع بكثير من ان يستطيع اي حيوان آخر بلوغها . فذاكرته اكثر اتساعا وشمولا . ومن خلال ذاكرته هذه وكذلك من خلال ابتكار الكلام والكتابة اصبح بامكانه ان يستفيد من تراكم خبرات الماضي . وهكذا فان معظم اهدافه الآن لا تتحقق بالعمل الجسدي بقدر ما تتحقق بالعمل الذهني ، كما ان تحصيل المعرفة بات في الوقت الحاضر احد اهدافه الكبرى . انه يتعلم ، من خلال البحث عن العلاقات بين الحقائق ، كيف يتعرف على القوانين الشاملة وكيف يربط الجزئيات بها ، وبذلك يكتسب المقدرة على المحاكمة العقلية ويغدو بامكانه ان يبرهن على ان سقراط ، لكونه انسانا ، لا بد ان يكون فانيا ، نظرا لان كل انسان فان وبذلك يتوصل الى التعامل مع المجردات .

اذن ، محيطه الداخلي اغنى بكثير من محيط اي حيوان آخر ، ومع تطور المجتمع فقد غدا محيطه الخارجي اكثر تعقيدا ايضا . وقد عملت جميع هذه التباينات ، وكذلك الاختلافات البيئوية الابسط على الصعيد الجنيني والغريزي ، على تعديل اهداف نظامه ونهجه المعيشي . لذا فان هناك ما يبرر التفسير القائل بأن الحياة الذهنية ، على غناها وتعقيدها ، ماهي الا السعي لتحقيق مختلف الاهداف المتبادلة وفق نمط منظم . كما أن الوعي المتعلق غالبا بالعقل ومفاهيمه،هو بحد ذاته مشكلة رغم انه لايعنينا هنا على ما اعتقد . أما الهدف المحدد عن عمد ووعي وكذلك الرغبة والتفكير فكلها عبارة عن اختيار ذاتي لاهداف سلوكية تحدد ضمن النهج الحياتي الذي نحاول ان تتطابق اعمالنا معه باستمرار .

التخيل :

بيد ان هناك عنصرا هاما ينبغي اضافته لمفهوم العقل البشري هذا ، خصوصا ونحن نتأمل القدرة الابداعية لهذا العقل . ان تعددية اهداف الانسان السلوكية وكذلك التعقيد المتزايد لانماطه النفسية تجعل حياته الذهنية غنية ، مع العلم بأنه يكتسب شيئا آخر خلال مسيرته وتقدمه . الا أن اكتساب القدرة على تكديس الخبرات وعلى المحاكمة المنطقية لم يكن كافيا لجعل الانسان انسانا بحق ، بل كان لا بد من توفر صفة أخرى له ــ **هي التخيل** ، تلك **الموهبة العظيمة** . ولعل هذه الصفة هي اكثر صفات الانسان تميزا لانها هي التي تجعل قدرته على الابداع ممكنة ، وهنا نتوصل اخيرا الى نقطة اكثر قربا من موضوع دراستنا هذه .

فتحقيق الانسان لاهدافه ، وارضاؤه للرغبات التي تنشأ في داخله ، نتيجة التفاعل بين قدراته الوراثية الواسعة وتعقيدات بيئته المتزايدة ، ليس بالتفسير الكافي لتعليل التسارع الهائل في مسيرة الانسان وتقدمه منذ ان اصبح انسانا ، اذ غالبا ما توقفت مسيرة التقدم البشري لافتقارها الى شيء ضروري وجوهري من أجل تطويرها ودفعها اكثر نحو الامام . ثم

عاجلا او آجلا ، خطرت فكرة جديدة في ذهن احد الناس ، وفرت هذا العنصر الضروري الجوهري . بهذا الشكل ، عرف الانسان ولا بد ، استعمال النار ، والاتصال عن طريق الرموز الكتابية . واختراع العجلة ، والقوس والنشاب ، وتأهيل الحيوانات واشياء كثيرة اخرى ، لم تظهر جميعها بصورة فجائية ولا شك ، بل كانت بالتأكيد نواتج عقول كثيرة ، الا انها جميعا كانت اكتشافات جديدة لم تظهر الا عندما وجد الشخص الذي كان بوسعه ان يتخيل موقفا لم يعرفه احد من قبل ، وان يتصور في ذهنه شيئا لم يشاهده احد قط .

عملية الابداع :

اخيرا نصل الى لب مسالة الابداع ، وهو كيفية نشوء هذه الافكار الجديدة وما هو اصلها .

لقد اولى علماء النفس ودارسو عملية الابداع الآخرون ، هذه المسألة الكثير من تفكيرهم وبحثهم وعلى مايبدو فان هناك طريقتين متبعتين ، اولاهما استنتاجية اساسا ـ اي الابداع عن طريق الهجوم الجبهي المباشر ـ وتتكون من تجميع اكبر عدد ممكن من الحقائق والافكار ومن ثم البحث بكل عناية ودقة عن علاقات غير معروفة حتى ذلك الحين تربط بينها . وهذه ؛ على ما يبدو ، هي الطريقة التي كان يستخدمها اديسون ، مثلا ، اثناء القيام باختراعاته ، واينشتاين اثناء تطويره لنظرياته . غير انه يمكننا التأكد ان هذه الطريقة ليست الطريقة الوحيدة التي تجري وفقا لها ، بصورة عامة ، المراحل الاولى ، على الاقل ، في الابداع ، سواء في ميدان العلوم او ميدان الفنون .

فالامر الاكثر شيوعا هو ان تنشأ فكرة جديدة بصورة تلقائية تقريبا في الذهن ، وغالبا ما تبدو وكأنها انبثقت من العدم وفي وقت قد يكون فيه فكر المرء منصرفا الى شيء آخر مغاير تماما . والمثل الشهير عن هذه الحالة هو احد التجليات الشهيرة في الرياضيات الذي لمع في ذهن هنري بوانكاري (١٩٢٤) .

فقد ظل اياما عديدة منشغلا بمسألة الدالات ، دون ان يتوصل الى نتيجة . وفي احدى الليالي ، وبعد ان شرب قهوة وبات غير قادر على النوم ، تواردت أفكار في ذهنه ، كما يقول ، على شكل حشود محتشدة تتصادم

احيانا وتتشابك احيانا اخرى ، لتؤلف اخيرا تركيبات ثابتة معينة اكتشف منها وجود الدالات الفوشينية ، وبعد فترة وجيزة ، وبينما كان يقوم برحلة جيولوجية خالي الذهن من اية افكار عن الرياضيات ، خطرت له فكرة ، وهو يضع قدمه على سلم الباص . هي ان التحويلات التي استخدمها تماثل تلك المستخدمة في الهندسة غير الاقليدية ، فكان ذلك تجليا عظيما . وغالبا ما يذكر مثال شهير آخر عن التوصل الى حل مشكلة علمية دون جهد مركز واع الا وهو برهان اوتو لووي عن الوسيط الكيماوي للسيالة العصبية . فقد ظهر له هذا بكل وضوح في منام لكنه حين استيقظ لم يستطع تذكر تفاصيله . انما لحسن الحظ عاد الحلم في الليلة التالية مرة ثانية ، وهذه المرة ، وقبل ان يعود للنوم ثانية ، سجله كاملا ، وفي اليوم التالي اجرى في المختبر تجربة حاسمة اثبت فيها صحة الحل الذي رآه في المنام .

كذلك قرأ عشاق هاوسمان (١٩٣٣) مقالة له بعنوان « اسم الشعر وطبيعته » يصور فيها كيف تخطر له اشعاره اكثر الاحيان :

« بينما امشي ، وانا لا افكر بشيء محدد ، بل اتطلع فقط بالاشياء التي حولي ، متتبعا مسيرة الفصول ، هناك قد يخطر في بالي ، وبدفعة من الانفعال المفاجيء ، بيت او بيتان من الشعر ، واحيانا مقطع باكمله مباشرة . تصحبه ، ولا تسبقه ، فكرة غامضة عن القصيدة التي يفترض ان يشكل هذا البيت او المقطع جزءا منها . بعدئذ يحدث ، عادة ، نوع من الهداة التي تمتد ساعة او حوالي الساعة ، ثم يبدأ الينبوع بالتدفق ثانية » .

ان كثيرا من الشعراء يمرون بتجارب كهذه . وقد روى روبرت فروست لاحد اصدقائي تجربة من تجاربه في هذا المجال . ففي احدى الامسيات الشتائية فتح الشاعر باب بيته الخارجي وراح يتمشى في ظلمة الليل المثلج ليستنشق الهواء ، وفي تلك اللحظة خطرت لـه كامل قصيدته الحلوة « التوقف بجانب الغابات في امسية مثلجة » . وقد استمر في ذهنه النمط الغريب لتواتر قوافيها منتقلا الى ابياتها الشعرية التي راح يدونها ، حتى اضطر ، لكي ينهي القصيدة ، الى ان يقطع التواتر برباعية ختامية .

وقد وصفت حالات كثيرة كهذه في كتاب جيزلين (١٩٥٢) « العملية الابداعية » ، وكذلك في كتاب هتشينسون (١٩٤٩) « كيف تفكر ابداعيا » وفي امكنة اخرى ايضا . على ان هذا النوع من الابداع ليس بالشائع ، وان يكن ، بالتأكيد ، ليس بالنادر . فهو موجود لدى كل أصناف الرجال والنساء الذين تواجههم حاجة ماسة — واحيانا رغبة شديدة اكالة — لان يكسبوا رؤية جديدة للحقيقة او الجمال ، او يحلوا مسألة علمية ، او يخرجوا للوجود لوحة من اصبغة وزيت وقماش ، او يدونوا قصيدة في كلمات .

غير ان ما هو معروف حسنا ، ان الهامات كهذه نادرا ما تأتي الا اذا كان المرء قد اغرق ذهنه في الموضوع . كذلك لابد ان تتوفر له خلفية غنية من المعرفة والخبرة في مجاله . ففي ميدان العلوم ، ينبغي أن يشتغل المرء بجد ودأب كي يجد جواب مسألة ، او يصوغ مجموعة من الحقائق غير المترابطة ظاهريا على شكل واحد في ذهنه ، وفي مجال الفنون ، عليه ان يحلم ويطيل التفكر بلوحة او قطعة موسيقية يشعر انها هناك لكن يصعب اخراجها الى حيز الوجود ، وفي ميدان الشعر ، يسيطر على الشاعر نوع من الاستغراق الشديد بشيء جميل ، انما غامض يحاول متلهفا ان يعبر عنه . انه يجاهد كي ينقل الى الواقع الفعلي تلك التصورات الغامضة نصف المتشكلة التي ينتجها خياله . وغالبا مايحدث ان يدون ملاحظات او خطوطا عامة او نتفا موسيقية او بيوتا متفرقة من قصيدة او نصف قصة ، ثم يخطو باتجاه اتمام موضوعه غير المترابط . بعدئذ ، وفي لحظة استرخاء او حين يكون ذهنه مشغولا بشيء آخر انشغالا تاما ، فان الجواب الذي يبحث عنه ، او لبه الخلاق على الاقل ، يمشي الهوينا الى ذهنه وكأنما جاء بصورة عفوية .

وكما رأينا ، فقد يظهر ، احيانا ، الجواب الكامل لمسألة علمية بهذه الطريقة ، او الخطوط العامة لقصة كاملة ، او قطعة اساسية من القصيدة، لكن الامر الاكثر شيوعا هو ان الالهام الاولي لا يشكل الا المنطلق ثم لا بد ان تتبعه ساعات او ايام طويلة من العمل والجهد في تنقيح واعادة تنظيم واكمال لمعات البصيرة الاصلية ، انما دون هذه اللمعات ، قد يكون من المستحيل البدء بالعملية الابداعية .

اللاشعور :

والآن قد نتساءل ، ما هي العلاقة التي تربط بين عمليات البحث ــ عن ــ الهدف ، المنظمة ، المنتظمة التي بحثنا فيها عن منشأ الفكر وأصله وبين هذه النشاطات الابداعية التي تعتبر هبة خاصة بالانسان ؟ من الواضح ان خيالا مبدعا كهذا ينشط بصورة خاصة على الصعيد اللاشعوري للذهن . فهنا يتم انجاز العمل الذهني . وهنا ، تماما دون اية مشاركة من الوعي ، تجري الاختبارات وتنطبق الافكار مع بعضها بعضا على شكل نماذج وانماط . لكن حتى الآن ليس لدى علم النفس الا القليل مما يمكن ان يخبرنا به عما يحدث هنا . فالذهن يمتلىء ، في الاحلام وحالات نصف ــ الاحلام ، بحشد من الصور والخيالات ، ومن المفترض ان اللاشعور بكامله تحتله أشياء كهذه مصدرها الذاكرة وخبرات الماضي ، وربما ايضا مجريات الحياة المباشرة ذاتها . وهنا ، كما ينبغي ان نتذكر ، يقع المكان الذي تختلط فيه المادة والحياة والفكر اختلاطا لا يمكن التفريق بين عناصره . ومن هنا ايضا تخرج الميول الطبيعية ونزعات المادة الحية الى حيز التعبير . بل الاكثر من ذلك كله ، حسب اعتقادي ، ان القوة المنظمة للحياة تصوغ ، هنا ، خيالات الفكر اللاشعوري الهائمة ، على شكل انماط نظامية . وهنا ايضا وليس في اي مكان آخر يتم خلق النماذج والانماط الجديدة .

على ان هذا كله يبدو غامضا ومهما نوعا ما ، وهو يمس ميدانا لا احد يعرف بصورة مؤكدة اي شيء عنه . لكن مع ذلك ليس كله مجرد تخمين وظن . فالعمليات الابداعية التي في اللاشعور قد لاتكون مغايرة لتلك التي تتم في ساحة الشعور والعقل الواعي . ذلك ان العالم ، حين تواجهه مسألة من المسائل ، يجمع كافة الحقائق التي يجد ان بامكانه الاعتماد عليها . بعدئذ تتبدى له كثير من العلاقات بينها غير ذات معنى ولذلك يخرجها من حسابه ، بينما تتبدى اهمية ومغزى علاقات اخرى ، واخيرا ، يستطيع ، بالتنظيم واعادة ترتيب الحقائق ، ان يشيد نمطا متجانسا من الافكار وان يصوغ في النهاية نظريته . ويعتقد كثير من علماء

النفس ان شيئا مماثلا لهذا تقريبا يجري في اللاشعور عندما يكون الفرد مستغرقا في التفكير بمسألة من المسائل ، ساعيا لحلها في ذهنه ، فالعقل الباطن يرفض ، من بين الحشد الهائل من الصور والافكار المختلطة العشوائية ، بعض التركيبات ويلقيها جانبا باعتبارها غير هامة او غير مواتية ، بينما يدرك اهمية وفحوى التركيبات الاخرى ويتبناها . وبوساطته يتم هنا تمييز النظام — الفكري ، الجمالي ، وربما النظام الروحي من الفوضى والعشوائية . وبذلك فان العقل الباطن يتمكن من حل مسألة من المسائل ومن وضع اساس بناء القصيدة او العمل الفني على الاقل مبتدئا بذلك الابداعات الجديدة . صحيح ان هذه الابداعات قد تكون نتاج العقل الواعي ، وغالبا ماتكون كذلك ، من خلال الجهد الخالص للعمل الذهني ، غير ان السبب الذي يجعل هجوما جبهيا كهذا يفشل احيانا ، هو ان التداعي الحر ، الماثل في اللاشعور ، يعاق بطرق عديدة ولذلك فان العلاقات الجديدة الابداعية فعلا تنغلق على الفهم ويغدو من المتعذر رؤيتها .

من هنا لابد للمرء ان يميز العمل الذي يقوم به عامل التنظيم هذا في العقل الباطن ، لان الابداع لايجري بمحض المصدفة ابدا . فكما ياخذ الكائن العضوي المادة المختلطة عديمة الشكل كي يخرجها على شكل جهاز منسق ذي بنية ووظيفة محددة في الجسم ، كذلك فان العقل الباطن ، على مايبدو ، ينتقي ويرتب ويربط بين هذه الافكار والصور وفق نمط معين . ان التشابه بين العمليتين جد وثيق ، والفكرة الجديرة بالاعتبار هي ان القوة المنظمة للحياة ، ماثلة في العقل مثلما هي ماثلة في الجسم — لان من المستحيل الفصل بين الاثنين — هي عنصر الابداع الحقيقي . وبناء على ذلك فان الابداع يغدو صفة من صفات الحياة .

وكون العقل يمتلك فعلا قوة منظمة كهذه ، امر توصلت اليه استنتاجات علم النفس الكلي . لكن ليس بوسعي هنا ولايمكنني انا اناقش هذا الامر ، كما ان مقالتنا هذه ليست المكان المناسب لذلك ، انما يبدو واضحا ان الذهن ، او اي شيء يمكن ان يكون مترابطا معه ماديا ، حين

يواجه مجموعة من البواعث غير المترابطة والآتية اليه من حواس الجسم يمكنه ان ينظمها ، والى حد كبير دون ان يبذل اي جهد واع ، على شكل انماط او كليات . ذلك ان العقل يتصف بصفة خاصة به فعلا هي **التكون التشكلي** . فالنماذج التي يصنعها هي عبارة عن اشياء جديدة وليست صورا متكررة عن شيء ما في الماضي . لهذا ينبغي الا تغيب عن البال هذه القدرة الابداعية الخاصة لدى اي تأمل لمسألة الابداع بصورة عامة .

لكن لكي يبني العقل الباطن شيئا جديدا بهذه الطريقة لابد له من حافز ، او هدف ينبغي تحقيقه . وعلى مايبدو فاننا في ميدان القدرة الابداعية الغريبة هذه، تواجهنا اهداف من نوع اقل محسوسية عن كثير من الاهداف التي بحثناها من قبل — فهي ليست بحثا عن طعام او قرين او تسلية او استمتاع بمسرات لعبة ، او ماهو اكثر رقيا حتى ، كالاصغاء الى سمفونية مثلا ، بل انها بحث عن شيء مايزال غير مترابط وغير متشكل يبتغي ، ان اردنا القول بصراحة ، ان يحقق التعبير عن ذاته ، والبشير الدائم بالابداع اللاشعوري هو رغبة شديدة يحسها المرء بشيء ما — حل مسألة او انشاء عمل فني في الوقت الذي لاتوجد في الذهن عنه الا لمحات او خطوط عامة غائمة فقط ، وهذا البحث المشوق غالبا ماترافقه صراعات روحية تترك الباحث منهكا مستنفذ القوى ، لكنه حين يتوقف عن البحث ، تبقى رغبته المتشوقة لذلك كامنة في المستويات الدنيا من عقله الباطن وغالبا ماتصل الى هدفها هناك . اننا في حالات كهذه لانشاهد ، على مايبدو ، عملية مبدأ قائم بل نشهد عملية خلقه الفعلي . فالجهاز الحي هنا يمارس قدرته على تحقيق تكامل النموذج واخراجه منظما ، من اشياء لاشكل لها ولاصورة ، وهو الانجاز الذي قد يعجز الفكر العقلاني عن فعله ، لكونه يبتعد بشكل من الاشكال عن منبعه الحي الاولي وينشد الى العادات والتقاليد .

لكن اذا كان عمل الابداع الباطني ضخما وواضحا الا انه نادر نسبيا ، ومن الصعب ان نرسم خطا يفصل بين عملية كهذه وبين عمليات اخرى اكثر شيوعا هي نتاج العقل الواعي يمكن ان نسميها اعمال **الخيال المبدع**،

فهنا قد يكون للعقل الباطن دور ايضا ، الا ان العملية تجري على ساحة الوعي ، حيث يتحقق ابداع معظم الاعمال الفنية ، بحالتها النهائية على الاقل ، وكذلك حل معظم المسائل العلمية ، وهي سمة العبقرية ، لكن ، بالمقابل ، كيف يمكن ان نميز بين العمليات البناءة للخيال المبدع وبين تشكل ــ الصورة الذي يعتبر ذا دور هام في الحياة الذهنية كلها بدءا من الطفولة وحتى الشيخوخة ؟

هذا النوع البسيط من التخيل هو على مايبدو احدى سمات الانسان التي يتميز بها وحده . والواقع انه شيء ضروري له اذا كانت المحاكمة العقلية ستثمر ، لان معظم عمليات المحاكمة العقلية تتطلب افتراضات ان لم تتطلب اكثر ، وهذه هي الاعمال البناءة للخيال .

بيد ان العملية التخيلية لم تات الى الوجود فجاة ولاريب ، بل لعلها نشأت حين بدأ الانسان يفكر بامكانية تحقيق هدف بدلا من آخر . ولعل الخيال قد ولد حين ادرك الانسان لاول مرة مغزى فكرة اذا . لكن يبدو ، على اية حال ، ان تطوره سار جنبا الى جنب مع تطور العقلانية . ويمكننا الاتفاق على ان من المحتمل ان تكون هذه الاشكال الاولية من التخيل خلاقة مبدعة لكنها بالحقيقة ليست غالبا كذلك ، الا انها ، مع ذلك ، تفضي في المستويات العليا من فكر الانسان ، الى مايبدو انها العملية الابداعية فعلا .

الخاتمـــة :

اذن ، ما الذي يمكننا ان نعتبره الاساس البيولوجي للابداع ؟ حسب اعتقادي ، هذا هو ببساطة : **الحياة** ذاتها هي المسؤولة عن الابداع ، وهي السيرورة الخلاقة ، وذلك بفضل خاصتها المنظمة ، المشكلة للانماط ، والباحثة المنقبة ، وهي الخاصة الاكثر تميزا من خواصها جميعا ، فالحياة في الكائنات الحية الادنى من الانسان وكذلك في بنيته الجسدية ، مقيدة بقاعدة مادية جامدة نسبيا ومحافظة في مجال التركيب الوراثي للفرد ، وهذا امر ضروري اذا كان ينبغي على عالم الكائنات الا

يختلط وتصيبه الفوضى . لكن حين تطبق هذه الخاصة التنظيمية ذاتها على السلوك ، تكون نواتجها اكثر تنوعا بكثير ، وحين تعمل في مجال الدماغ الانساني ، ببلايينه الكثيرة من الخلايا العصبية والعدد الذي لايحصى تقريبا من نقاط الاشتباك فيه وكذلك بكل تعقيداته البالغة، فان احتمالات الانماط الذهنية الجديدة لديه تكون غير محدودة تقريبا ، وقد وصف جيرارد (١٩٤٦) هذا الوضع وصفا جيدا في مقالته « الاساس البيولوجي للخيال » اذ قال :

« بفضل آليات متنوعة كثيرا ، تعمل ، اذن ، اعداد كبيرة من الخلايا العصبية - والدماغ كوحدة كبرى - بصورة مشتركة معا . اذ لاتجمع خليتان او بليون خلية مساهمتها المنفصلة وحسب ، بل تشكل كل منها جزءا من نمط نشاط ديناميكي متغير يقوم به الكل . وهذه هي الاوركسترا التي تعزف افكار الحقيقة والجمال والتي تبدع الخيال .. وياله من اساس جميل لصنع كليات جديدة او اعادة تركيب المادة الحسية بأشكال جديدة ! »

اذن ، هذا هو الميدان الذي يعمل فيه الخيال المبدع ، سواء كان في العقل الباطن او غير الباطن . ويمكننا القول ان الخيال هو ، بكل بساطة، الخاصة التكوينية الاساسية للحياة ، وانه ينشأ اصلا ، في المستوى الاعلى هذا من قاعدة مادية صلبة ، ثم يتحرر كي يعبر عن ذاته بالابداع الرفيع . وقد تتخذ المادة الخاصة بهذه التعبيرات وهذه النماذج والانماط الجديدة ، اشكالا عديدة - اصبغة على قماش اللوحات ، نوتات موسيقية ، كلمات، او مجرد افكار فقط - الا ان الابداع يمكن ان يظهر في علاقات الناس وشؤونهم وعلى ما اعتقد ، ينبغي ان يوجد المنبع الاساسي للابداع في هذه القدرة الإبداعية المتأصلة في الحياة .

هذه هي فرضيتي ، لكن قد لايقبل البعض الاقتراحات التي قدمتها هنا فهي بيولوجيا غير صحيحة قدمت هنا ، وقد ينظر كثير من علماء البيولوجيا بشيء من عدم الرضى للاستنتاج الذي توصلت اليه فيما

يتعلق بحقيقة التنظيم ، رغم صحتها ، في مجال الغاية وبالتالي في مجال العقل . ومن المحتمل ، نتيجة لذلك ، ان يعتبروا ان اية محاولة لرؤية بذرة الابداع فيها ، نوع من العبث . ولسوف ينتقد علمــاء النفس ، ولاسيما من كان منهم من الصنف المتحجر العقل ، الحجة التي قدمتها واصما اياها بالسذاجة وبأنها لاتقدم لنا الا القليل لكي نتفهم القــدرة الابداعية البناءة . لكن لايسعني الا ان اشعر بأن جذور المسائل المختلفة التي نوقشت هنا سوف تكتشف اخيرا لدى تفهم طبيعة الحياة . ورغم أن علماء الحياة ، شأنهم شأن كل العلماء الجيدين والمحافظين ، يترددون في الانغماس بالتخمينات والافتراضات التي تقف على حافة الميتافيزيك ، نظرا لان كلا التخمين والميتافيزيك عبارة عن مصطلح لايتمتع بكثير مــن الاحترام في الدوائر العلمية هذه الايام ، الا ان مسألة كمسألة الابــداع هذه هي ذات علاقة وثيقة بالحياة الى درجة ان دارسي علم الحياة ، سواء شاؤوا ام ابوا ، سيضطرون اكثر واكثر لان يحاولوا تقديم بعض المساهمة لايجاد حلها ، اذا كان عليهم فقط ان يقرروا المسائل بصيغة اكثر دقــة . وليست هذه المقالة الا خطوة تجريبية على هذا الطريق .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق يا بسمة الحزن

تأليف : ألفة الادلبي

■ ■ ■

من المساعدة الى عودة الاستعمار

تأليف : تيبور ماند

ترجمة : منير زيدان

■ ■ ■

عصر التنوير

تأليف : ايسايا برلين

ترجمة : فؤاد شعبان

مراجعة : ناظم الطحان

رؤية مستقبلية للدراسات الانسانية

فائز المدرس

من الظواهر البارزة في المجتمعات التي دخلت مرحلة النمو الاقتصادي ، التضاؤل المستمر لدور العلوم الانسانية ، في عملية النمو هذه ، والارتكاز بشكل اساسي ووحيد على معطيات العلوم التكنولوجية وتطبيقاتها ، بغاية خلق الكادر الفني المؤهل لعملية حمل عبء مرحلة التنمية الاقتصادية .

وهذا امر لا غبار عليه بوجه من وجوه الاعتبار . حيث ان تطاول عصور الاستعمار لهذه المجتمعات ، قد خلق جهلا مخيفا في عمقه ومداه ، واورث عقدة نقص مستعصية الحل ، ما لم تاخذ المجتمعات اياها باساليب العصرنة ومواكبة التطور التكنولوجي .. ولهذا فقد اعتبر ان طريق الخلاص من ارث الجهل المسيطر لا يكون الا بتسريع وتائر التطور لخريجي الكليات العلمية والمعاهد العملية والمدارس التطبيقية .

كما اسلفت ، لا غبار على ذلك من احدى وجوه الاعتبار، لكن ما يؤخذ على هذا الاتجاه ، هو النظرة الاحادية الجانب والتي ترى في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها مسلكا وحيدا ومفردا لا يؤدي سواه الى عصرنة المجتمع وتطوره ومواكبة اصول الحضارات العلمية الحديثة .

وفي الوقت نفسه ينكر هذا الاتجاه اي دور او اهمية للعلوم الانسانية ــ في شتى مجالاتها ــ في عملية البناء الاقتصادي للمجتمعات الحديثة التي ابتنت لنفسها مواضيعها المحددة الواضحة والمميزة ، واستنتجت قوانينها العلمية ، وثبتت مناهجها وطرق بحثها ، في حين ان العلوم الانسانية ، ما زالت تتعثر في ايجاد هذه القوانين ، وابتناء طرقها ومناهجها . وهي تدرج تجاوزا في اطار العلوم العامة التي لا تقبل عادة بين افراد عائلتها الا تلك العلوم التي تتميز بالحقائق الثابتة والمطلقة ــ نسبيا ــ والقابلة للقياس والتجربة ولهذا فانه من الترف الفكري والعبث اللفظي أن تدرج العلوم الانسانية في خطط التعليم في جميع مراحله ، لدى البحث والدراسة لخطط تنمية مجتمع من المجتمعات النامية او المتخلفة .

تتضح بجلاء خطورة التيار الذي يمثله هذا الاتجاه المتعصب لفكرة القدرة المطلقة والوحيدة ، لدور العلوم التكنولوجية في البناء الحضاري . وتكمن الخطورة في العمل على واد نمو واتساع دور العلوم الانسانية في المشاركة في بناء الحضارة الانسانية ، ذلك الدور الذي ادركت أهميته كل المجتمعات المتطورة ــ قديمها وحديثها ــ وافسحت له المجال رحبا امام بحوثه ودراساته ، بغية الاستفادة منه في خدمة التقدم الانساني وتعميق الفهم العلمي للانسان الذي هو وسيلة وغاية هذا التقدم في آن معا .

ليس المسعى في بحثي هذا ان أضخم دور العلوم الانسانية على حساب دور العلوم الطبيعية وانكار اهميتها وقيمتها في التقدم الانساني ، انما القصد من وراء ذلك هو التاكيد على وجود هذا الدور الهام ، وضرورة العمل من اجل تعميقه وشموله لكل المجالات الحياتية بحيث تتوجه الانظار

شطرها ، للاخذ بيد العاملين فيها ولاجلها ، واتاحة الامكانات اللازمة لاسهام هؤلاء العاملين في رفد مجرى التقدم والتطور الانسانيين .

ولسنا هنا — كذلك — في مجال الدفاع عن وجود دور للعلوم الانسانية في تيار الحضارة المعاصرة ، فقد اكدت هـذه العلوم بجـلاء واستمرار وما زالت تؤكد في وقتنا الحاضر الدور الفعال في كل الدراسات والابحاث والنتائج التي توصلت اليها المعاهد المختلفة ودور الابحاث والتحليل في المجتمعات الاشتراكية او الراسمالية على السـواء ، رغم اختلاف غاية الابحاث والتحليل لكل منهما ، وتناقض طرق الاستفادة منها .

واذا ما استقصينا ههنا عن واقع الدراسات الانسـانية في مجتمعنا فما هي الصورة التي تبدو عليها ، وما هي الحال التي يقفها رجال الاختصاص بهـا ؟

وكيما يستوفي البحث غرضه ، انوه ، بان نطاق الدراسات الانسانيـة المقصودة بالبحث ، هـو الذي يشمل بالتحديد الدراسات الفلسفيـة والاجتماعية فقط ، دون التعرض لباقي العلوم الانسانية الاخرى ، والتي لن تكون مدارا للبحث هذا . ولسوف احاول استيفاء الغرض من خلال الخطوتين التاليتين :

اولا — تحليل الواقع الدراسي الجامعي للكلية المتخصصة في هذا المجال .
ثانيا — البحث في انموذج معـين — فقط — من الدراسات الانسانيـة لتوضيح ابعاد هذه الدراسات ومراميها ومجالات عملها .

وبعد ذلك يصبح من الضرورة أن نخلص الى رؤية اجمالية شاملة ، تؤطر بمنهجيـة السبـل الكفيلة بتلافي الاهمال الذي يعتري هذه الدراسات والخطى الواجب اتخاذها لتقويم مسـارها .

اولا ــ الدراسة الجامعية

يعتبر قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية التابع لكلية الآداب في جامعة دمشــق ، المركز الاكاديمي الوحيد في القطر لتخريج الطلبة الاخصائيين في هذه الدراسات ، او هكذا ــ بالحري ــ اريد له ان يكون . وتشمل الدراسة في هذا القسم ، والموزعة على اربع سنوات دراسية ، العلوم والدراسات الانسانية التالية :

١ ــ التجربة والحدوس الفلسفية .
٢ ــ المذاهب الاخلاقية الكبرى .
٣ ــ علم الاجتماع وعلم السكان .
٤ ــ علم النفس التطبيقي والنظري .
٥ ــ علم الجمال ودراسات نقدية .
٦ ــ المنطق (صوري ــ رياضي) .
٧ ــ الفلسفة العامة (قديمة ــ حديثة ــ معاصرة ــ اسلامية) .
٨ ــ فلسفة العلوم وفلسفة القيم .
٩ ــ التصوف الديني .

اذا علمنا ان كل مادة من المواد السالفة ، تعتبر مقررا ، يشمل عددا من التفرعات الاضيق والمنبثقة عن الاصل ، والتي تستند في دراستها الى مجموعة من المراجع العامة والخاصة ، ادركنا مدى الاتساع والشمول في المواد الدراسية لهذا القسم .

ان مناهج ضخمة بهذا القدر من العمومية لا يمكن لاي طالب جامعي ان يستوعبها ويلم بها بشكلٍ يتيح له الاستفادة الكاملة منها ، ما لم يكن هناك تكثيف وضغط في المناهج العامة ، وتعمق وتبحر في المقررات ، والا اضحت دراسة هذه المناهج لا تعدو كونها ثقافة عامــة ، تمر مرور الكرام على مجمل الابحاث دون فهم صحيح او ادراك واعٍ لمراميها وموضوعاتها .

فاذا اضفنا لما سبق ، الاعداد الهائلة من طلاب الدراسات ، والقلة النادرة لاساتذة القسم ، اتضح معنا بجلاء اي نوع من خريجي هــذه الدراسة ينضاف كل عام الى مجموعة خريجي الدراسات النظرية في القطر .

ان عمومية المعلومــات والدراسات التي يتلقنها طالب قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق ، تورثه تسطحا في التفكير وهشاشة في المحتوى ، لا تؤهلانه لاي مستوى مقبول للبحث والتعمق في أي من الدراسات التي قراها خلال سنواته الجامعية الاربع .

ولهذا ، ونتيجة للكيفية التي يتخرج عليها طالب قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق ، اخــذت قيمة الدراسات الفلسفية في قطرنا تضمحل شيئا فشيئا ، حتى غدت اجازة التخرج منها ، شهادة وظيفية في احسن احوالها ، سرعان ما يفقد حاملها بعد مدة وجيزة صلته بما درسه وتعلمه ، لعدم اعتماد اي من الميادين الوظيفية لدينا على ابحاث العلوم الانسانية ، اللهم الا اذا التحق الخريج بوزارة التربية لتدريس بعض هذه العلوم ، وحينئذ يصبح الخطب اشد ، والشر ادهى : وفق آلية التعليم وحرفية النص وابهام المواد ونمطية الحفظ ، وليس بمستبعد بعد هذا ان يتضاءل باستمرار دور العلوم الانسانيــة في عملية النمو العام للمجتمع .

من الصحيح بمكان ان لا تكون الجامعة هي المسؤولة الاولى والاخيرة عن هذه الوضعية التي آل اليها خريج قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية اذ ان جزءا منها تتحمله سياسة الاستيعاب الكلي لحملة الثانوية ، بحالتها الراهنة ، والتي كان يجب ان تأخذ بعين الاعتبار الامكانيات الفعليــة للكليات النظرية ، والكادر التربوي العامل ضمنها . الا ان الجامعة مع ذلك تتحمل النصيب الاوفر في ضرورة تهيئة طلاب هذا القسم ، ووضع اقدامهم على طريق البحث والتخصص العلمي الدقيق لمجال محدد من العلوم الانسانية .

ولا يتأتى لها ذلك ما لم توزع مناهج هذه العلوم والدراسات على كليات مختصة ، اسوة بأكثر جامعات العالم . أو تجعل من السنة الجامعية

الاخيرة ـ كحل مؤقت ـ في الكلية عام تخصص عملي في فرع من فروع العلوم الانسانية ، يتوقف تخرج الطالب منها على المشاركة في بحث من البحوث الاجتماعية التي تطرحها قطاعات الدولة المختلفة ، او المؤسسات الاجتماعية المتنوعة .

وفي هذا ربط للمؤسسة الجامعية بالمشاكل والاحتياجات الاجتماعية المطروحة على بساط البحث والتساؤل .

وفي كل ما سبق يجدر بنا الا نأخذ بعض الالماعات الفردية التي تطفر بين حين وآخر بشكل استثنائي ، لتبرز وجها له وحده الفضل في تبوؤ مركز مرموق في مجال هـذه العلوم وهي لندرتها تكاد لا تشكل قاعـدة يمكن الركون اليها .

ثانيا : نماذج بحث من علم النفس

تنعدم في قطرنا ـ بشكل ملموس ـ الدراسات الانسانية المتعلقة بالبحث عن اشكال السلوك الانساني ودوافعه ، او المتغيرات الاجتماعية واسبابها وما شابه ذلك من انواع البحث والدراسة المرتبطة بالعلاقات الانسانية واشكالها ومسبباتها .

وليست الدراسات الاحصائية الموجودة حاليا الا خلاصات مكثفـة ومبتسرة للمتغيرات المورفولوجيةاو الانماط الاستهلاكية للسكان ،لاتدخل ضمن ارقامها الاسباب الانسانية الكامنة وراء هذه المتغيـرات او تلـك الانماط الاستهلاكية ، لكونها دراسات تعنى بالارقام المطلقة للتغير او الاستهلاك ، وفق خطوط بيانية ترصد معدلات النمو او الانخفاض . وبين بعد هذه الدراسات عن اغراض الدراسات الانسانية التي اصبحت قادرة على التنبؤ وبشكل علمي اقرب الى الدقة بالكثير الكثير من الاتجاهات السلوكية او الاجتماعية التي يمكن ان تحدث في المجتمع وعلى سبيل المثال ـ لم يعد بمقدور علم النفس،بفروعه المتعددة والمتنوعة ان يقدم دلائل علمية موثوقة ، ترشد القائمين على الادارة والتوجيه الى انجح السبل لتحسين الانتاج الزراعي او الصناعي ، او افضل الوسائل لتسيير المؤسسات

الانتاجية او حتى خلق عادات اجتماعية جديدة ، ورأي عام متماسك . وهذا من خلال سبر الاتجاهات النفسية للفرد والتي لم تعد تكهنات احتمالية يكتنفها الغموض والتخمين ، بل باتت ترضخ لشروط الدراسة العلمية المستعصية لادق الانفعالات السلوكية التي تنعكس عن الدوافع الشعورية او اللاشعورية التي توجه الفرد الانساني .

وبالتاكيد لايعني هذا ان علم النفس يسور التصرف والفعل الانساني بسور من الحتمية الجامدة التي تحصر الحركة الانسانية ضمن مسارب الفعل الآلي الذي رسم مساره وحدد اتجاهه مسبقا بجبرية لامحيد عنها وانما يعني ان علم النفس ـ بما هو علم ـ اصبح قادرا على رصد الاتجاهات الاساسية للفعل الانساني ضمن خط عام حددته الطبيعة الانسانية للكائن البشري وبطبيعة الحال ـ كذلك ـ ليس من بغية علم النفس ان يعمل على ايجاد نموذج بشري موحد في المجتمع ، له رد فعل واحد على مثير واحد ، فهذا ما لايتاتى له وان حاول ذلك . غير ان الكشف والاستقصاء عن مدى الفعل الانساني بات قابلا للمعرفة والقنونة في مداه الاشمل والاوسع والاعم ، دون تحديد لجزئيات الفعل الفردية فبمكنة علم النفس ان يحدد بدقة علمية سلوك الجماعات الغاضبة في مظاهرة احتجاج عامة ـ مثلا ـ مع رصد اصحاب الميول العدوانية والمدمرة الذين يمكن ان يقوموا بافعال انتقامية ، لكنه لايحدد الجمل والكلمات التي ينطقها زيد او عمرو من الناس ابان غضبهما .

وكذا حال علم النفس عندما يدرس التغيرات المورفولوجية ضمن نطاق المجتمع الواحد استنادا الى العلاقات الاجتماعية القائمة بين السكان من زواج وطلاق ووفيات او ولادات وظروف معيشية مختلفة .

عديدة ومتشعبة جدا ميادين علم النفس التي يمكن لها ان تسهم إسهاما جبارا في دراسة مجمل العلاقات الانسانية والاجتماعية ، وتقدم الفهم والمعرفة لكل اشكال السلوك الانساني . ومع ذلك فاننا نفتقر الى مثل هذه الدراسات عن مجتمعنا .

ولايمكن ان تكون نتائج مثل هذه الدراسات في مجتمعات اخرى ، كافية لنا – فيما اذا اردنا الاستفادة منها – لان التشكل الاجتماعي والنفسي لمجتمعنا يختلف عن تشكل المجتمعات الاخرى ، رغم وحدة التاريخ الانساني في خطوطه العامة .

فسلوك شعب ما ، ليس وليد ذاته ، ولا وليد عوامل وراثية فحسب انما هناك العديد والكثير من الاثار البيئية المؤثرة في تشكيل مظاهر هذا السلوك ، ولكل شعب سلوكياته الخاصة الناجمة عن التركيب النفسي لذاك الشعب ، والناتجة عن العوامل التاريخية والطبيعية للشعب اياه ، فاين نحن من معرفة تركيبنا النفسي الذي يقف وراء سلوكنا العام والخاص وكيف لنا ان نفسر بنية مجتمعنا النفسية اهي بنية دينية ؟ أم هي بنية طبيعية ؟ أم هي غير هاتين من البنى ؟

لماذا يتسم مجتمعنا العربي بسمات خاصة ينفرد بها دون غيره من المجتمعات ؟

ما الذي كان يدفع العربي الى الايثار دون الاثرة ؟ وماهي دوافع الكرم والحمية والشهامة العربية ؟

هل صحيح ما ادعاه بعض المستشرقين من ان الفكر العربي ، فكر غيبي وقاصر عن التفلسف ؟ واذا كان صحيحا فلماذا ؟

آلاف الاسئلة المتعددة والمختلفة تحتاج الى تفسير ومعرفة وترتبط ارتباطا عضويا بتاريخية التشكل النفسي لشعبنا .

ان امكانات علم النفس وميادينه ، تشكل جزءا فقط من امكانات وميادين باقي العلوم الانسانية الاخرى ، والتي يمكن لكل منها ان تتضافر جهودها مع غيرها من العلوم ، لتعميق الفهم وتوسيع المعرفة لانواع واشكال الحياة الانسانية .

* * *

مالم تتوطد وبكثير من العزم ابحاث العلوم الانسانية لدينا ، فان نقصا كبيرا لاساس الواقع الانساني يبقى مكبلا معرفتنا العلمية الآخذة بالازدياد. وما لم يرفد هذه الابحاث اولو الفكر والثقافة الانسانية ، فستبقى ساحتنا الفكرية تشكو العوز والنقص في مجال سبقنا اليه الكثيرون شرقا وغربا ، فافادوا واستفادوا من نتائج استقصاآتهم وابحاثهم بالاحاطة بالسلوك والدوافع الانسانية .

ان الامر لايخلو من بعض الشذرات المتفرقة التي تنشر بين الحين والاخر ، تحاول التفسير او التحليل لبعض الظواهر النفسية التي تطفو على سطح حياتنا العامة وتحاول ان تستند في تفسيرها هذا على بعض آراء ونظريات مدارس علم النفس ، او علم الاجتماع او سواهما من مدارس العلوم الانسانية المختلفة ، لكن تلك المحاولات ، مازال يعتورها الكثير من النقص لتصبح فرضية علمية قابلة للتجريب ومن ثم القنونة ، اذ انها تستند الى جهد فردي متواضع ليس بمكنته — ماديا وميدانيا — أن يستكمل النواقص اللازمة للاحاطة بالبحث .

ان ابحاث العلوم الانسانية ، اوسع من ان تشملها جهد فردي متحمس ، لان استقصاآتها تشمل كافة فئات المجتمع ، وبتعمق قد يصل الى ادق خصوصيات الحياة الفردية ، وهذا ما لاتستطيعه امكانيات فرد واحد مهما أوتي من الجهد والقدرة والمثابرة .

لكل ماسبق ، ولكي تتمكن العلوم الانسانية من ان تأخذ دورها المطلوب منها الى جانب العلوم الطبيعية الاخرى ، فلا بد ان يتاح لابحاثها ما أتيح لابحاث العلوم الطبيعية من رعاية واهتمام وتطوير تبذله الدولة من اجلها وذلك ضمن اقتراحات محددة ادرجها فيما يلي ، علها تجد الى المناقشة سبيلا ، وهي لاتعدو كونها مشروع رؤية مستقبلية كما عنونت البحث هذا ؛ قد تسعفه المناقشة والمحاورة بالتطوير والتعديل .

أولا : انشاء « المؤسسة الوطنية لابحاث الدراسات الانسانيه » على غرار معهد البحوث العلمية التابع لرئاسة الجمهورية . وتحدد مهمته في :

آ ـ القيام بكل الابحاث الانسانية المرتبطة بالفاعليات الذهنية والنفسية والسلوكية للمواطن وتهيئة الجداول البيانية والدراسات الاحصائية عنها.

ب ـ الدراسة والبحث لجذور التركيب النفسي للمجتمع من خلال تاريخيه هذه الجذور وارتباطها بالاصول السالفة للمجتمع العربي.

ج ـ سبر الاتجاهات والاراء العامة للمواطنين من خلال دراسة العينات السكانية،لاهم القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للوطن وللامة.

د ـ تشجيع وحماية ورعاية الابحاث الفلسفية والنفسية والاجتماعية للمؤهلين علميا وتربويا في هذه الميادين.

هـ ـ استقصاء وبرمجة كل ما من شأنه ان يجعل من الفعاليات الذهنية والسلوكية لافراد المجتمع منسجمة مع افاق التطور الحضاري للانسانية.

ثانيا : تطوير وتحديث التعليم الجامعي للدراسات الانسانية وفق الاسس التالية :

آ ـ تفريع قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في جامعة دمشق الى :

١ ـ كلية الفلسفة العامة .
٢ ـ كلية علم النفس النظري والتطبيقي .
٣ ـ كلية علم الاجتماع .
٤ ـ كلية اصول التربية .

ب ـ اعتماد اسلوب حلقات البحث في الدراسة الجامعية الى جانب الدراسات النظرية ويكون ذلك باعتماد التالي :

١ ـ تقسيم طلاب الدراسات الى مجموعات بحث صغيرة ، يشرف على كل منها استاذ مختص، تعمل وفق توجيهه واشرافه.

٢ ـ انشاء المخابر اللازمة لتجارب علم النفس التطبيقي .

٣ ـ تنسيق البحث والعمل بين كليات الجامعة للدراسات الانسانية ومؤسسات الدولة الاخرى المعنية بهذه البحوث والدراسات وفق خطة العمل التي تقترحها المؤسسة الوطنية لابحاث الدراسات الانسانية .

ج ـ قصر سياسة الاستيعاب على الامكانيات الفعلية لكليات الدراسات الانسانية وعلى عدد من الطلبة الاكثر كفاءة واهلية لمثل هذه الدراسات .

كما اسلفت ، فان مجمل الخطوات السابقة ، انما هي تتدرج ضمن اطار مشروع رؤية فحسب ، لا ادعي كمالها واحاطتها وشمولها لكافة جوانب الدراسات الانسانية ، لكنها تشكل ـ على الاقل ـ معالم بحث يمكن للمتحاورين حوله ، ايجاد الصيغة الاكثر كمالا والاعم احاطة وشمولا بهذه الدراسات ، للوصول بها الى الغاية المرجوة منها لتأهيل وتكوين جيل الباحثين الذين يحملون مهمة العمل من اجل اسهام الدراسات الانسانية في ترشيد الحياة لكل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وليس بخاف على المطلعين دور هذه الدراسات في المجتمعات الاوربية او الاميركية ، وماتلعبه من اهمية بالغة الخطورة في حياة السياسيين ورجال الاعمال ، بما تقدمه من الاحصائيات العامة والخاصة ، عن اتجاهات الراي العام ، او بما تسخره من وسائل الاعلام لخلق مثل تلك الاتجاهات ، معتمدة على الوجه السلبي ، القبيح لعدد من اخصائيي هذه الدراسات الذين يسخرون ابحاثهم لخدمة اغراض اصحاب رؤوس اموال الاحتكارات والكارتلات الامبريالية .

وعلى النقيض من هذا الدور تنصب اهتمامات باحثي الدراسات الانسانية في الدول الاشتراكية على اكتشاف افضل الاساليب لقيام علائق انسانية رفيعة المستوى بين افراد المجتمع بشتى فئاتهم ووضع منجزات هذه الابحاث في خدمة الصحة النفسية للفرد ومن اجل حياة اكثر تلاؤما باضطراد مع الواقع العملي للحياة وللطبيعة .

ان الابحاث الانسانية ، مثلها ، كمثل الابحاث العلمية الطبيعية يمكن استخدام انجازاتها في سبيل خير ومنفعة الانسانية ، او ضد ذلك الخير وتلك المنفعة وعندما تكون الغالبية العظمى من فئات الشعب هي صاحبة المصلحه الحقيقية في عملية البناء الاجتماعي ، فلابد من ان تكون الدراسات الانسانية مسخرة لخدمة اهداف البناء الاجتماعي للفرد الانساني .

يتضح بيقين من ان دور الدراسات الانسانية لايقتصر على تفسير الانسان فحسب ، وانما يتعدى ذلك التفسير الى التغيير ، لان مهمة العلم ــ كل عام ــ ليست في تحليل الظواهر الى اسبابها ، والوقوف عندها فقط ، وانما لابد من تجاوز مرحلة العلم الى مرحلة العمل بالاستفادة من المعارف المستخلصة ووضعها في خدمة التغيير الانساني الشامل ، والتطور الصاعد نحو مدارج الكمال الانساني .

وليس اكثر قدرة من العلوم الانسانية ، على بناء العقل وتطوير فعاليته وتمكين قدراته بما تتيحه من رؤية شمولية نفاذة ، تدرك كنه الجوهر وحدود الظهور ، وتحرك الدوافع العاملة والكامنة من اجل البحث المتواصل عن الحقيقة لكل الوجود . تلك الحقيقة المتوخاة من اجل العلم والعمل .

لقد اتضح بنتيجة دراسة قريبة قام بها معهد بحوث الماني غربي ، ان افراد المنظمات الثورية المتطرفة العاملة من اجل اسقاط سلطة الاحتكارات الراسمالية ، هم جميعا اما طلبة او خريجو معاهد وكليات العلوم الانسانية في بلادهم .

وفي هذا مايبين بجلاء الدور البارز الذي تلعبه هذه الدراسات في تهيئة الاجيال القادرة على وعي مصائر اوطانها وحاجات مجتمعاتها .

واذا كانت اساليب هذه المنظمات لاتتفق والوعي الثوري الذي ينبذ اساليب الفوضوية الثورية والتي تسبب « مرض الطفوله اليساري » على

حد تعبير « لينين » ، فان حزبا ثوريا وايديولوجيا قادر بالتأكيد على احتواء هذه القدرات وتنظيمها ، وتهيئة الكادر النضالي المتمرس والواعي لمهمات التغيير الثوري واساليب العمل من اجله .

ان اقتصار دور الدراسات الانسانية في قطرنا ـ على تلقين « الف باء» هذه الدراسات لطلبة قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، لايمكنه ان يلبي الحاجة الملحة والعاجلة لمجتمعنا للابحاث المتعمقة والمختصة والبرمجة العمليةللدراسات المؤدية الى فهم اوسع واشمل للفردالانساني.

ومالم تتعاضد الجهود الفكرية والمادية في رسم مسار هذه الدراسات وبناء قاعدة العمل اللازمة من اجلها ، فستبقى صورة الفرد الانساني بتراء وشوهاء ، تتلمس طريقها عبر متاهات الظن والشك والتخمين التي تقوم على ظلام اللا ادرية .

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

نقـد النمـو

تاليف : غونار جراول

ترجمة : عيسى عصفور

■ ■ ■

صانعو اوروبا الحديثة

تاليف : ب . م . هولت

ترجمة : موفق شقير

■ ■ ■

من التحدي الى الحـوار

القسم الاول

نادي روما

ترجمة : عيسى عصفور

التربية
فن صناعة الانسان والمستقبل

عيد معمر

١ ـ التربية وتحديات العصر :

اذا كان التعليم هو الطريق السليم للتقدم والتطور فانه لا يصنع في فراغ بعيدا عن كل التاثيرات بل يتاثر باهداف المجتمع الذي يتحمل مسؤولية توجيه التعليم نحو اهدافه ويتاثر كذلك باتجاهات العصر السائدة .

ففي العصور السابقة كان التطور يحدث ببطء شديد ويتم على مهل اما في عصرنا الحاضر فان التغيير يحدث بسرعة مذهلة لذا فان نظم التربيـة والتعليم واساليبهما اصبحت غير ملائمة لاتجاهات العصر الجديد وليس معنى هذا ان نلقي بها بعيدا بل يعني ان نحركها ونحسن فيها ما امكن لذلك سبيلا .

ان العصر يواجـه التربيـة بتحديات ضخمـة

ومسؤوليات كبيرة سواء في العالم المتقدم أو في العالم النامي وخاصة انه عصر يموج بالمتغيرات وتحدث فيه تطورات كبيرة وعظيمة . وهذه التحديات تظهر بتغير اهداف التربية من جهة وبالتقدم العلمي والتكنولوجي من جهة ثانية وما يتبع ذلك من مؤثرات .

اما بالنسبة لتغير الاهداف فيمكننا القول ان النظر الى التربية واهدافها قد تغير تغيرا كليا . فلم تعد التربية اعدادا للحياة ونقلا للتراث وتزويدا للطلاب بالمعلومات والمعارف والخبرات بل اصبح ينظر اليها على انها الحياة بكاملها ، واعادة بناء الانسان بناء جديدا ينسجم مع روح العصر .

ولكن كيف يمكن للتربية ان تحقق مثل هذا الهدف في عصر متغير سريع الحركة مليء بالمفاجآت يحملها الينا التقدم العلمي والتقني الهائل . وهي التي تتطور بسرعة السلحفاة ؟

نقول انه يمكن للتربية ان تحقق هذا اذا نظرنا اليها على انها عملية مستمرة تلازم الانسان طوال عمره وليس خلال فترة قصيرة وهذا يعني ان ننظر اليها على انها بعد من ابعاد الحياة الانسانية . وان يستمر الفرد في تعليم نفسه مدى الحياة . ومما جاء في مقترحات منظمة اليونسكو الدولية لعام ١٩٧٢ لتطوير التعليم — في هذا الصدد — ان تكون التربية المستديمة هي المفهوم الامثل للسياسات التعليمية خلال السنوات المقبلة سواء في الدول النامية او المتقدمة ولن تقاس الحصيلة بحجم المعرفة التي تزود بها الافراد بل بعدد الافراد الذين تم لهم تحقيق ذاتهم الانسانية وبالتالي فان هدف التربية هو الانسان وتمكينه من تحقيق ذاته بصورة متكاملة — او بالنسبة للتقدم العلمي والتكنولوجي وما رافقه من ثورة في كل مجالات الحياة وجوانبها المختلفة فيجب التاكيد منذ البداية اننا

نعيش في عصر العلم وسيادة التكنولوجيا وهذا معناه سيادة النظرة العلمية الى جميع المشاكل التي يواجهها الانسان والمجتمع .

وفي هذا الصراع والتحدي يواجه مجتمعنا العربي مشكلة مزدوجة فهو من ناحية مازال خاضعا للتخلف ومشكلاته التي ورثها من الماضي القريب والبعيد ولم يستطع الانعتاق منها والتحرر من قيودها كمشكلة الامية التي تقف عائقا في وجه التقدم . والكثير من المشاكل التعليميــة لاسيما انخفاض مستوى التعليم وضعف مردوده العلمي والتربوي والكثير من المشكلات الاجتماعية ومن جهة اخرى لابد لمجتمعنا ان ياخذ بأسباب العلم والتقدم التكنولوجي حتى يستطيع مواجهة تحديات الواقع المثلة بالتخلف والتجزئة والاستعمار والذي تأخذ مواجهته شكلا عدوانيا حادا وتشكل خطرا على كيان الامة . كما وان بناء المجتمع العلمي ضمن نطاق العصر يقتضي خلق المناخ العلمي والعمل على تطوير حياة المجتمع ومفاهيمه واساليب تفكيره بما يلائم روح العصر وسيادة العلم .

ولما كانت التربية تلعب الدور الاول في عملية التكوين والبناء هــذه فانها تتحمل مسؤولية كبرى وتواجه تحديا صعبا في اعادة تشكيل الحياة وهذا ما يعطي للعنصر الانساني فيها واعني به المعلم دورا كبيرا رغم ان الثورة التكنولوجية قد ادخلت الآلة في كثير من الاعمال واصبحت تقوم حتى بالاعمال الذهنية والتربوية وتنافس الانسان حتى ان الكثير بات يتساءل ماذا بقي للانسان أن يعمله . مع هذا فقد بقي للانسان الشيء الكثير ليعمله وهو المسؤول عن الآلة والتخطيط لهــا وادخال الآلة في مجال التربية لم يقلل من دور العنصر البشري بل زاد من مسؤولياته . ونتيجة لاستخدام العلم في كل شيء فقد اصبحت العلوم النفسية والتربوية مجالا للبحث والتجريب والاختبار بدلا من التأمل والتفسير وادى هذا

الى تفسيرات هامة لعملية التعليم والتربية مما يساعد التربية على تحقيق اهدافها بسرعة .

واخيرا نتساءل هل تتطور التربية في مجتمعنا وتأخذ بالاساليب الحديثة حتى تكون على مستوى التحدي العصري وتستطيع الوقوف في وجهه وتوصلنا الى غايتنا المرجوة في بناء الانسان العربي القادر على تحقيق النصر على التجزئة والتخلف والاستعمار وبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

٢

التربية والمفتاح السحري للتطور

ان قضايا التعليم تطرح نفسها اليوم في ظروف جديدة تقتضي اعادة النظر وبذل الكثير من الجهد الخلاق لمعالجة هذه القضايا . ففي السنوات الاخيرة تسارعت عجلة التطور بصورة لا مثيل لها من قبل وسلطان الانسان على الطبيعة قد تضاعف خلال عشرين عاما اكثر مما تضاعف على مدى القرون العشرين الماضية وقد تم هذا التطور السريع والضخم نتيجة عدد من الاكتشافات العلمية والتقنية الكبرى . لهذا فان التطور السريع يطرح مشكلة التعليم طرحا حادا وعنيفا .

واذا كان مجموع المعلومات والمعارف قد تزايدت خلال الفترة الاخيرة فليس بكاف ان نضيف فصلا جديدا عن الكتب المدرسية لاعطاء صورة ولمحة عن المعارف الجديدة . بل ان التربية نفسها اصبحت بحاجة الى ان يعاد فيها النظر .

والدعوة الى مراجعة امور التعليم ومناقشتها دعوة مفتوحة في كل زمان ومكان وتشتد الحاجة الى ذلك وتصبح اكثر وضوحا أثناء الثورات

وعمليات التحويل الاجتماعي وذلك لاهمية التربية وخطرها في تكوين الافراد والتأثير على مستقبل الجماعات والامم . وهذا ما ادركته الثورة في قطرنا منذ ايامها الاولى اذ جاء في المنهاج المرحلي لثورة الثامن من آذار في القطر العربي السوري والذي اقره المؤتمر القطر الاستثنائي لحزب البعث العربي الاشتراكي المنعقد في حزيران ١٩٦٥ مايلي :

ــ وبعد تقييم واقع التربية والتعليم في بلادنا ترى الثورة انه لابد من قلب أسس النظام التربوي الموجود حاليا والقائم على ترجيح الدراسة النظرية المجردة وعلى اسس من التفرقة الوطنية وتكريس افكار المجتمع القــديم .

فالتعليم اصبح جزءا من حياة الناس اليومية والقومية يتأثر وينفعل بها وينصب على الانسان وعلى مستقبله لان التعليم بطبيعته مستقبلي يرتبـط بالحياة بعلاقـات عضويـة متشابكة وهـو متصـل ومستمر ومتغير لان حياة الناس نفسها تتصف بهذه الصفات التي يكتسبها التعليم لارتباطه بالانسان والحياة . وتجديد التعليم عملية معقدة وصعبة تعني فيما تعني تحسين نظام التعليم والارتقاء به ، ولايعني التجديد أن نأتي بجديد كلية بل يكفي أن يكون هناك تحريك نحو الافضل والاحسن . لكن يجب الانتباه عند اعادة النظر في قضية التعليم ان ناخذ في عين الاعتبـار حاجة المجتمع الذي يحتاج الى عدد كبير من العمال واليدويين واقل من ذلك عمالا ذهنيين وموظفين . ومما جاء في النشرة الدورية لمكتب التنظيم والاعداد الحزبي رقم ٤ ــ في التربية والتحويل الاشتراكي :

وهذا الوضع يتطلب من التربية أن تواكب سير التطورات الاجتماعية وتؤمن حاجات المعامـل والبنوك وسائر المؤسسـات المؤممـة من الكادر المخلص المؤمن بالتحويل الاشتراكي والعامل ليل نهار لانجاح العمـل في المؤسسات الاشتراكية وزيادة الانتاج وتحسين نوعيته » .

لذا يجب أن يكون التعليم الفني هو الاصل عامة وان المدرسةالشاملة

التي تهتم بالتعليم الفني والعام هي مدرسة المستقبل وقد تبنتها كثير من دول العالم .

وهذا يقودنا الى القول أن التجديد المقصود يعني ثورة شاملة في التربية والتعليم . فرغم التوسع الافقي والراسي الذي أصاب تعليمنـا فمازال هذا التعليم يفصل بين الطالب وواقعه ولا يقيم الجسـور بين المدرسة والحياة ولابعد الطالب لها والنتيجة مزيداً من تدني مستوى التعليم وتزايد الضغط على الجامعات ولاسيما الكليات النظرية والتزام الدولة بتوفير العمل لخريجين لا تحتاج اليهم وعجز المدارس الفنية عن تلبية حاجات المجتمع المتمثلة بالوفاء بالتزامات الصناعة وتطوير الزراعة وبالتالي عجز التعليم عن تلبية متطلبات التنمية التي يجب أن تخطو خطوات واسعة وسريعة وهكذا يكون التجديد في التعليم مطلبا ملحا تفرضه اعتبارات اساسية . فالتعليم في عصرنا يحتل الصدارة على عكس العصور السابقة . وأصبحت التربية قادرة على قيادة التغيير والتطوير وتسـبق التنمية الاقتصادية بل وذات أولوية وارجحية في تطوير الاقتصاد نفسه.

فاذا كانت التنمية الاقتصادية تهدف لانتاج حاجات اولية وضرورية وتحقيق الرخاء للانسان فالانسان هو الذي يصنـع هـذه التنمية . والتربية هي التي تساهم في اعداد وتكوين هذا الانسان القادر على الابداع وبجاوز الواقع . وهكذا بات التعليم عملية منتجة وليس عملية مستهلكة واختلفت النظرة اليه فبدلا من أن تكون التربية تابعة للاقتصاد أصبحت قائدة لـه .

أما بالنسبة لقطرنا فرغم السنوات التي مرت والجهود التي تبذل وبذلت فان ما أصابه لم يكن اكثر من توسع كمي ولم يتجاوز بعض تعديلات بالمنهاج . ومازالت مدارسنا ــ رغم الحياة من حولها ــ تخرج طلابا يرغبون بالوظائف الحكومية ويأنفون العمل لاسيما العمل اليدوي وكأننا مازلنـا نعيش عصر الجاهلية حيث كان اجدادنا يحتقرون العمل اليدوي ولايرغبون فيه ويتركونه للعبيد والاجانب . فهل يتمكن المربون والمسؤولون عن التربية

من تغيير واقع التربية هذا لتكون قادرة على تلبيـة حاجات المجتمع وما يقتضيه التطور فنحن نعيش اليوم عصر الثورة العلمية والثورة الصناعية الثانيـة .

٣

التربية والتطور والعصر

في أواخر القرن العشرين لم يعد من شك ان التعليم أصبح ضرورة انسانية وحيوية بل من أكثر الحاجات ضرورة للانسان كالطعام والشراب والملبس والمسكن لان العلم يزيد من قدرة الانسان على حل مشاكله وينمي امكاناته في السيطرة على الطبيعة وهو علاج ناجع للكثير من مواطن الضعف، ومكامن النقص في عقلية المواطن ونفسيته والتعليم اليوم عنصر أساسي وسبب رئيسي من أسباب قوة المجتمع واطلاق قواه الانتاجية ويترتب على أسلوبه ومضمونه وأهدافه أعمق الآثار في بنية المجتمع وتطوره سياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا . وفي عصرنا أصبح التعليم صناعة استراتيجية منتجة ولم يعد مرفقا استهلاكيا ففي المدرسة يتقرر مستقبل الوطن . ولهذا كان الربط بين التنمية والتعليم لخلق قاعدة اقتصادية ــ والتي هي الركيزة في البناء القومي الاشتراكي ــ كما ان السياسة التربوية المتبعة لها الدور الاكبر في تشكيل الاتجاهات الفكرية في المجتمع .

ومن قدرة الانسان المتعلم على بناء وتطوير الوطن كانت أهميـة التعليم ، ولهذا كان حرص الدول الاستعمارية على منع خدمات التعليم عن الشعوب وجعلها مقصورة على فئة معينة هي الفئة السائرة في ركابها الدائرة في فلكها الخادمة لمصالحها . وحتى يسهل عليها فرض سيطرتها الكاملة على الشعوب المستعمرة واستغلال خيراتها . . .

وايمانا باهمية التعليم وقدرته على ازالة التخلف اهتمت به الشعوب ودول العالم الثالث لتحقيق التنمية والاسراع بعملية التطور والقضاء

على مظاهر التخلف . وكذلك تحاول الدول المتقدمة بين الفينة والفينة مراجعة سياستها التربوية ودراسة قضايا التعليم بما يتمشى مع روح العصر والفترة الزمنية التي تعيشها هذه الدول .

ونحن نعيش اليوم عصر الثورة العلمية والتكنولوجية والتي تقذف بقفازها في وجهنا . تحديا وعلينا ان نحفر الجذور لا ان نكتفي من المواجهة بالاصلاح الذي لايغير الا القشرة السطحية .

وفي قطرنا عملت الثورة على ربط التعليم بل ووظفته في خدمة قضية بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ففتحت المدارس الثانوية المهنية بانواعها واكثرت المعاهد المهنية المتوسطة والعلياالتخريج العمال والفنيين لتطوير الصناعة ومدها بالعناصر المدربة المتعلمة القادرة على العطاء والبناء بأحسن اشكاله .

والدولة العصرية بمفهومها التقدمي والثوري دولة تستند على العلم لتعويض التخلف ولاحداث التغيرات الفكرية والمادية في حياة المجتمع لذا ترفع الدولة هذه المسألة الى مرتبة المبدأ لارتباطه بأهدافها عامة وبالتحويل الاشتراكي بشكل خاص .

فالاتحاد السوفييتي الذي خرج من الحرب مدمرا ، ووصفه احد قادته بقوله « ان تاريخ روسيا هو تاريخ الهزائم المستمرة بسبب التخلف وعلينا ان نقطع بمدة اقصاها عشر سنوات ، المسافة التي تفصلنا عن البلاد الراسمالية المتقدمة لذلك ينبغي دراسة كل شيء دراسة دقيقة وان نزداد علما يوما بعد يوم ، فعليكم دراسة التكنولوجيا والتمكن من العلم تمكنا تاما فهو سبيلنا لتحقيق اهدافنا » .

ولم تمض العشر سنوات حتى أصبح الاتحاد السوفييتي قوة عالية يحسب حسابها والسبب هو اهتمامه بالعلم واعادة بناء العملية التربوية

واجراء التغيير الجذري للاتجاه الفكري في العمل التربوي وكان هـــذا يتطلب قبل كل شيء تغيير محتوى وطابع تدريس العلوم العامة والعلــوم الاجتماعية والرياضية. فقد تم اعداد فئة من التقنيين التي كان باستطاعتها ان تحل أعقد المصاعب والمهمات العلمية والفنية وتحقق سبقا عالميا . اذ توصل الاتحاد السوفييتي الى اطلاق سفينة فضائية كونية تحمل على متنها انسانا الى مدار حول الارض . هذا السبق العلمي حدا ب « شارلز سنو » رجل السياسة الانكليزي الشهير الى القول :

« انه يمكن تعلم الكثير من الروس فقوتهم العظمى في نظام تعليمهم . ذلك النظـام الجاد للغاية والمتنى في وضعه وتدبيره . وينحصر الدرس الاساسي الذي يمكن ان نتعلمه ، انه يمكن تعليم فئات واسعة من الناس بكل دقة وبنوعية جيدة » .

اما في الولايات المتحدة الامريكية فلا يمكن لاحد من ابنائها الذين عاشوا في الخمسينات ان ينسى الذعر الذي اصابها والخوف الذي اعتراها من نجاح السوفييت في اطلاق الاجرام الفضائية الصناعية وفشل محاولات الامريكيين في تصنيع جرم فضائي مماثل واعتبر هذا نكسة حضارية . شاملة وكبيرة . فكيف كان الرد على هذا النجاح السوفييتي ؟

ان اول ما فعلتـه الولايـات المتحـدة هو اعادة النظر في برامـج التعليـم وعلى كل المستويات من رياض الاطفـال حتى الدراسات العليا لانهـا ادركت ان ســر الفشـل كامن في نظامهـا التعليمي والتربـوي . وعلـى سبيـل المثـال وجـه احـد كبـار المختصـين في التربيـــة نقدا الى برامج التعليم ومما جاء فيه « لقـد اصبحت برامـج تعليـم الرياضيات متخلفة عن الركب . وصارت من مخلفات القرن التاسع عشر لذا يجب استبدالها وفي الحال » وكان ان اصلحوا نظام التربية والتعليم ولحقوا بالسوفييت وانزلوا في تموز عام ١٩٦٩ أول انسان على ســطح

القمر محققين بذلك احدى المعجزات العصرية . وهكذا استطاع السوفييت والامريكان اصلاح الخلل وتفادي الجمود في نظام التربية والتعليم وتحقيق الاهداف التي طمحوا اليها وحلموا بهـا .

فهل يمكننا نحن ولنا مالنا من الاصالة والتراث والقدرة على العطاء ان نعيد النظر في نظامنا التعليمي والتربوي مع ادراكنا المسبق للدور الذي تلعبه التربية في كل بلاد العالم مهما اختلفت مذاهبها واتجاهاتها . فهدفها هو بناء الانسان المتكامل الشخصية القادر على العطاء . وحتى نستطيع اللحاق بالعصر والتفوق على تخلفنـا والنصر على عدونا والوصول الى اهدافنا في بناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد .

ان التربية تملك القدرة غير المحدودة على التغيير وهي فن صناعة الانسان والمستقبل ..

* * *

من تراثنا
رسالتان في الادب الهزلي

نهلة حمصي

مما لاشك فيه ان خير مايجدد النشاط هو الضحك والفكاهة ، والناس تحب الضحك فتنتهز اي مناسبة لتضحك .

ويضحك افراد المجتمع اذا كان ثمة عدم انسجام في شخص بينهم ، اذ يحاولون اثبات وجودهم في ازالة عدم الانسجام ، لانه اشبه بعلة تهدد شيئا ما في حياتهم فيردون عليه في موقف زجري هو رد فعل دفاعي يخفف من عدم الانسجام ، وهذا الموقف هو التهكم والضحك.

والتهكم والضحك يخففان من غيظنا ويحولان بيننا وبين الكراهية ، لان ضحكاتنا وسخريتنا يخففان من انفعالنا . والتهكم الى هذا وسيلة للاصلاح والردع شبيه بالعقوبة ولكنه اخف منها ، وان اتفق معها في الغاية وهي خدمة الفرد في المجتمع ، لذلك عده اناتول فرانس معادلا للشفقة في خدمة المجتمع واصلاح شؤون الحياة والناس .

والمغرور من الناس هو شخص فقد الانسجام مع من حوله ، لان الغرور يجعل صاحبه ذاهلا عن الواقع غارقا في اوهام انانيته الذاتية .. ويكون الضحك من افراد المجتمع رادعا للمغرور،حتى تكون طباعه متحلية بما يساعدها على العيش بشكل سوي .

ومركب الغرور موجود في كل مكان ، منتشر بين الناس كلهم ، انتشار الهواء في الطبيعة ، وليس ثمة عيب اكثر سطحية واكثر عمقا في الوقت ذاته من الغرور ، وهو ان لم يكن خطرا على صاحبه فانه لايبرأ .. والغرور اعجاب مفرط بالذات قائم على الاعجاب الذي يظن صاحبه انه يخلقه في نفوس الاخرين ..

وفي ادبنا العربي القديم رسالتان ضاحكتان ، احداهما رسالة التربيع والتدوير للجاحظ والثانية الرسالة الهزلية لابن زيدون ، وكلتاهما في الحديث عن الغرور ...

اولا : رسالة التربيع والتدوير

اما رسالة التربيع والتدوير لعمرو بن بحر الجاحظ فقد كانت ردا على غرور صاحب له اسمه محمد بن عبد الوهاب، كان قصيرا مفرطا في القصر ويدعي انه مفرط في الطول ، وهو مربع ولكنك تحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ، وهو متقادم في السن ويدعي انه حديث الميلاد ...

وتبدو امامنا صورة طريفة اشبه بصورة الانسان عندما يقف امام مرآة محدبة فاذا بشكل مشوه يبرز امامه ، شكل قصير سمين مضحك لا يمت الى الشكل الطبيعي المألوف بصلة ... هذه الصورة الكاريكاتورية التي يبرزها لنا الجاحظ في مقدمة رسالة التربيع والتدوير تضخم العيوب وتبالغ بها ، وما هذه المبالغة غاية وانما هي وسيلة الى ابراز شذوذ في هيئة صاحبه ، هذا الشذوذ الجسدي الذي يبرز شذوذ طباعه وكثرة ادعائه .. فان الشخص الذي (يماري) بشكله الظاهري الذي لايختلف

فيه اثنان قمين بان يبالغ ويدعي في علمه وطبعه ، وهما شيئان قد يخدع بهما الانسان اذا لم يسبر الاغوار ، ولم يتعرف على حقيقة الطباع .

لقد كان ادعاء ابن عبد الوهاب لاصناف العلم على قدر جهله بها ، وكان الى هذا الموقف امام من نال نصيبا من العلم يغالبه ويجاذبه ويعانده ثم لايسمع الا كلامه وحده ، وفي قلبه حسد من العلماء من غير ان يتعلق منهم بسبب فليس في يده من جميع الاداب الا انتحال الادب .

ومما لاشك فيه ان الغرور يزعج المجتمع كبعض السموم الخفيفة التي يفرزها جسمنا باستمرار ، والتي قد تؤدي الى تسميمه اذا لم تعدل بافرازات اخرى . وهكذا يقوم التهكم الباعث على الضحك بدوره الفعال لان الضحك يعاقب بعض العيوب ، كما يعاقب المرض انواع الافراط في الحيـاة .

والغرور ، كما قلت ، **هو اكثر الامور** في الحياة بعثا للاضحـاك ، **والجاحظ** هنا يتحدث عنه لا ليضحكنا فحسب ، وانما ليرد صاحبه المغرور الى مايجب ان يكون عليه بين الناس .

فماذا فعل الجاحظ ، وهو موسوعة زمانه في كل علم ؟

انا نراه يطرح على صاحبه مائة مسألة يسأله الاجابة عنها وهـو يعرف مقدار جهله ، وفي كشف حقيقته هزء به واي هزء ، وفيهـا رد للمغرور الى ماهو اولى به .

وهكذا يبدأ الجاحظ رسالته في التهكم بعد أن قدمه لنـا بصورته الحقيقية فيقول له : [قد علمت حفظك الله انك لاتحسـد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم الهامة وعلى حور العين وجودة القد ، وعلى طيب الاحدوثة والصنيعة المشكورة وان هذه الامور هي خصائصك التي بهـا تكلف ومعانيك التي بها تلهج] ... وبعد [ابقاك الله فانت في يدك قياس لاينكسر وجواب لاينقطع ، ولك حد لايفل وغرب لاينثني ، وهو قياسك الذي اليه تنتسب ومذهبك الذي اليه تذهب ، ان تقول : وما علي ان

راني الناس عريضا واكون في حكمهم غليظا ، وانا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ..)

ثم يقول له : [ومن غريب ما اعطيت وبديع ما اوتيت انا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد وانت البسيط ، وانت الطويل وانت المتقارب ، فيا شعرا جمع الاعاريض، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول] .

ويزيد الجاحظ في سخريته من صاحبه حين يقول له : [ان ماذهب منك عرضا قد استغرق ماذهب منك طويلا ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، واذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا فقد حصلت ما سلموا ، ولعمري ان العيون لتخطىء وان الحواس لتكذب وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الاعضاء وعيارا على الحواس] .

ولا نستطيع ونحن نقرأ هذه النظرية المنطقية الصحيحة التي قيس بها ما هو غير صحيح حتى تمتلىء أفواهنا بالضحكة العريضة فلقد استطاع الجاحظ بواسطة هذه المفارقات والمتناقضات أن يشوه جسم ابن عبد الوهاب وعقله ، ويجسم عيوبه ويصوره تصويرا كاريكاتوريا مضحكا .

وهكذا تسير الرسالة ، يأخذ فيها الجاحظ بالحوار والجدل فيتسع في فكرة الطول والقصر اتساعا شديدا ، فيقف حينا في جانب القصر فيحتج له ، ويقف تارة في جانب الاعتدال وقد يقف في جانب الطول ، ويدلي لكل حالة بالحجج والبراهين ، وكانه يناقش مسألة علمية فلسفية عويصة ، وكأني بالجاحظ كما يقول (شوقي ضيف) قد احال صاحبه الى مشكلة من مشاكل الفلسفة فهو يمده تارة ويقصره تارة ويعجه اخرى ويتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض ، ويعرض أمامنا من المناظر ما يثير الضحك على ما يصنع بصاحبه من التشويه .

وهكذا نرى الجاحظ يسعى لتحطيم وهم صاحبه الذي يثوي وراء الفخامه ، ويحمل جانبا كبيرا من اللامعقولية ، اذ ان هذا الانسان كان

يكيف الاشياء وفقا لفكرة عنده ولا يكيف افكاره وفقا للاشياء التي يراها امامه .

لقد كانت شخيصة من الشخصيات التي تتبع فكرتها وتنساق وراءها فحسب ، غير ان تصلب اعماقها على شكل لا تتعداه من الغرور يجعلها لا تستمع الى شيء ولا ترغب في الاستماع الى شيء ..

ويسأل الجاحظ بعد ذلك صاحبه اسئلة مختلفة ، تتضمن معارف عصره المنوعة ، سواء في المنطقة والفلسفة ام في الكيمياء والاشياء أم الانسان والحيوان أم في تاريخ العرب وغيرهم من الامم ، وتشمل الاسئلة كثيرا من الخرافات والاساطير المتداولة .

وتتجلى في الاسئلة سمة اطلاع الجاحظ وغزارة ثقافته العلمية والادبية والفلسفية والتاريخية والدينية . غير ان الجاحظ لا يحل اسئلته في هذه الرسالة بل يحيل صاحبه فيها الى مؤلفاته المنوعة التي تعطي الحل لكل منها فيها ، وتبرهن على سعة علم الجاحظ وعلو مكانته الرفيعة في دولة الادب والكلمة في تلك الايام ، وتبين في المقابل ضحالة فكر صاحبه وادعائه وغروره عندما يقف عيا عاجزا عن الرد ، فبضدها تتميز الاشياء .

والى جانب قيمة الرسالة العلمية فان لهذه الرسالة قيمة فنية ادبية كبيرة ، فلقد بلغ الجاحظ من سخريته بصاحبه فيها ما لم يبلغ كاتب ولا شاعر في اللغة العربية بشخص من الاشخاص ، ولم يكن اسلوبه الهجائي عن طريق السب والشتم بل عن طريق التهكم والسخرية اللاذعة التي يصل اليها عن طريق ابراز المفارقات وتضخيم المتناقضات مستعينا على ذلك بضروب من الاحتجاج بالشعر والنثر والجدل والحوار وضروب في السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق او المقابلة بين الرجل واشياء أخرى .

ولنسمعه يخاطب صاحبه بقوله : [وليس حسنك ـ ابقاك الله ـ الحسن الذي تبقى معه توبة او تصح معه عقيدة او يدوم معه عهد] ونضحك ثم ننفجر في عاصفة مدوية من الضحك ونحن نسترسل معه ونقرأ : [وما ندري في اي الحالين انت اجمل ، وفي اي المنزلتين انت

اكمل، اذا فرقناك ام اذا جمعناك، واذا ذكرناك كلك ام اذا تأملنا بعضك].

ولقد كان الجاحظ في رسالته ، الكاتب ذا النفس الخفيفة الظل ، المطبوعة على الدعابة والمرح ، ولكنه كان على الرغم من سخريته اللاذعة راحما في هزله متهكما دون اسفاف مصورا دون شتيمة او اقـذاع . وكانت لغة الجاحظ كعهدنا بها في كل مؤلفاته : تجلو المعنى وتبتعد عن الخشونة والغرابة وتطرب برنتها وجرسها وتوقيع لحنها ، وكانت الصور واقعية دقيقة بتفاصيلها ، واذا كان ثمة استطراد في الرسالة في الاستشهاد او الجدل على عادته ، فقد كانت هذه الطريقة تروق ابناء عصره ..

ثانيا : الرسالة الهزلية لابن زيدون

اما الرسالة الهزلية لابن زيدون فقد كانت رسالة هجاء وسخر كتبها الشاعر مغتاظا من منافسه ابن عبدوس . فلقد احب الشاعر ولادة بنت المستكفي فسعد حينا وشقي احيانا ، عصف الحب بقلبه عندما مر به وترك آثاره واضحة بارزة في حياته وفي آثاره وفي شعره . كانت ولادة جميلة حلوة المعشر تخلط الوقار بدلها وعبثها واستهتارها ، فكانت صفاتها هذه تشيع من حولها جوا من السحر والفتنة ، فتهوي اليها افئدة رجالات قرطبة فتتصباهم الحسناء وتشعل في قلوبهم نار الهوى والهيام ، وكان ابن زيدون احد ضحاياها فسقط في اشراك حبه ، وبادلته هياما بهيام ، وتآلفت روحاهما واحترقا بلظى العشق والغرام ، وتساقيا كؤوس اللذة مترعة وعاشا حياة حب محمومة ، ليس فيها حشمة وانما فيها عنف وجراة، وبدا كل منهما موله بصاحبه لا يفيق، نشوان لا يرعوي، غير ان القلب قلب ، وما سمي القلب قلبا الا لانه يتقلب بعواطفه ، واذا بالشاعر يعيش في جحيم الصد والهجر ، يتمنى النظرة فتمتنع عليه ، ويعيش في امل القرب منها وهو اسير حبها فتقصيه عنها . ونتساءل عن سبب هذه الجفوة بعد الحب والوصال ، واضطراب الامور بعد صفوها ، فيقال : انها الغيرة من جارية ولادة التي طلب منها ابن زيدون اعادة نغم غنته فشاقه وراقه ، ويقال : انه نقد الشاعر لادب المحبوبة وشعرها مما جعلها تشعر بان النقد اعتداء على سلطانها الادبي ، ويقال ويقال ..

ولكن النتيجة كانت واحدة وهي ابتعاد ولادة عن الشاعر وقد قلته ، وبقاء الشاعر على حبه يغني ذكرياته القديمة ويعرض هيامه وآلام قلبه في قصائد زخر بها ديوانه .

وتقول لنا الاخبار : ان ولادة وجدت عاشقا جديدا ووزيرا خطيرا لابن جهور هو : (ابو عامر ابن عبدوس) الذي تبع ولادة بحبه ثم تبادلا العشق والغرام . وتقول لنا الاخبار ان نار الغيرة اشتعلت في قلب ابن زيدون فزاد في توسلاته وتضرعاته للمحبوبة فلم تجبه ، ونراه يسعى ليهدد ابن عبدوس وينذره ويتوعده فيخيب مسعاه ، ويستمر يحذر ويعاتب ، بلين ويعنف فلا يستمع اليه احد .

وكان ابن عبدوس يستخدم سيدة في مراسلاته لولادة ، تزينه في عيني صاحبته ، وقد علم ابن زيدون انهما يتراسلان بواسطتها ، فكتب الى ابن عبدوس على لسان ولادة رسالة طويلة تعرف بالرسالة الهزلية سخر فيها سخرية مرة من ابن عبدوس ، وكانت غايته ان تقطع علاقتها به ، ولكن ما حدث هو غضب عارم من ولادة على ابن زيدون وسعي من ابن عبدوس الى ان ينسب الى ابن زيدون تهمة اشتراك في مؤامرة على السلطان، فوضعت في يده الاغلال وسيق الى السجن .

ولقد استطاع ابن زيدون ان يفر وارتحل الى اشبيلية ولكن دوي الرسالة الهزلية بقي يطارد ابن عبدوس .

تدور الرسالة الهزلية حول :

ــ التعريض بابن عبدوس الجاهل العاثر الساقط الذي لا يعرف قدر نفسه فيراسل ولادة يبغي وصلها فيرسل عشيقته للتوسط لدى ولادة لتلتفت اليه ، واذا بها خير رسول ، تسبغ على عشيقها السابق خير الصفات لانها في الحقيقة ملته وارادت ان يلتفت الى اخرى سواها . فهي تضع في عشيقها كل منقبة وحسنة ، فاذا بالمدح هو عين القدح ، فهي تزعم [ان المروءة لفظ هو معناه وانه انفرد بالجمال واستأثر بالكمال واستولى على محاسن الخلال ، فيوسف يشبهه ، وقارون اقل منه مالا ، وكسرى حمل مظلته وقيصر رعى ما شيته ، وكل من اتصف بصفة مثالية

اقترنت باسمه ، وكل عالم او فيلسوف اخذ علمه وفلسفته عنه وكل فقيه استمد فقهه منه ، فهو لذلك لو شــاء لخرق العادات وخــالف المعهودات وجعل البحار عذبة واعاد الحجارة الصلبة لينة ، وصير الغد امسا وزاد العناصر حتى صيرها خمسا] وكأن ابن زيدون على لسان الوسيط يريد أن يرفعه الى علو كبير حتى يرميه بعد ذلك من حالق ..

ـ الوسيطة تعود بخفي حنين بعد ان لم تجد لريح مهزا ولا لشفرة محزا . وقد رضيت من الغنيمة بالاياب بعد ان ابدت من ضروب الغضب الشيء الكثير .. فاذا بابن زيدون على لسان ولادة يهدد الوسيطة بالعقوبة ان عادت (فالنعل حاضرة ان عادت العقرب) لانها تعرف صفات ابن عبدوس الحقيقية السيئة خلقا وخلقا فهو (المصاب بعقله ، المورط بجهله، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره الاعمى عن شمس نهاره الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب) . ولهذا فان من الصعب على ابن عبدوس الوصول الى ولادة ومن المستحيل حبها له مهما فعل (فالشرق والغرب لا يجتمعان والمؤمن والكافر لا يتقاربان والخبيث والطيب لا يستويان) . ولا يمكن لها ان ترضى بأي شكل من الاشكال .

ان من يقرأ هذه الرسالة يقرنها برسالة التربيع والتدوير للجاحظ مضمونا او اسلوبا، فالمشابهة واضحة، لقد قرا ابن زيدون رسالة الجاحظ فاعجبته ووقعت في نفسه موقعا حسنا ، فكتب يذم ابن عبدوس مستلهما نمطها واسلوبها ، فهل نجد فيّ رسالته تجديدا ، ام انها تقليد ممسوخ ، هل نقول كالادباء المشرقيين عندما قراوا (صبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندي) ذلك الكتاب الذي هلل له الادباء المغربيون وصفقوا عندما الفه صاحبه : [هذه بضاعتنا ردت الينا] .

مما لاشك فيه ان اي اثر ادبي لا يمكن ان يبتكر من لاشيء ، ولقد لقب ابن زيدون في شعره ببحتري المغرب لسيره على منهج الشاعر الرقيق الديباجة الجميل الصور ، ولكن كان لابن زيدون من اصالة شعره وصدق عواطفه وعمقها وحرارتها ما جعله في مصاف الادباء الكبار ، لان الاثر

الادبي اذا أضفى الاديب عليه من ذات نفسه ، وصبغه بعواطفه وافكاره بدا شيئا جديدا وان كان الاديب يقلد فيه ، ان الاديب الحق يستطيع ان يبتكر دائما وهو يقلد ، فهل نرى هذا الابتكار في الرسالة الهزلية ؟!

لقد قلنا ان فكرة الرسالة الهزلية مستوحاة من رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، ولكن الشاعر وهو يكتبها كان يستوحي عواطفه وآلامه ، ويعبر عن افكاره ، فهو يستهزىء بمنافسه ويفرج في سخريته عن آلام فشله في الحب ، وعن غيظه وغيرته ، فهو يكتب اذا مشاعره الحقيقية باندفاعها وصدقها ، لذلك فقد استطاعت معانيه ان تبلغ الغاية في تصوير ابن عبدوس وتخليده شر مخلد . فنحن لا نذكر هذا المنافس حتى تمتلىء شفاهنا بالبسمة الساخرة ونحن نتذكر قول ابن زيدون في مدحه الساخر : [فافلاطون اورد على ارسطاطاليس ما نقل عنك ، وبطليموس سوى الاصطرلاب بتدبيرك وصور الكرة على تقديرك ، وابقراط علم العلل والامراض بلطف حسك وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك وكلاهما قلدك في العلاج وسالك عن المزاج واستوصفك تركيب الاعضاء] وكذلك تبدو صورته امامنا حين ذمه قائلا : [طويل العنق والعلاوة مفرط الحمق والغباوة ظاهر الوسواس منتن الانفاس حديثك غمغمة وبيانك فهفهة وضحكك قهقهة ومشيك هرولة ودينك زندقة وعلمك مخرقة] . وفي سخرية الكاتب تبدو ثقافته المتمكنة ، ثقافة عصر حوت العلم والادب واللغة والتاريخ ، ففي كل ما اسبغه الكاتب من صفة على ابن عبدوس ضرب من ضروب الثقافة يتمثل فيه بشخص من ملوك الاعاجم او سادة العرب او فلاسفة اليونان او اصحاب الكلام والفقه او شاعر سار ذكره ، أو سيد انتشر اسمه ويذكر الامر الذي رفع به مكانا عاليا . وكل ذلك في سيل من الامثال والابيات المنثورة من الشعر الى جانب اسماء غير الاعلام ممن تزخر بهم الرسالة . فالانسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير اليهم حتى يقع في مثل أو في حادثة أو في بيت شعر يحتاج الى فضل من الشرح ، ولهذا كله عمد ابن نباتة العجب برسالة ابن زيدون الى شرحها ، وسمى صنيعه : (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) .

لقد كان ابن زيدون مثقفا ، اخذ العلم عن أساتذة فحول ، ونهله من قرطبة وجامعتها الكبيرة ، وكان يلقى الى ذلك العلماء والادباء فينهل من معارفهم وثقافتهم ، ويأخذ من علومهم ما يشحذ به فكره ويصقل لسانه ، ونرى ثقافته شاملة بالدراسات الاسلامية والفلسفية الى جانب ركام كبير من امثال واشعار،تارة يقتبسها بنصها وتارة يفكها وينثرها باسلوبه.

غير ان هــذه الثقافة ، على الرغم مــن سعتها افقيا ، تبدو باهتة مسطحة ، وكان الشاعر اراد في نثره ان يبهر ويعجبّ ويدل على ان له باعا في كل طرف من اطراف ثقافة عصره ، فاورد العبارة التي اراد من خلالها ان تغني عن الصفحة ، فهل وفق في تثقيف القارىء ؟!!

قد يكون ابن نباتة هو الذي فعل هذا عندما شرح الرسالة وليس ابن زيدون على اية حالة .

ثم هل وفق ابن زيدون في النيل الساخر من غريمه ؟ ان هذا السؤال يسوقنا الى ان نعود الى مفهوم السخرية وضروبها فالسخرية ليست الهجاء ، وانما هي اظهار الذي يسخر منــه بصورة تثير الهزء وتبعث الضحك لان المهجو لا يشبه المألوف وقد خرج على الشكل المعروف اما بخلقه او بسجاياه ، كذلك فان السخرية ضربان : الضرب الاول سخرية مباشرة في وصف المهجو ، والضرب الثاني سخرية سلبية اذا جاز هذا القول ، وذلك في النيل غير المباشر من المهجو اما بالمبالغة بمدحه مبالغة مفرطة مضحكة كما فعل الجاحظ في رسالته أو مبالغة في اظهار مثالبة بشكل كاريكاتوري .

ولقد استطاع الاسلوب الساخر دائما ان ينال من المهجو اكثر مــن الاسلوب الجاد ، فنحن لا نذكر كافور الاخشيدي الا ونذكر قول المتنبي :

لا تشتر العبد الا والعصا معه
ان العبيــد لانجــاس مناكيــد
مــن علم الاسود المخصي مكرمه
أقومــه البيض ام آباؤه الصيد
ام إذنه فيٓ يــد النخاس دامية
أم قدره وهــو بالفلسين مردود

فهذه السخرية المباشرة تعطينا صورة العبد الذي استطاع ان يحكم مصر فترة من تاريخها ..

وهناك السخرية الكاريكاتورية وقد برع فيها ابن الرومي في تصويره لمن كره وتشاءم منه .

وهناك السخرية غير المباشرة وتذكرنا بقول الرصافي وهو يحث قومه على النوم من اجل يقظة يرجوها لهم :

يــــا قوم لا تتكلموا	ان الـكـلام محـرم
نامـوا ولا تستيقظوا	مـا فـاز الا النـوم

ولقد حاول ابن زيدون ان يجمع بـين السخريتين ليعطينا صورة مضحكة عن ابن عبدوس الذي ثار وفار وارغى وازبد عندما وصلته الرسالة فعمل جاهدا على الايقاع بالشاعر واستطاع ان يلقي به في السجن، وكانت الرسالة بلية على الشاعر ، وشر البلية ما يضحك . ولكن كفى الشاعر انه ملأ الاسماع بصورة خصمه فاضحك الناس عليه واستطاع ان يثار لكرامته التي مست وعاطفته التي داست ولادة عليها وحبه الجريح وقلبه المكسور . كل ذلك باسلوب غلبت عليه الصنعة وجعلته في منزلة بين المنزلتين فلا هو بالشعر الموزون ولا هو بالنثر المرسل ، وهو وان كان يشبه اسلوب الجاحظ في تقطيع الجمل وموازنتها مما يضفي عليها نغمة موسيقية كقوله : [وان صناعة الالحان اختراعك وتاليف الاوتار والانقار توليدك وابتداعك] . غير ان الشاعر لتعوده على النظم كان اكثر من الجاحظ اغراقا في السجع وموازنة الفواصل بين الجمل .. فهو يصفه بهذه الجمل المسجوعة : [لقد فك المعمى ، وفصل بين الاسم والمسمى وصرف وقسم وعدل وقوم وصنف الاسماء والافعال وبوب الظرف والحال وبنى واعرب ونفى وتعجب ووصل وقطع وثنى وجمع واظهر واضمر واستفهم واخبر واهمل وقيد وارسل واسند] . ولا تطول جمل ابن زيدون غالبا وقد نجد خلالها اشطارا لابيات او ابياتا مجزوءة كقوله : حسن في كل عين من تود ــ وقد اعذرت ان اغنيت شيا .. وهناك الكثير من الامثال التي وقعت في موقعها احسن موقع كقوله : الطير تقع على

ألافها ، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ما كنت لاتخطى المسك الى الرماد ولا لامتطي الثور بعد الجواد ، يركب الصعب من لا ذلول فيه ، وقد اسمعت لو ناديت حيا ، جعجعة ولا طحن ...

ولكن ما قيمة الرسالتين ؟

ان رسالة الجاحظ كانت تهكما راحما وسخرية مشفقه وما نراها الا خففت من غيظنا من ادعاء ابن عبد الوهاب وهدات من انفعالنا ونحن نشعر بالضيق من غروره المفرط وادعائه البين ، فنضحك ، ولا شيء سوى الضحك الذي هو عقاب للغرور وتقويم له .. فلقد كانت نفس الجاحظ وهو يكتب رسالته مبراة من الحقد والموجدة ، وكان غرضها التهذيب والتقويم .. وقد اعتمد فيها الجاحظ على براعة التصوير في ابراز الفكرة ، فكان تصويرا فكها لا تجريح فيه ولا سباب او هدم ، وكانت المبالغة والتهويل في تضخيم الصفات الجسدية والخلقية وسيلة للربط بين الاشياء وواقعها وما يجب أن تكون عليه ..

ولكن ابن زيدون كان يسخر ويهجو في آن واحد ، وكان حقده شخصيا وعدوانيا ، لذلك حاول الانتقاص من قدر غريمه والسخرية منه وسبه سبا مقذعا .

وليست رسالة ابن زيدون من باب التهكم الا في جزء منها ، وانما هي من باب الهجاء الذي حوى كل تجريح وتحقير مقصودين ، ولهذا فان رسالة الجاحظ تعد من عيون الادب ، من باب لا يستطيع ولوجه الا من اتصف بالروح المرحة والقلب الرحيم والنظرة النافذة الى اعماق النفس الانسانية ، وتعريتها من اجل اصلاح وتقويم ما اعوج فيها وما اعتل منها . . ولسنا نجد هذا في رسالة ابن زيدون ، الذي بقي لشعره القدر المعلى وقصر نثره عن ذلك تقصيرا ...

الدعابة

الكاتب البلغاري :

داميان بارنياكوف

لا شك في ان الاسباب التي تدفع الانسان الى الضحك كثيرة متنوعة جدا . وان كل تصرف لايوافق المقاييس الاجتماعية والانسانية العامة ، كما وان كل قصور اجتماعي او شخصي يمكن ان يسببا الضحك . ونحن ما ان ندغدغ الطفل الصغير حتى يضحك . وهكذا فان الظواهر التي تؤدي الى الضحك والاشكال التي يمكن ان يكون عليها الضحك هي كثيرة جدا الى درجة اننا سوف نقتصر بصورة رئيسية على الضحك ذي الطابع الاجتماعي .

لقد اتفق علماء الاجتماع والنفس والفيزيولوجيا على ان الضحك يسبب للافراد والجماعات البهجة والراحة ، وليس من قبيل المصادفة ان تستقبل الظواهر الثقافية ـ الاجتماعية التي تنطوي على الدعابة بكثير من الاهتمام والترحيب ، وليس من قبيل المصادفة ايضا ان يتمتع الفنان الكوميدي بحب الناس له وتعلقهم به .

حرصت المسارح منذ قديم الازمنة على ان تتخذ لنفسها رمزا يتالف من قناعين احدهما للتراجيديا ويمثل وجها عابسا مكفهرا ، والاخر الكوميديا ويمثل وجها ضاحكا مستبشرا . اما علم الطب فانه يشير الى الضحك كمصدر من مصادر الصحة ، بل ويذهب الى ابعد من ذلك، ليقدم لنا كثيرا من الدراسات التي تثبت ان الضحك ليس شاهدا على صحة الانسان النفسية والفيزيولوجية فقط ، بل انه مفيد من اجل تقدم الصحة ايضا ، وذلك عن طريق تنشيطه لجهاز التنفس وغيره من اقسام الجسم . وقد اكد عالم النفس « هرمان رايبر » على ان الضحك وتذوق النكتة ضروريان بصورة خاصة عندما يكون الناس في حالات صعبة او غير طبيعية ، وقد استخدم علماء النفس في الجيوش المتحاربة في اثناء الحرب العالمية الثانية الفكاهة لتخفيف وطأة المشقات الجسمية على نفوس الجنود .

يعتقد الدكتور «رووز كووزر » ــ البروفيسور في كلية الطب في جامعة نيويورك ــ ان الضحك يلعب دورا هاما في معالجة المرضى بالاكتئاب البعيدين عن اهلهم وذويهم واجواء صداقاتهم ، وكذلك امراض المساجين النفسية . اما البروفيسور الدكتور « ج . ليفن » الاستاذ في علم النفس في احد معاهد « واشنطن » فقد اكد على ان استعداد انسان ما للضحك هو مقياس لمدى انسجامه مع الجو المحيط به .

ان في كتب الطب الحديثة امثلة عديدة عن حالات من الامراض النفسية التي تم شفاؤها عن طريق الضحك . فقد نشرت الصحافة الامريكية قصة فتى في السادسة عشرة من عمره ادمن تعاطي المخدرات حتى وصلت حالته الصحية الى وضع ميؤوس منه ، فعرضه اهله على طبيب قرر علاجه بالضحك ونجح فعلا . وفي « لندن » عالج طبيب انكليزي فتى مريضا في رئتيه باصطحابه الى المسرح لمشاهدة عروض ضاحكة . وقال الطبيب المعالج في شرحه للاسباب التي ادت الى شفاء الفتى ان الضحك قد ساعد جهازه التنفسي على العودة بالتدريج الى حالته الطبيعية .

واذا كان هذا هو راي الطب الحديث ، فان الطب القديم ايضا قد آمن

بفائدة الضحك في معالجة بعض الحالات المرضية ، وهذا ما كان قد تحدث عنه الاطباء اليونان والرومان قبل اكثر من الفي سنة . وكان هؤلاء الاطباء ينصحون الناس بالضحك والسرور قدر استطاعتهم ماداموا يرغبون في حياة سعيدة وطويلة . وقد اكدت كل الموسوعات الشهيرة على أن شعوب اسيا القديمة كانت تستخدم الضحك علاجا لكثير من الامراض يصفونه لمرضاهم .

نشرت صحيفة « ميروار دوموند » الفرنسية منذ وقت ليس بالبعيد تحقيقا هاما عن المعهد الذي اسسه الدكتور « بيير فاشو » باسم « اكاديمية الضحك » لمعالجة المرضى بواسطة الضحك ، واصدار الكتب والنشرات وعقد الندوات عن اهمية وفائدة الضحك في حياة الناس . وقد برهن هذا الاستاذ الكبير في كلية الطب في « باريس » على مقدرة الضحك العظيمة في شفاء العديد من الامراض النفسية والعصبية ، بالاضافة الى فائدته في تنشيط الدورة الدموية وجهاز الهضم . وليس من قبيل المصادفة ان يتم مؤخرا افتتاح قسم خاص في جامعة « فلوريدا » في الولايات المتحدة الامريكية للفكاهة ، ودراسة اهمية وفائدة الضحك لصحة الانسان .

اما « كارل ماركس » فقد كان يقول بان الانسان يعالج نواقصه عندما يسخر منها ، وكان يشجع النقد الاجتماعي الساخر ايمانا منه بان مثل هذا النقد يمكن ان يساعد السياسة في نضالها من اجل فضح مثالب البنى الاجتماعية المتخلفة .

أما في المجال الادبي فقد اهتم كبار المؤلفين الادبيين منذ اقدم الازمنة بالفكاهة والادب الساخر ، وابدعوا اثارا مازالت تبهج الناس الى اليوم . وكلنا يعلم ان ابداعات « اريستوفان » و « سرفانتس » و « موليير » و « غوغول » و « مارك توين » وغيرهم قد اضحكت وتضحك ملايين البشر في شتى انحاء العالم .

ان كثيرا من الخطباء والمحامين والاساتذة الذين تفرض عليم مهنهم الحديث مطولا امام الاخرين ينتبهون الى ضرورة تطرية واغناء احاديثهم

ببعض النكات والطرف الشاحكة كيلا يملهم مستمعوهم . وقد ساعدت المعارك النيابية في العصر الحديث على بروز خطباء مرموقين من مختلف الجنسيات كانوا يستخدمون الدعابة والسخرية اللاذعة في دعاياتهم الانتخابية . وقد انتبه الفلاسفة القدماء الى ذلك في محاضراتهم ودروسهم التي لم تخل من روح النكتة وحضور البديهة . وكان من عادة « شيشرون ان يسخر من خصومه بما يبعث على الضحك وتسلية الناس ، ويحقق له هدفه من الحط من شأن هؤلاء الخصوم .

ان من عادة الانسان ان يبحث عما هو ضاحك في جميع الاشكال والانماط الادبية ، وان من شان الادب والفن الضاحكين ان يبعثا في القارىء او المشاهد او المستمع شعورا من المرح والغبطة ، وان يخففا من رتابة الحياة اليومية . وهنالك بالطبع نوعان من الضحك : الضحك السطحي الذي ليس هو سوى دغدغة ساذجة ورخيصة لمشاعر الناس . والضحك الهادف الذي يثير في الانسان شعورا من الخجل تجاه نقائضه ويدفعه الى تصحيح اخطائه . وهذا ماتحفل به آثار الادب الساخر وروائع الكوميديا العالمية .

اعتبر الفيلسوف الانكليزي اللورد « تشيستر فيلد » الضحك ظاهرة منحطة ، وايد العالم النفسي « ف . ر . ريس » هذا الراي معتبرا الضحك صفة وضيعة والموهبة الساخرة ظاهرة سطحية وشريرة . اما علماء النفس الاشتراكيون فقد خالفوا هذه الاراء كل المخالفة .

لقد عرف عن الفيلد مارشال « مولتكه » وهو عسكري الماني شهير تالق نجمه في الحرب الفرنسية ــ البروسية عام ١٨٧٠ ، انه شخصية جدية ومتزمتة ، وروي عنه انه قد ضحك في حياته مرتين : الاولى عندما توفيت حماته ، والثانية عندما اخبروه ان السويديين قد شيدوا سورا حول عاصمتهم « ستوكهولم » واعتبروه غير قابل للاقتحام . تصوروا انسانا لم يضحك في حياته سوى مرتين . ان بودنا ان نتساءل اي تجهم يمكن ان يسود العالم لو ان الناس كلهم مثل « مولتكه » ؟ اننا نعتبر مثل هؤلاء العابسين دوما اناسا غير طبيعيين .. تماما كما نعتبر هؤلاء الذين يضحكون

دائما ودونما سبب . واننا في حديثنا عن « الضحك » انما نقصد ذلك الضحك الطبيعي الذي هو صفة من صفات الانسان المحب للحياة والذي يضحك من القلب عندما يكون هنالك سبب للضحك . ان مثل هذا الانسان المتفائل قادر على تذليل الصعاب وتحقيق النجاح في حياته . وقد قال احد المفكرين : « الضحك حكمة، انه يجمل الانسان كما تجمل الازهار الحديقة والنبيذ الطاولة ، والحلي النساء » .

ان بامكاننا ان ننظر الى الضحك من جوانب عدة : اجتماعية وبيولوجية وفلسفية وطبية وغيرها . ولا شك في ان الضحك الطبيعي مرتبط بالحكمة ، وعندما يعبر الاديب عن الضحك في نصوص مرحة وساخرة يكون ذلك فنا قائما بذاته ، يهدف الى نقد واصلاح ، ويستحق كل تقدير واحترام . ولاشك ايضا ان مثل هذا النوع من الادب ظاهرة ذات مغزى اجتماعي ، تستند الى اساس بيولوجي وسيكولوجي في شخصية الاديب . اما بالنسبة لتأثير ذلك النوع من الادب في الناس ، فانه يتفاوت من انسان الى آخر ، كل حسب مزاجه وشخصيته وظروفه ، غير ان الادب الساخر لا يمكن الا ان يكون فنا ذا محتوى اجتماعي ومبدئي محدد . وليس الاديب او الفنان الساخر الحقيقي هو ذلك الانسان الذي يضحكنا بلعبة بالالفاظ أو بمداعباته وحركاته و (شطاراته) الذكية ، بل هو ذلك الحكيم الذي يريد بما يقوله لنا باسلوب مرح عن حياتنا الاخلاقية والاجتماعية والسياسية ان نعرف اين نحن ؟ وكيف نحن ؟ وهل نعمل شيئا مفيدا من اجل الحياة ؟

ان الانسان لايمكن ان يرضى ابدا بما وصل اليه او حققه من البهجة والمسرة ، كما لايمكن ان يقتنع بالضحكات التي اطلقها ، بل يطمح دائما الى كشف وابتكار اشكال جديدة من الضحك . وهكذا كان قد ولد الضحك المبدع في آثار الادباء الساخرين . وهذا ما كان قد بحثه «برغسون» في دراسة له عن الضحك والادب الساخر . اما « فرويد » فقد الف كتابا عن النكتة ، يعتبر هاما في عصره . كما نشر الباحث البلغاري « ميخائيل ديميتروف » مؤلفا قيما بعنوان « سيكولوجية الضحك » .

لما كان « برغسون» هو النظري الاول الذي عني عناية علمية بالضحك ، وخصص لذلك أحد مؤلفاته الهامة ، فانني ارى ان نستعرض معا بعض آرائه في هذا الموضوع .

لقد استقبل النقاد والكتاب والفلاسفة وكل الذين يهتمون بالابحاث العلمية ، وكذلك الصحفيون والادباء البلغار كتاب « برغسون » عن الضحك عندما ترجم وصدر باللغة البلغارية قبل عشر سنوات باهتمام كبير ، وقد قرأناه بعناية بالغة ، لنطلع على آراء هذا الفيلسوف فيما يخص ظاهرة الضحك .

يتميز كتاب « برغسون » عن الضحك بلغته الواضحة وافكاره الفنية التي تشط احيانا عن الموضوع لتعرض اطرافا من وجهات نظر برغسون الفلسفية في شتى المواضيع الاخرى . وعلى هذا الاساس فان حكمة علميا صارما لابد من ان ينال من قيمة هذا الكتاب . ثم يجب الا ننسى ايضا ان هذا الكتاب هو جزء لايتجزأ من فكر « برغسون » الميتافيزيقي ، ومن نظرته المطلقة التي تتجاوز العلم في مواضع كثيرة منه . وقد علق الفيلسوف البلغاري الاكاديمي « تودور بافلوف » على هذا المؤلف بقوله : « ان معظم ما ورد فيه هو من منطلق هنري برغسون الميتافيزيقي ، كما وان كثيرا من تحليلاته واستنتاجاته ليست واقعية ابـدا » .

لقد اراد « برغسون » أن يزج بآرائه غير الواقعية في عالم الضحك وهذا ما ادى به في كثير من الاحيان الى السذاجة والسطحية ، والى تحليلات ميكانيكية لظواهر الحياة ، فهو يعتبر الضحك مجرد « مداعبات » لمظاهر الحياة السلبية وصورها الطبيعية . وهكذا نجده يستنبط مثل « دون كيشوت » في بئر امامه اراد ان يتأمل فيها صورة القمر . وفي اعتقادي ان هذا الكتاب قد اضر كثيرا بهؤلاء المؤلفين الكوميديين الذين اعتبروه مصدرهم الاول والاخير في تعريف وتحديد مفهوم الضحك .

سبق لنا ان اشرنا الى ان الاكاديمي البلغاري تودور بافلوف كان قد ناقش آراء « برغسون » في كتابه الاخير عن الضحك . ولابد لنا من الاشارة الى ان « بافلوف » كان قد رد على « برغسون » الذي فسر الضحك تفسيرا

آليا وميتافيزيقيا بقوله : « لقد علمتنا الحكمة الشعبية ان الضحك قوة وصحة ، وقد اكتشفت من خلال تجاربي الشخصية خلال سبعين عاما من حياتي ان بامكان الدعابة ان تنقي حياتنا من السلبيات ... وان تعري كل مظهر سلبي او متخلف... وان تسهم في تجديد حياة الانسان».

دور الدعابة

من طبيعة الانسان ان يضحك ، فنحن نضحك لنكتة نسمعها ، ونضحك عندما نرى رسما كاريكاتوريا للفنان العربي السوري علي فرزت ، او للفنان البلغاري « كارانداش » كما نضحك عندما نقرا اثرا كوميديا مثل « دون كيشوت » لسرفانتس او « المفتش العام » لغوغول او قصصا للكاتب البلغاري الساخر « تشودومير » .

ان الانسان الحيوي والمتفائل يضحك من قلبه عندما يكون هنالك سبب للضحك ولكن كثيرا ما يحدث ان يثير رسم كاريكاتوري مثلا اعجاب وضحك انسان او مجموعة من الناس ، بينما لاينجح الرسم نفسه في انتزاع ابتسامة من انسان او مجموعة اخرى من الناس ، وقد يثير اشمئزاز مجموعة ثالثة ، فالمسألة اذن متعلقة بامزجة الاشخاص والجماعات ومفاهيمهم وثقافاتهم واستعدادهم للضحك والمرح . فعندما كان « سقراط » يتجرع كاس السم ، كما هو معروف ، قال له تلامذته : «من المؤسف ايها المعلم ان تموت دون ذنب ارتكبته » ، فاجابهم الفيلسوف : « وهل تظنون ان الموت كان يكمن ان يكون اسهل لو كنت مذنبا ؟ .. » فضحك تلامذته وهم يبكون ، بينما اثار ذلك غضب اعدائه . وكانت الجملة الاخيرة التي قالها احد رجال الثورة الفرنسية الذي كان يهم باطلاق الرصاص عليه : « رصاصة واحدة تكفيني .. دع الباقي لبريء آخر ، فاضحك قوله الحاضرين بينما أثار حنق خصومه . ويتعلق قبول النكتة او رفضها بالمزاج الذي يختلف من شخص الى آخر ، ومن جماعة الى اخرى ، ومن مكان الى مكان ، وزمان الى زمان . ولاشك في ان الضحك بصورة عامة مرتبط بالنقد والنقد الذاتي . وليس كل ضحك

هو لتزجية الوقت ، او هو ظاهرة ذات طابع سطحي فارغ ، بل ان من الضحك ماهو في خدمة الجد ، وما يهدف الى قول شيء مفيد لخدمة فرد او جماعة .

ان مختلف اشكال الدعابة في كل مراحل تطور المجتمع ، لايمكن تقييمها على اساس مجرد وسائل للمرح والتسلية وقضاء الوقت فقط بل كفن — كما اشرنا سابقا — ذي محتوى اجتماعي — فكري ووظائف مؤثرة في تطور ذلك المجتمع . لذا فاننا ننظر الى الدعابة ليس فقط كعامل من عوامل الترويح عن نفوسنا بما تسببه من ضحك وبهجة فقط بل كحافز لنا من اجل ان نصبح اناسا اكثر فائدة لبناء مجتمعنا التقدمي .

وما دمنا نعتقد ان الضحك فرح وقوة وصحة وسعادة وتفاؤل فلا بد لنا من الاهتمام بدعابات المبدعين التي لا يمكن أن تغيب عن العالم ما دام فيه انسان . لقد وجدت تلك الدعابات منذ اقدم الازمنة لترسم الابتسامات على الوجوه ، وتطلق الضحكات من اعماق القلوب ، وتسعد الكبار والصغار ، وتبهج النساء والرجال ، دون ان تحيد عن هدفها في النقد والاصلاح الاجتماعي .

ان حضور البديهة شرط اساسي من شروط الدعابة يبرز في ادبيات الكتاب الساخرين . ومازلنا نعتقد ان هذه الحالة من توقد الذهن ، والذكاء اللماح في اطلاق حكم صائب ، والانتباه الى علاقة بين موضوعين أو الربط بين موقفين ، وقول مايجب ان يقال في اللحظة المناسبة ، هو موضوع لم يدرس تماما . ولاشك في أن حضور البديهة ليس اضافة مصطنعة في آثار هؤلاء الكتاب ، وما علينا اذا ما اردنا التأكد مما نقول الا ان نقرأ قصص تشيخوف او موباسان لندرك أن حضور البديهة هو جزء لايتجزأ من عبقريتهم الادبية وليس سمة مفتعلة او تذوقا ملفقا لنصوصهم ، بل نحسه في صميم آثارهم، ونسيج حوارهم، يرتبط بطريقة جدلية بمحتوى واهداف قصصهم ورواياتهم ومسرحياتهم ، وكذلك بعالمها الداخلي ، ومنطقها النفسي ، وواقع شخصياتها الاجتماعي والثقافي .. وتنبثق عن حضور البديهة نكات و (قفشات) وكلمات مأثورة وتشابيه ضاحكة وتعابير لاذعة ذكية .

كانت هناك عائلتان كنيتهما « ايفانوف » تعيشان في عمارة ضخمة واحدة، الاولى في الطابق الاول ، والثانية في الطابق الرابع ، وحدث في احد الايام ان توفي « ايفانوف » الذي يعيش في الطابق الاول ، وكان ذلك في اليوم نفسه الذي سافر فيه « ايفانوف » الذي يعيش في الطابق الرابع الى افريقيا ، وبعد ذلك بأسبوع تسلمت ارملة « ايفانوف » في الطابق الاول برقية فيها العبارة التالية : « وصلت بالسلامة ، هنا الحر شديد »

في هذه الاقصوصة ـ النادرة نجد الذكاء في الحيلة والتركيب ، لقد سلم ساعي البريد البرقية لاول شقة في العمارة قرأ عليها اسم «ايفانوف» وفوجئت الارملة المسكينة بتلك العبارة الغريبة التي ذكرتها بزوجها الراحل .. وكانت الصدمة بالنسبة اليها مؤلمة لاسيما وانها لاتعرف ان في الطابق الرابع عائلة اخرى تحمل ذات الكنية .

ان الموقف كما نرى تراجيدي ـ كوميدي في آن واحد . ان الاقصوصة النادرة لا تخلو من ذكاء في التركيب ، ومن تعقيد ينم عن مهارة في التاليف لكنها تهدف قبل اي شيء اخر الى التسلية والاضحاك .

لقد توظفت الدعابة أيضا لهدف سياسي ، ففي مرحلة النضال ضد الفاشية في بلغاريا ، استطاعت النكتة ان تلعب دورا هاما في التصدي للغزاة ، فقد اقتيد الى سجن صوفيا المركزي في احدى المرات رجل حكم عليه بالسجن تسع سنوات لانه قال : « سينتصر الالمان اذا ما ولدت امي قطارا » . في مثل هذه النكتة نحس مفاجأة في التشبيه بين حالتين ، وتعبيرا عن رغبة مؤلفها في قول رأيه بطريقة ملفتة للنظر ليتسنى لذلك الرأي ان يتناقله الناس ، فيدرج بينهم . وقد صدر في بلغاريا كتاب بعنوان « نكات المقاومة » ، يضم مجموعة من تلك النكات التي اطلقها الشعب البلغاري ضد اعدائه في تلك المرحلة الصعبة من تاريخه ، ولاقى ذلك الكتاب رواجا كبيرا بين القراء .

لقد عني كثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفس وغيرهم بالدعابة ، وحاولوا تعريفها ، ومنهم من درسها وعرفها في مقالة أوبضع مقالات ، ومنهم من خصص لها اثرا او اكثر من آثاره . ولا يسعني في هذه

العجالة ان ارصد الكم كل ما كتبه هؤلاء عن الدعابة غير انني ارغب في الاشارة الى ان (هيغل) كان قد قال في احد ابحاثه : « الدعابة هي ميل العقل والقلب الى قول الحقائق باسلوب مرح » ، اما (يختر) فقد قال : « الدعابة مثل كوكب ذي وجهين ، يضحك وجهه الظاهر من بكاء وجهه المستتر » ، وقال غوركي : « الدعابة دليل على رغبتك في الحياة » .

ان هنالك كثيرا من التعاريف للدعابة تحاول ان تحدد طبيعة هذه الظاهرة الانسانية من مختلف الوجوه ، وقد اجمع كل الذين اهتموا بهذا الموضوع على ان الدعابة عندما تحارب الشر من وجهة النظر الاخلاقية لعصر من العصور ، او من خلال مناقبية مجتمع من المجتمعات تجلب المتعة وتنشر السرور . كما اجمعوا على ان المفاجأة هي عنصر من عناصرها الاساسية ، واتفقوا على ان الطابع الانساني هو جوهرها العام ، وهذا ما يجعل الناس من مختلف القوميات يجمعون على الاعجاب بآثار كوميدية واحدة ، او يتناقلون نكات واحدة ، او يضحكون لاسباب واحدة .

صحيح ان دعابات الشعوب تحمل خصائصها وتعبر عن نفسياتها ، وهذا مايجعلنا نفرق بين نكتة انكليزية واخرى افريقية مثلا ، غير ان جوهر وهدف الدعابة يبقى انسانيا ، فهي غالبا ماتكون موظفة لفضح نقيصة، او انتقاد تصرف خاطىء ، او الاستهزاء بمظهر من مظاهرها من الغباوة او التخلف ، فلابد اذن من التأثير في الفرد والجماعة ، والمساهمة في تطوير المجتمع .

لقد عني المفكرون من قديم الازمنة بالدعابة وجمع النكات ، ففي القرن الخامس قبل الميلاد ، جمع احد فلاسفة الاسكندرية ، واسمه « هيروكلوست » عددا من النكات في مخطوط له تحت عنوان « استيبا » وهي تتحدث عن شاب قفز بنفسه في الماء دون ان يعرف السباحة ، وعن رجل حبس « غرابا » في كيس ليتأكد من انه يعيش مائتي سنة ، وعن امرأة وقفت امام المرآة واغمضت عينيها لترى نفسها كيف تظهر عندما تنام .. وغيرها من النكات .

لاشك في ان الدعابة لايمكن ان تعيش زمنا طويلا اذا لم تتضمن معنى

او هدفا محددا . ان اثرا مثل « دون كيشوت » لمؤلفة « سرفانتس » مازال يرسم الابتسامات على وجوه ملايين الناس في مختلف انحاء العالم ذلك لانه يعكس مغزى وحكمه تهم الناس . وفي بلغاريا مازالت قصة « باي غانيو » لمؤلفها الكاتب « الكسندر كونستانتيوف » ، رغم قدمها النسبي ، تتمتع بحماية واعجاب البلغار بصورة خاصة ، ذلك لانها تتحدث عن شخصية بلغارية صميمة قد لايستطيع الاجانب فهم دقائقها وتفاصيلها ان علماء الاجتماع والادب والنفس والجمال المثاليين يعجزون عن شرح وتحديد جوهر ودور الدعابة بطريقة علمية ، وفي اعتقادنا ان مثل هذا الشرح والتحديد يحتاج الى وعي جدلي ، اذ لابد لفن الدعابة من ان يدرس كظاهرة انسانية ، ذات مضمون اجتماعي ، تعبر عن وعي وثقافة انسان ما ، وعلى هذا الاساس فان معنى الدعابة ليس هو الضحك السطحي ، بل هو التعبير باسلوب مرح او ضاحك عن ابعاد وتطلعات الانسان ، وسعيه الى حياة انقى وافضل ، وقد وعى هذه الحقيقة كل هؤلاء الذين زاولوا الدعابة الاصلية من الكتاب الكوميديين والساخرين امثال : اريستوفان وسرفانتس وموليير وغوغول وبتروف وبوتيف وغيرهم .. وغيرهم .

دعابة الشعوب

كثيرا ما يحاول الباحثون تحديد ملامح دعابة شعب من الشعوب كان يقولوا بان دعابة الالمان ثقيلة الوطأة تشبه (البيرة) التي يشربونها ، وان دعابة الانكليز هادئة التأثير مثل (الويسكي) الذي يفضلونه ، وان دعابة الفرنسيين خفيفة ومتألقة مثل (الشمبانيا) الفرنسية .

هكذا كان قد قال الشاعر الالماني « هاينريخ هاينه » الذي عاش ردحا من حياته في باريس ، وكان معنيا برواية الطرف والنكات ومخالطة الظرفاء ، وقد اجرى هذا الشاعر مقارنة بين الدعابتين الالمانية والفرنسية ضاربا المثل التالي :

وقف رجل الماني ، وفي يده كأس من البيرة ، يهنيء عروسين ليلة عرسهما بقـــوله :

ـ تناسلوا ... وتكاثروا ..

ثم غمز بعينه واضاف موجها كلامه للعروس .

ـ لاتنسي ياسيدتي ان جنسنا الالماني بحاجة الى محاربين ، وان المحاربين ايضا بحاجة الى نساء .

اما الرجل الفرنسي فانه قرع كأسه بكأس العروس وقال :

ـ النموذج رائع .. نأمل ان نرى قريبا نسخة منه .

ان الدعابة الفرنسية راقية ومهذبة تبعث على الابتسامة الناعمة .

قال الكاتب الالماني « هانس بيتكه » متحدثا عن الدعابة لدى مختلف الشعوب : « لايمكننا القول بان الشعب الالماني شعب بعيد عــن النكتة ، وان الانســان الالماني لا يجيد الضحك ، لكننا يجب ان نعترف بان الالمــان يفضلون الضحك في ايام عطلهم واعيادهم ، بخلاف الفرنسيين والايطاليين والاسبان الذين يميلون الى الدعابة في كل الاوقات » .. وفي اعتقادنا نحن ان كل الشعوب الاوربية الاخرى من يونان ورومان وبلغار وبولونيين تميل الى المزاح والدعابة كالفرنسيين والايطاليين .

ان من يعيش في فرنسا ردحا من الزمن يدرك بنفسه ان ليس من شعب أميل الى الدعابة من الشعب الفرنسي .

يؤكد احد دارسي الدعابة على ان البرلينيين ـ سكان برلين ـ يمتلكون احساسا متطورا بالنكتة ، غير ان دعابتهم ذات طبيعة خاصة فهي مباشرة وصريحة وقد لا يستسيغها الآخرون .

قال البروفيسور الامريكي « تشارلز كيلينغ » وهو بحاثة شهير في حقل الدعابة ، في مقالة له بعنوان « دعابات الشعوب » . يستعرض فيهــا خصائص كل شعب في ضحكه ومرحه ، ويقدم نماذج من نكاته ودعاباته : « ان نكات الامريكيين درامية وسمجة احيانا ، وان نكات الانكليز باردة ، وهم كثيرا ما يضحكون مما لا نستطيع ان نضحك نحن منه ، اما النكتة

الالمانية فانها كما يجمع الكل ثقيلة وباهتة ، وعلى هذا فان دعابات الشعوب الاوروبية الاخرى اكثر رشاقة وحيوية وذكاء » .

وقرر كاتب امريكي آخر في بحث له عن الدعابة في اوروبا ان شعوب اوروبا الجنوبية اكثر تعلقا بالنكتة وتذوقا لها . فقال ان الايطاليين هم اكثر الشعوب اللاتينية ولعا بالدعابة . وان الصربيين هم اكثر الشعوب السلافية مرحا وميلا الى الضحك. اما بالنسبة للشعوب الانجلوسكسونية فقد اعتقد هذا الكاتب ان هذه الشعوب هي اقل من غيرها دعابة وان كان قد فضل من بينها الالمان على غيرهم .

ولاشك في ان آراء الباحثين في هذا الموضوع مختلفة ومتضاربة جدا ، فقد قرر بعضهم ان هذا الشعب ، او ذاك ، اميل من غيره الى الضحك ، فيجيء البعض الآخر ليرفض ذلك . ولا شك في ان هذه التناقضات انما تعود الى ان بعض هؤلاء الباحثين يعرف هذا الشعب او غيره اكثر من الشعوب الاخرى ، او ان تماسه ورحلاته في هذه القارة اكثر من تماسه ورحلاته في قارات اخرى ، فيطلق كل منهم احكامه على ما يعرف دون ان يأخذ بالحسبان حقيقة مالا يعرف .

لقد جاء في الطبعة الفرنسية من كتاب « الضحك في العالم » الذي الفه (٢٤) كاتبا وصحفيا ، يتحدث كل واحد منهم عن دعابة شعب من الشعوب ، ان الناس في الاتحاد السوفييتي لا يضحكون ، وان البلغار لا يعرفون الضحك اطلاقا ، كما اتهم هذا الكتاب العرب بالعبوس ، غير ان الحقائق تنافي مثل هذه الآراء السطحية ، وان كل من يعرف الشعوب السوفييتية من قرب يدرك تماما انها شعوب تحب المرح والبهجة ، وتطلق النكات وتعشق الفكاهة ، وقد تأكدت من خلال احتكاكي وصداقتي مع العرب ان العربي انسان حاضر البديهة تتميز نكاته ودعاباته بالذكاء ، وقد اعلمني احد اصدقائي من العرب ان في التراث الادبي العربي القديم آثارا رائعة من الادب الضاحك ، وذكر لي كتاب « البخلاء » للجاحظ ، وروى لي بعض نوادره التي اعجبتني كثيرا .

اود ان اعود قليلا الى كتاب « الضحك في العالم » كي اتساءل : كيف يمكن لؤلاء الذين يدّعون معرفتهم بالدعابة في كل أنحاء العالم ، ويتصدون

لتاليف مثلَ هذا الكتاب ان يتجاهلوا الدعابة الروسية ؟ هل ذلك جهلٌ ام كراهية ؟!

انهم يتهموننا نحن البلغار بأننا شعب لا يعرف الضحك . وقد نبرر لهم ذلك بأننا بلد صغير ، لم يسبق لمؤلفي هذا الكتاب ان زاروه وتعرفوا الى ابنائه ، او قراوا شيئًا عن ادبنا الساخر ، ولكن كيف يمكننا ان نبرر لهم جهلهم بالروح الروسية المرحة ، من خلال الادب الروسي الساخر المترجم الى لغاتهم على الاقل . اليس في كل هذا التجني الدليل الواضح على ان مؤلفي الكتاب المذكور يقعون تحت تأثير امزجتهم السياسية التي تطغى على احكامهم حتى في المواضيع غير السياسية ؟

ان بلادا شاسعة مترامية الاطراف ، مثل روسيا ، كانت قد ظهرت فيها الدعابة المكتوبة منذ مئات السنين ، واشتهر فيها كل من الظرفاء العالميين امثال : (بالاكيريف) ـ ايام بطرس الاكبر ـ ثم (كوتوزوف)و(سالتيكوف) والشاعر (بوشكين) .. والتي ظهر فيها احد اكبر الساخرين في التاريخ مثل (غوغول) ... وغيره من الكتاب المعروفين جدا بروحهم المرحة وادبهم اللاذع امثال (ايليف) و (بتروف) و (زوشتشينكو)و(تشيخوف) وغيرهم . ان بلادا مثل تلك البلاد لا يمكن أن تسقط من حساب مؤلفي كتاب (الضحك في العالم) سهوا وعن غير ما قصد .

لقد ضحك الانسان الروسي ولا يزال يضحك من الكسل والكسالى والبيروقراطية وكلّ مظاهر التخلف ، غير انه لا ينظر الى الضحك كما ينظر اليه الانسان الامريكي كوسيلة للمرح المؤقت ، او كالانسان الفرنسي من الزاوية المزاجية ، او الانكليزي الذي يعتبر الضحك انعكاسا لمظاهر التناقض ، او الالماني الذي لا يعيره اهتماما مذكورا . ان الضحك الروسي ضحك ينطلق من أعماق النفس الروحية المرحة ، وان الدعابة الروسية هي دعابة لاذعة تهدف الى تصحيح الاخطاء وخدمة المجتمع .

اما الدعابة البلغارية ، فان في ودي ان اتوقف عندها قليلا ، وهذا امر طبيعي في دراسة اعدها انسان بلغاري كرس حياته لبحث الدعابة يساعده في ذلك اطلاعه على كل ما طبع ونشر في بلاده من مقالات او كتب تبحث في هذا الموضوع .

ان العبودية العثمانية التي رزح تحت نيرها شعبنا البلغاري الصغير مدة خمسة قرون ، والمآسي التي عاناها ومر بها خلال تلك المرحلة الطويلة من تاريخه قد خلفت في فنونه مسحة من الحزن ، وهذا ما حدث بالنسبة للشعوب الاخرى التي كانت ضمن مستعمرات تلك الامبراطورية الاقطاعية الجائرة ، واننا نلمس هذا الحزن بصورة خاصة في الاغاني البلغارية ، وقد كنا نسمع من اساتذتنا ، ونحن على مقاعد الدرس ، ان العبودية العثمانية المديدة قد طبعت شعبنا البلغاري بطابع الحزن ، وجعلته عزوفا عن المرح والدعابة .

اعتقد ان هؤلاء الاساتذة مخطئون أيضا . ان لي آراء محددة حول مثل هذه المقولات ، وارغب في ان اطرح قبل كل شيء بعض الاسئلة التي لا بد منها ، على راس هذه الاسئلة : اي شعب ليست له اغاني حزينة ؟ ثم هل الاغاني المرحة والساخرة التي تعود الى تلك المرحلة قليلة ؟ وهل نستطيع ان نغفل النكات والنوادر الكثيرة جدا التي ابدعها شعبنا في ذلك الزمن ساخرا من مستعبديه ، ومن تخلف هؤلاء المستعبدين ؟ ومن منا لم يضحك لنوادر « خيتر بيتر » اي (جحا) البلغاري ، التي كانت تتهكم على العثمانيين وتسخر منهم ؟ ثم يجب الا ننسى ان الخيال الشعبي البلغاري كان قد ابدع هذه الشخصية الخيالية ليقول من خلالها رايه الصريح بالظلم والعبودية في تلك الفترة المدلهمة من تاريخه .

كان العثمانيون آنذاك يحاولون جهدهم السيطرة على ثقافة الشعب البلغاري وعلى روحه المعنوية ، وذلك عن طريق فرض ثقافتهم ، وفي مجال الدعابة كانت شخصية « نصر الدين خوجة » ـ اي جحا الاتراك ـ عندهم هي التي كانت تعبر عن مفاهيمهم وقيمهم في الحياة ، غير ان الخيال الشعبي البلغاري سرعان ما ابدع لمواجهة تلك الشخصية التركية ، شخصية (جحا) البلغارية الوطنية اي (خيتر بيتر) . ومنذ ذلك الحين بدات بين الشخصيتين الخياليتين : نصر الدين خوجة وخيتر بيتر مناقشات ومجابهات ورغبة في تفوق احدهما على الاخر . وكان سلاح الشخصيتين هو الذكاء الشعبي الحاد والفكاهة والسخرية .

لقد اختلف المؤرخون حول شخصية نصر الدين خوجة ـ اي جحا الاتراك ـ ولم يتوصل واحد منهم الى تحديد تاريخ ظهورها بدقة ، غير انهم اجمعوا على ان نصر الدين خوجة قد ظهر قبل (خيتر بيتر) ، وهذا امر طبيعي، ذلك لان اختراع شخصية (خيتر بيتر) كانت في الاصل للرد على شخصية نصر الدين خوجة ، غير ان النقطة الهامة التي اريد ان اشير اليها هي ان هاتين الشخصيتين مالبثتا ان اصبحتا صديقتين حميمتين ، ذلك لان الشعب البلغاري والشعب التركي ، او بالاحرى الطبقات الشعبية البلغارية والتركية كانت قد بدات تحمل هاتين الشخصيتين الخياليتين همومها وآلامها وآمالها ، .. فتحولت شخصية نصر الدين خوجة الى التعبير عن وجهات نظر الطبقات المظلومة في المجتمع العثماني ، وهذا ما اهله لعقد صداقة مع « خيتر بيتر » ، حتى اصبح كل من نصر الدين خوجة وخيتر بيتر يحولان نقدهما اللاذع للنيل من الظالمين اتراكا كانوا ام بلغارا ، اي من الباشوات والبكوات والاقطاعيين الاتراك وكذلك من « الشوربجيين » اي الاقطاعيين البلغار وكل المتعاونين مع الحاكم الاجنبي .

لاشك في ان الانسان البلغاري قد زاول الضحك قبل ابداعه لشخصية « خيتر بيتر » ، غير ان ضحكه مالبث ان تركز في هذه الشخصية بعد اختراعها ، وعلى هذا الاساس فقد كانت شخصية « خيتر بيتر » تحمل اسلوب الدعابة البلغارية بكل شعبيتها واصالتها ، وكذلك طريقة سخرية البلغار من الظالمين والمستبدين .

بعد شخصية « خيتر بيتر » بدات تظهر في الادب البلغاري نصوص ساخرة باقلام كل من : « خريستو بوتيف » و « ليوبين كارافيلوف » ، بالاضافة الى كلمات وتعليقات « فاسيلي ليفسكي » اللاذعة والنفاذة . وليس من قبيل المصادفة ان تظهر في بلغاريا ـ قبل تحررها من الحكم العثماني ـ تسع صحف هزلية ، نذكر منها : « المزمار » و « القنفذ » و « المنبه » وغيرها من الصحف التي كانت تطبع في الخارج ـ ثم تحمل سرا الى بلغاريا .. اما بعد الاستقلال عن الامبراطورية العثمانية فقد ظهر في بلغاريا كتاب ساخرون كثيرون نذكر منهم : بيتكو سلافييكوف ودراغان تسانكوف

وجيورجي كيركوف واليكو كونستانتينوف وميخائيل جيورجييف واليين بيلين وخريستو سميرنسكي وتشودمير وغيرهم .

ان الذي يؤسفني بصورة خاصة هو ان آثار هؤلاء الكتاب الساخرين ليست مترجمة الى اللغة العربية كي يطلع عليها القراء العرب ، ويلمسوا بانفسهم كم هي ممتعة ورائعة ، إن لم تكن مضاهية لاجمل آثار الادب الضاحك في العالم ، وليتاكدوا بانفسهم من بطلان مزاعم بعض المؤلفين الغربيين الذين يدعون خلو ادبنا من النصوص المرحة والساخرة .

يحسن في هذا المجال ان نشير الى مهرجان عالمي دوري ضاحك يقام كل عامين في مدينة « غابروفو » عاصمة الدعابة البلغارية ، وقد اشترك في هذا المهرجان بعض الفنانين السوريين امثال الرسام الكاريكاتوري المعروف علي فرزات .

لقد اشتهرت هذه المدينة بروحها المرحة ، وبنكاتها ونوادرها الظريفة التي سرعان ماتنتشر في البلاد ، وتتناقلها الصحف ، حتى اصبحت تتمتع بشهرة واسعة تجاوزت حدود بلغاريا الى اطراف المعمورة وقد تم اعلانها عاصمة للدعابة في العالم ، يجتمع فيها « الغابروفيون » باقرانهم من اهالي بلدة « ابردين » في سكوتلاندا ليطلقوا نكاتهم الطريفة ويلفقوا نوادر وفكاهات عن الحرص والطمع والبخل ، يجدر بالانسان ان يسمعها ليضحك من الاعماق .

يستمر هذا المهرجان عادة عشر ايام متواصلة ، ويشترك فيه ظرفاء من مختلف انحاء العالم ، يروي كل منهم مافي جعبته من نوادر ونكات غالبا ما يكون موضوعها الرئيسي هو البخل والبخلاء ، غير ان نكات ونوادر « غابروفو » المتعلقة بهذا الموضوع تبقى من اظرف واجمل تلك النكات والنوادر ، اذ يروي اهل « غابروفو » على سبيل المثال ان احد البخلاء قطع ذنب قطته كي لايتسرب الدفء من الغرفة في ايام الشتاء عند دخول القطة او خروجها .

ويستطيع المرء ان يستمتع بمئات ومئات النكات الرائعة التي ابدعها خيال « الغابروفيين » عن هذا الموضوع وغيره . ولايعقد البلغار جلسة للمرح الا ويروون فيها عشرات النكات الغابروفية .

انواع الدعابة

يكرس كل فن جزءا منه للدعابة ، فالتصوير يكرس الكاريكاتير ، والمسرح الكوميديا ، والموسيقا المقطوعات المرحة ، والادب النوادر والطرف والشذرات المأثورة ... وكذلك القصص والروايات الضاحكة .

ان مايهمني التوقف عنده هو « الشذرات» المأثورة التي تتميز باقتضابها، وعمق مدلولاتها ، وقدرتها على البقاء ، اذ يتوارثها البشر عن بعض خلال القرون ، ذلك لانها تعبر بحكمتها وبلاغتها عن معان جليلة ، متحاشية الشرح المطول ،مكتفية بالتلميح ، تلفت نظر الانسان بتركيزها الشديد الى موضوع معين ، فتجعله يفكر فيه ، كي يجد له حلا ، او يصل الى نتيجة .

تتمتع لغة هذه « الشذرات » بصفات خاصة ، اذ تكون كلماتها قليلة وواضحة وبليغة ، لاتحتمل اية اطالة ، فهي تقال في الشارع، او يستعملها الانسان لشرح قصد ما في اثناء الحديث ، او في الخطابة ، وهي تختلف بالطبع عن الحكم والامثال ، وكنا قد اوضحنا ذلك في مقال مفصل نشرناه في مجلة « المعرفة » .

النادرة

تكون النادرة عادة على شكل قصة صغيرة تروي حادثة غريبة ، وترتبط ــ على الاغلب ــ بشخصية مشهورة . او هي بكلمات اخرى قصة قصيرة تعبر عن حادثة نموذجية بقالب ضاحك . وقد ظهرت النادرة منذ اقدم

الازمنة ، غير انها عرفت بهذا الاسم في عهد الامبراطور البيزنطي « جوستينيان » ، حيث كان يعيش في ايامه المؤرخ الشهير « بروكوبي » الذي خلف لنا كثيرا من النوادر التي تقص علينا حوادث نموذجية من حياة هذا الامبراطور وزوجته ، وتعطي القارىء فكرة عن المجتمع البيزنطي وعن مفاهيم ذلك العصر وقيمه .

كان « بروكوبي » يعتبر الامبراطور « جوستينيان » احد اكثر الاباطرة البيزنطيين حكمة واهتماما بالثقافة ، وكان مصيبا في هذا الرأي ، فقد شهدت « بيزنطة » في عهد هذا الامبراطور نهضة عمرانية عظيمة . من آثارها كنيسة « القديسة صوفيا » التي اشتهرت برشاقتها وجمال هندستها كما عرف عن « جوستينيان » اهتمامه العظيم بتدقيق الحقوق الرومانية واعادة النظر في قوانين المجتمع البيزنطي ، وقد جمع من اجل ذلك اكبر الاختصاصيين الحقوقيين في عصره ، وكلفهم بانجاز تلك المهمة الضخمة ، ومازال الحقوقيون الى يومنا هذا يعترفون له بهذا الفضل الكبير على علم القانون . ولما كان المؤرخ « بروكوبي » مقربا من الامبراطور « جوستينيان » ، وقد قضى حياته في كتابة تاريخه ، وتسجيل مآثره ، فقد تسنى له ان يطلع على الجانب الاخر من حياة هذا الامبراطور التي كانت لاتخلو من مباذل ومضحكات ، فما كان منه الا ان الف في السر كتابا بعنوان « نوادر » تحدث فيه عن ذلك الجانب من حياة الامبراطور ، كما تعرض لشخصية الامبراطورة التي كانت تقيم علاقات مع العديد من رجال البلاط والخدم .

اخفى « بروكوبي » هذا الكتاب عن اعين الاخرين طوال حياته ، وحفظه في مكان معين امين ، وهكذا ظل مخطوط « النوادر » بعيدا عن متناول الناس الى مابعد وفاة مؤلفه ، اذ عثر عليه القوم فنسخوه وتداولوه سرا ، خشية نقمة ابناء « جوستينيان » واحفاده الذين كانت حياتهم مثل حياته لاتخلو من مفاسد مخجلة وبقي الامر كذلك فترة من الزمن ، ثم ضاع اثر هذا الكتاب ، الى ان اكتشف المؤرخ الايطالي « اليمان » في القرن السابع عشر نسخة عنه طبعها ونشرها تحت العنوان نفسه :

« نوادر » . واصبحت كلمة « نادرة » منذ ذلك الحين تعني في اللغات الاوروبية القصة القصيرة التي تروي حادثة نموذجية وقعت لشخصية معروفة . وقد الف العديد من المؤرخين والادباء الاوروبيين في العصور الوسطى آثارا تحت عنوان « نوادر » نذكر من بينهم « بيترو الفونزا » و « بادو براتشوليني » و « فيريليو » و « باوولي » وغيرهم .

ان الشعوب الآسيوية قد عرفت هي الاخرى النوادر ولكن على طريقتها ، اذ كان الفرس القدماء يتناقلونها شفهيا ، الى ان جمعها وسجلها بعض مؤرخيهم ، كما اغرم الهنود برواية النوادر عن مشاهيرهم ، وكذلك الترك والشعوب القوقازية ، وقد علمت من اصدقائي العرب ان في كتب الادب العربي كثيرا من النوادر والطرف الجميلة التي اتمنى او يساعدني الوقت على ترجمتها الى لغتنا البلغارية . ولاشك في ان نوادر كل امة تتميز عن نوادر الامة الاخرى بما يلائم طبعها وذوقها ، ويعبر عن مفاهيمها وعاداتها وتقاليدها ، ويرتبط كل ذلك طبعا بالعصر الذي حدثت او نسجت فيه النادرة وبشخصيات ابطالها ورواتها .

النكتة

اذا كانت النادرة ذات طبيعة ادبية ــ تاريخية ، فان النكتة هي من طبيعة اخف والصق بالضحك . فهي تهدف الى اشاعة البهجة دونما اهتمام بما هو تاريخي او نموذجي . كما وانها غالبا ماتكون من وضع خيال مرح لاتهمه الحكمة الباقية بقدر ماتهمه البهجة الآنية . وقد تكون النكتة بلهاء في بعض الاحيان ، غير ان ذلك لايهم اذا ما كانت مضحكة . فهي تختلف عن النادرة التي تظل تهدف الى قول شيء جدي . واذا ما كانت النادرة كثيرا ماترتبط بسيرة اشخاص معروفين فان النكتة تتناول حياة كل الناس : النساء والرجال والاطفال ... وحوادث الزواج والطلاق .. والمدمنين والحمقى والجهلة والعلماء والمعلمين والاطباء .. وغيرهم . اما لغة النكتة فانها لغة الشعب المحكية وليست لغة الادب . وقد قال الكاتب

الانكليزي « هـ . بيرسون » : « النكتة هي نتاج العقل الذي يخترعها او يحبكها ، اما الدعابة فانها نتاج القلب ، ومن طبيعة النكتة انها تضحكنا على حساب الاخرين ، ولاندري ما اذا كان ذلك من الديموقراطية في شيء » .

الطرفة

لعل الطرفة هي النادرة القصيرة التي تتميز ببلاغتها ودقتها واصالتها وروايتها لشيء فريد من نوعه ، وهي تثير فضولنا واستغرابنا وانتباهنا، وقد تبعث على الاعجاب او الدهشة او الابتسام ، لكنها تظل بعيدة عن اجواء الضحك .

مبدعو الدعابة

عندما نتحدث عن فن الدعابة ليس في وسعنا ان نتجاوز الحديث عن مبدعي هذا الفن ، فلا شك ان لكل دعابة مؤلفها ، رغم اننا لانعرفه في في معظم الاحيان . ويبقى السؤال التالي: هل الحوادثالتي ترويها النوادر صحيحة ، اي هل حصلت فعلا ؟ الجواب على ذلك هو ان بعض تلك الحوادث صحيح ، وقد حصلت فعلا لبعض الاشخاص المعروفين . اما بعضها الاخر فهو ملفق ، ومن اختراع الخيال . كما وان هنالك نوادر يكون فيها هيكل الحادثة العام ، او جزء منه قد وقع فعلا ، ثم اتى الخيال ليلعب دوره ، ويكملها من عنده . ولاشك في ان هنالك ، فيما يخص هذا الموضوع ، ما هو اهم من الحقيقة المادية كما يقول الحقوقيون . فليس المهم بالنسبة للنادرة ان تكون حادثتها قد وقعت فعلا ، وليس المهم ان تكون تفاصيلها حقيقية تماما ، ما دام بالامكان حدوث كل شيء ، فالاهم هو ان تكون النادرة في النهاية جذابة ومشوقة . ويقول الباحثون في هذا

المجال : ماقيمة ان تكون النادرة واقعية ام من صنع الخيال ؟ أو بين بين ... مادام الادب كله يعتمد قليلا او كثيرا على الخيـــال ... ومادامت النادرة او الطرفة قادرة على تحقيق هدفها في امتاع الناس ؟

في بعض النوادر يذكر عادة اسم الشخصية التاريخية التي وقعت لهـــا الحادثة التي ترويها النادرة ، وما الحرص على ذكر اسم الشخصيـــــة في رأينا سوى من اجل تأكيد وقوع تلك الحادثة . وكذلك هو الامـــــر بالنسبة للشذرات المأثورة ، فلنفترض مثلا اننا روينا الشذرة المأثـــورة التالية : « اذا تزوجت تندم ، واذا لم تتزوج تندم » ، دون ان نذكر اسم قائلها ، فقد تبقى بالنسبة للمستمع جملة عادية رغم مافيها من معاني قد تستحق التفكير ، ولكننا عندما نسند هذه الجملة الى « سقراط » مثلا ، فانها تكتسب مزيدا من الاهمية ، ويعظم تأثيرها اذ يعلمون ان قائلها حكيم جليل ترتبط باسمه افكار وآراء عظيمة .

اذا ما استعرض الانسان الصفحات المكدسة عبر القرون من النوادر والطرف والشذرات الادبية لابد له من ان يكتشف ان الهدف الرئيسي منها هـــو تربوي اكثر من ان يكون تاريخيا ، وانها بسبب اقتضابها ورشاقتهـــا قد انتقلت من فم الى فم ، ومن مخطوط الى مخطوط ، ومن كتاب الـــى كتاب ، ومن بلد الى بلد حتى وصلت الينا . وقد تعرضت هذه النوادر والطرف في رحلاتها الطويلة الى كثير من التغيير ، وضاعت اسماء مؤلفيها كما خضعت لامزجة واهواء الرواة والناسخين ، وتبدل ابطالها ، وليس كل ذلك بالامر المهم او الخطير ، ذلك لان ذكر اسماء مؤلفي تلك النوادر والطرف ، او الاشارة الى ابطالها الحقيقيين في حالة وجودهم لايؤخـــر ولايقدم بالنسبة لمغزى وهدف النادرة ، غير اننا لانستطيع الادعاء بـــأن كل النوادر قد تعرضت الى مثل هذا التغيير ، وفقدت اسماء ابطالها ، ذلك لاننا لانزال نعتقد ان بعض النوادر المرتبطة باسماء معروفة مثـــل : سقراط وديوجين وغيرهم هي نوادر حقيقية .

ان كثيرا من النوادر والطرف التي ابدعتها شعوب اسيا قد انتقلت كما هي ، او بقليل من التحريف ، مع تغيير اسماء ابطالها الى شعوب اوربا ، حيث نجدها في ادبيات تلك الشعوب ، او نصادفها في مؤلفات كتابها المعاصرين . وان برهاننا على ذلك هو ان كثيرا من نوادر « جحا » العربية موجودة في التراث الشعبي التركي وقد اسندت الى « نصرالدين خوجة»، او في التراث الشعبي البلغاري مروية على لسان جحا البلغار « خيتر بيتر»، او عند الالمان مزعومة لشخصيتهم الفكاهية « اولينشبيغل » ، او عند الروس مسندة الى « بالاكيريف » وكذلك عند الايطاليين الذين جمعوها في كتاب « فامبرنامو » ؛ وعند غيرهم من الشعوب ... وهكذا نجد ان النوادر والطرف تنتقل من ارض الى ارض ، ومن شعب الى شعب ، وتعيش في كل العالم .

عندما نتحدث عن معلمي الدعابة ومبدعي الشذرات المأثورة لابد لنا من ان نتعرض لذكر بعضهم ، وهم كثيرون في التاريخ ، منهم بعض ندماء الملوك ومهرجو قصور السلاطين والاباطرة والقياصرة .. وكذلك كوميديو العصر الحديث .

لقد ظهر اوائل مهرجي القصور ايام الحروب الصليبية ، وكانت مهمة هؤلاء المهرجين هي اضحاك سادتهم بالحركات والنكات والاغاني المضحكة . وقد كانت حياة هؤلاء المهرجين بائسة فعلا ، اذ كانوا يجلسون مع الكلاب امام اقدام السادة ، غير ان بعض هؤلاء المساكين كان ذكيا ولبقا وعاقلا ومتعلما . واهم من كل ذلك ان بعضهم كان يتمتع بجراة ادبية رائعة ، فكان امثال هؤلاء يجدون الطريقة المناسبة ليقولوا لسادتهم اشياء لا يجرؤ احد على قولها في وجوههم .

في القرن الخامس عشر الميلادي كان الجميع الملوك والسلاطين والامراء مهرجوهم الذين كانوا يرتدون الالبسة المزركشة والملونة والبهيجة ، وعلى رؤوسهم القبعات التي تتدلى منها الاجراس التي ينبعث منها رنين يشبه رنين اجراس الكلاب . ولعل تلك الحياة البائسة كانت تدفع بهؤلاء

المهرجين الى عدم التقصير في اطلاق النكات ضد اسيادهم الجبابرة الظالمين .

كان المطلوب من المهرج ان يكون احمق وحكيما ، بسيطا وشاعرا ، في آن واحد . وقد خلف هؤلاء المهرجون كثيرا من النكات والطرائف التي مازالت تروى الى يومنا هذا دون ان يعرف احد اسماء مؤلفيها ، وقد اشتهر من بين هؤلاء المهرجين « ارلوتو » الذي عاش في بلاط الامير الايطالي « بورجيا دي فيراري » والمهرج « تريبولا » الذي عاش في بلاط اكثر من ملك من ملوك فرنسا ، وغيرهم من المهرجين الذين اشتهروا بشجاعتهم وحدة ذكائهم .

في احدى المرات شكا « تريبولا » للملك ان رجال القصر يهددونه بالقتل ، فقال له الملك مطمئنا :

ـ لاتخف ياتريبولا ... اذا حدث ذلك فعلا ... وقتلوك ... فانني سآمر باعدامهم جميعا .

فما كان من المهرج الا ان قال للملك :

ـ ولماذا لاتصدر هذا الامر منذ الان يا صاحب الجلالة كي اطمئن حقا ؟

وفي مرة اخرى سأل الملك مهرجه « تريبولا » :

ـ ما رأيك ياتريبولا في ان نتبادل اعمالنا ؟ فتصبح انت ملكا وانا مهرجا ؟

فاجابه المهرج :

ـ لست موافقا ياسيدي .

فسأله الملك :

ـ ولماذا ياتريبولا .. الا تريد ان تصبح ملكا ؟

فقال المهرج :

ـ اريد ان اصبح ملكا ... لكنني لا ارغب في ان يكون لي مهرج مثلك .

وكان القياصرة الروس شديدي الحرص على وجود المهرجين حولهم ،

فقد كان في قصر بطرس الاول عدد كبير منهم ، وكان يميل الى مداعبتهم وممازحتهم . وقد اشتهر من بينهم مهرج يدعى « بالاكيريف » بخفة دمه وذكائه الحاد .

هذا في العصور الوسطى . اما في العصر الحديث فان كوميديي المسرح والسيرك هم الذين يحملون لواء الدعابة ، ويعملون من اجل تطويرها ، ويمكن تقسيم هؤلاء الى فئتين : فئة منفذة تقوم باداء مايسند اليها من ادوار ، واخرى تسهم في ابداع واغناء الدعابة .

وبودي ان اشير هنا الى الدور الهام الذي يقوم به الممثلون الكوميديون في خدمة هذا الفن ، وان اصعب مافي مهنتهم — كما اعتقد — هو رواية الشذرات الفكاهية ، فكما هو الامر بالنسبة لفن الغناء ، اذ نعرف جميعا انه ليس في وسع اي انسان ان يصبح مطربا ، كذلك هو الامر بالنسبة لفن رواية النكات والنوادر ، فقد قال تريستان برنار ان راوي الشذرات المرحة يجب الا يختار من بينها ماهو اميل الى الحكمة ليقوله على مائدة الطعام ، في حين يكون ذلك اصلح للرواية مع ارتشاف القهوة .

اجل .. ان فن رواية النكتة هو موهبة قائمة بذاتها ، وهذا ما نلاحظه في حياتنا اليومية ، فكثيرا مايفشل انسان في رواية نكتة ما بسبب كلمة زائدة يستعملها ، او وقفة غير ضرورية يتقصدها ، او سماجة في شخصه تمنعه من ان يكون راويا ناجحا للنكات والنوادر ... وليس اسوا من ان يبدا انسان ما يرغب في رواية نكتة حديثة قائلا : سوف احكي نكتة رائعة ... او ان يشرع بالضحك قبل روايتها .

تجارة الضحك

قرات في احدى المجلات اعلانا لرجل امريكي اسمه « ديف فريدمان » يقول فيه انه يملك مجموعة ضخمة جدا من النوادر والنكات والكلمات المأثورة يمكن للناس الاستفادة منها لمختلف الاغراض لقاء مبلغ يتفق عليه ، وعلمت ان مصورا في مدينة « فيينا » يقول انه قد قرا في حياته اكثر

الطرفة م — ١٣

من مليوني نكتة اختار من بينها مائة وخمسين الفا ، جعل لها ارشيفا خاصا في بيته ، بوبه حسب المواضيع ، فهذا رف لنكات عن السياحين ، وذلك لنكات عن البخلاء ، واخر عن الازواج الذين يخونون زوجاتهم ... الخ .. وقرات ايضا عن اخوين امريكيين اسسا شركة للتجارة بالنكات ، جعلا لها مقرا ، ووظفا في خدمتها اناسا يقومون بجمع النكات ، واخرين يسهرون على ارشفتها وتوبيبها .. حتى انهما استطاعا جمع اكثر من ستة ملايين نكتة . وقد وضعا كنزهما هذا في خدمة كل من يرغب في الاستفادة منه لاغراض الدعاية او المسرح او السينما .. او اي غرض اخر لقاء مبالغ معينة .

اما الكاتب الانكليزي الضاحك « ب . ك . فيتهاوز » فقد كتب يقول : « ان الضحك ضرورة حيوية للانسان ، ففي هذا العصر المعقد والمضطرب، يجب ان يمتلك الكوميدي الناجح شمسا في قلبه كي يحمل الدفء الى قلوب الاخرين من اجل ان يكونوا اشجع واكثر انفتاحا على الحياة . هذه هي مهمة الدعابة في نظري » .

رباب تعتزل الرسم

قصة : محمد يوسف القعيد

رباب فتاة صغيرة ، ما ان ذهبت الى المدرسة ، حتى اصبحت معروفة في البندر . وكل القرى المجاورة للبندر ، وفي الناحية والمحافظة كلها . والدها هو مفتش الري في المركز وهو ليس من ابنائه ، وامها من بلاد بعيدة ورباب كانت قطعة من الجمال الذي يتحرك على قدمين . وكان يمكن ان ينتهي الامر عند ندرة الاسم ، وعمل الوالد وجمال الملامح وحلاوة الطفولة وما تمنحه لصاحبها من بكارة . لولا ذلك اليوم . الذي حضر فيه مدرس مادة الرسم لاول مرة الى مدرسة البندر . وبعد حضوره . طلب من الاطفال . ان يخرج كل منهم ورقة وقلما . وان يرسم بحرية تامة ما يدور في ذهنه . وبعد وقت طويل من الصمت والرسم . مر مدرس الرسم . الذي كان فنانا في شبابه . وسط التلاميذ حملق في الصور . وسأل واستفسر عما يقصده الاطفال بالخطوط التي خطوها على الورق . وتكلم كثيرا . بكلمات لم يفهمها الاطفال عن ينابيع البكارة والبراءة الي لم تلوث بعد . والقلوب التي لم تدس فيها الاقدام الغليظة بعد حتى وصل الى التختة التي تجلس اليها رباب وهنا طالت وقفته . نظر الى الورقة المرسومة من كل ناحية . ونظر الى الفتاة . وطلب منها باختصار ان تحضر

ولي امرها معها . في اليوم التالي . احتارت رباب في السبب . وخافت ان يكون المدرس الجديد قد غضب منها لاي سبب آخر . واخبرت والدها. مر اكثر من يوم حتى وجد مفتش الري وقتا لكي يذهب ويقابل مدرس الرسم . وخلال هذه الايام . اطلت الدهشة في ذهن الرجل عن الامر الذي يحتاجه فيه مدرس الرسم بالذات . خاصة وانها مادة غير هامة . والنجاح فيها ليس شرطا اساسيا للنقل من سنة لاخرى . ولا مستقبل لها . في اللقاء . انطلق مدرس الرسم . بعد ان اشعل البايب . ووضع يده اليمنى في جيبه الايمن . ويده اليسرى في جيبه الايسر . انطلق يتحدث عن الموهبة التي تكتسح كل ما امامها مثل الطوفان . وعن الخلق والابداع وقال ان رباب لو وجدت الظروف المناسبة لتفتح موهبتها . لتحولت الى فنانة نادرة لا يجود الزمان بمثلها . من السهل تخريج الاطباء . تعليم المهندسين . ايجاد الموظفين . ولكن الفنان الحقيقي ــ قال مدرس الرسم بحماسة اخافت مفتش الري ــ لاياتي الى هذا العالم الا كل مائة سنة مرة واحدة . نظر مفتش الري الى مدرس الرسم نظرة ميتة ، عارية من العاطفة وتساءل :

ــ وما المطلوب مني ؟

تكلم مدرس الرسم . عن الجو المهيأ . والمناخ الملائم . ورؤية اللوحات . وقراءة تاريخ الفن والعثور على ذات الانسان من خلال بحثه عن طريقة ابداع معينة .

قاطعه المدير بسؤال :

ــ وإلام يؤدي هذا كله ؟ .

خرج مفتش الري وهو نصف مقتنع ونصف رافض لكل ما قاله مدرس الرسم . بعد انصرافه . قال مدرس الرسم لنفسه . ان الرجل غامض . ولا اعرف ماذا يدور في ذهنه . في الغد ساقول النصيحة الاخيرة لرباب . لكي تتصرف هي بعد هذا . وفي الغد . قال لها : ان كل ما يطلبه منها ان تنظر في اعماق نفسها جيدا . وان تحاول رؤية ما حولها بنفس الطريقة . لم تمسك بالقلم وترسم بحرية تامة ما يطرأ على ذهنها ويلح عليه . وان

لا تطيع سوى ذلك الصوت الآتي من اعماقها .. صوت القلب الاخضر دون سواه .

مفتش الري عندما وصل الى البيت نادى على رباب . وجلس أمامها وطلب منها ان ترسم له صورة . وهو جالس هكذا في البيت . رباب قالت انها سترسم له صورة وهو في المكتب . كما راته هناك . في المرة الوحيدة التي حضرت فيها الى مكتبه .

كان المدير يجلس على مكتبه . تبدو عليه سيماء الاهمية والخطورة والهيبة والهمة . وفي يده قلم ضخم . والمكتب يبدو اجمل من الواقع الف مرة . نظر الى الصورة وتساءل :

ــ لماذا تركتني بدون سكرتيرة ؟

رسمت السكرتيرة . حسناء رشيقة . الشعر في اصفرار القمح وقت الحصاد . والعينان في زرقة سماء الصيف الصافية . لا تتعدى العشرين من العمر . وكانت تميل على المدير . لتعرض عليه بعض الاوراق . وقد تدلى صدرها الناهد . فاقترب من فتحتي انف المدير . الذي بدا في الصورة وكانه يشم رائحة جلد السكرتيرة . بانت مقدمات الرضا على وجه الاب . وقال لها :

ــ هلّ تتركين والدك بدون ساع .

طلب منها ان ترسم ساع . مخلوق متعب ، رث الثياب ، سترته شربت عرق العمر كله ، ذقنه طويلة . حذاءه مفرطح . ويبدو جسمه مثل الهرم المقلوب . قالت له : لماذا ترسم عمي سرحان ــ ساعي والدها الفعلي ــ بهذه الصورة . انه رجل طيب . يسيل الرضا من حياته . جلبابه في بياض الحليب . دائما نظيف . يشرب من فوقه العصور . قال لها والدها: ان عم سرحان استثناء . انه ابن ناس غدرت به الايام . أما معظم السعاة فعلى الصورة التي قالها لها . ناقشته . رد عليها . اخذهما الكلام . وهنا دخلت الام . ونظرت الى الصورة وما ان شاهدت صدر السكرتيرة الناهد . وفتحتي منخار الزوج . حتى تحول النقاش الى معركة بين الاب الذي

تحول الى مجرد زوج . والزوجة التي ضبطت زوجها وهو يفكر في غيرها.
ــ اخذتني لحما . وها انت ترميني عظما !

قالت الام وهي تصرخ ؛ اوضح الرجل الامر . قال ان رباب هي التي رسمت الصورة . هجمت المراة على رباب وعلى الصورة . رباب اكلت علقة والصورة مزقتها . واصبحت اكبر قطعة ورق في حجم كف رباب الصغيرة . واقسمت رباب ان لا تعود الى الرسم مرة اخرى . لانه جر عليها كل هذه المتاعب .

في اليوم التالي . وجدت نفسها ترسم صاحب العزبة القريبة من البندر . والذي قضت العائلة كلها يوما كاملا في ضيافته . لا لانه يحب والدها . ولكن لان والدها يملك ان يسهل له بعض الامور في مسائل الري بالذات . رسمت صاحب العزبة . اقطاعي تقليدي . لم تغيره كل هذه السنوات . الكرش الضخم . واللحم المتهدل على الوجه والعروق النافرة . وما ان اكتملت ملامحه وسمعت صوت تنفسه في الصورة . حتى صاح فيها . وقال لها : انه لم يحدث من قبل . ان وجد صاحب ارض . ابا عن جد . ومعه الارض . ولكن بدون فلاحين وعمال زراعة وأنفار وخفير بالليل وخادم بالنهار . فكرت رباب في الامر . وجدت ان من حقه فعلا . ان يكون له ما يطلبه . رسمت له من كل نوع طلبه فردا واحدا . فلاح . عامل زراعي . خفير . خادم . رسمتهم بأحجام صغيرة . وفي اماكن متفرقة من اللوحة . حيث يبدو الاقطاعي بحجمه الضخم . والمكان الذي يحتله . اكبر منهم جميعا . وبمجرد ان انتهت من رسمهم . واكتملت ملامحهم . حتى أصبحت لهم مطالب . البيوت التي يسكنون فيها . الطعام الذي يأكلونه . الملابس التي تستر عريهم . النقود التي ينفقونها . صاحب الارض صاح فيهم ؛ كيف تكون لهم مطالب قبل ان يعملوا . لا يمكن صرف الاجر مقدما ابدا . ولكنهم ردوا عليه ان الجائع لا يستطيع العمل . وهم في حاجة الى الاجر . ليشتروا الطعام . وبعد الاكل سيعملون بكل طاقتهم فورا . أصر صاحب الارض ان يعملوا أولا . ثم يحصلون على الاجر . واصروا على الطعام اولا . ثم يعملون . تحول النقاش الى شجار .

تماسكوا بالايدي . ومن ضخامة العراك . تمزقت اللوحة . وضاع جهد رباب . ولكنها هذه المرة كان بداخلها حب استطلاع . من نوع جديد . كانت تريد ان تعرف كيف انتهت المسالة . ومن كان على خطأ . ومن كان على صواب . هذه المرة . قالت انها ستواصل الرسم . مهما كانت الظروف . وقالت انها سترسم بعض الموضوعات البعيدة عن البندر وعن حياة البيت وعن الناس الذين تعرفهم . ابتعادا عن المشاكل التي تحدث بعد كل صورة . وقررت ان ترسم حاكم البلاد . وبعد ان رسمته ، صاح فيها :

ـ ساحكم من ؟

اكمل : ان الحاكم بدون شخص يحكمه لا عمل له . وان ظل هكذا . سيكون حاكما ولكن مع وقف التنفيذ . قالت رباب لنفسها : لا احد يرضى بحاله ابدا رسمت له شخصا يضرع اليه ويطلب منه ويستاذنه قبل الاكل والنوم والذهاب الى دورة المياه كان محكوما مطيعا . نظر الحاكم اليها . وقال : ان اللعبة مملة . انه محكوم سلبي . وهو يريد محكوما به قدر من الحيوية . يقول « نعم » مرة . ويقول « لا » مرة اخرى خاصة في الامور غير الاساسية اي المسائل الجانبية غير الهامة . ومن الممكن ان احدد له المسائل التي يقول فيها نعم . والمسائل التي يقول فيها لا . وبهذا تكتسب اللعبة ابعادا جديدة . ويذهب عنها الملل . ونستطيع ان نواصل اللعب فترة طويلة . رسمت له محكوما مشاكسا . وكان الامر في غاية البساطة . رسمت المحكوم وبعد ان انتهت من ملامحه الخارجية . رسمت داخل جمجمة الراس ذهنا يستعمله وقت الحاجة . والحاكم حدد للمحكوم الامور التي يقول فيها نعم . والامور التي يقول فيها لا . والامور التي يستخدم فيها ذهنه . وتلك التي لا يفكر فيها من الاصل . واتفقا معا على العقوبات التي ستوقع على المحكوم في حالة ارتكابه اي خطأ . او خروجه على ما اتفقا عليه . في اليوم الاول . اخطأ المحكوم . فنفذ الحاكم ما اتفقا عليه . وهكذا وجد المحكوم نفسه في السجن . ضاق بالجدران الاربعة . وقال لرباب في حيرة :

ــ لم اتيت بي لعذاب السجن ؟.

اكد لها ان مجرد دخوله اللعبة كان مؤامرة منها . وكل ما يطلبه منها الآن . ان تنهي هذه اللعبة الغريبة فورا . حاولت رباب التوفيق بينهما . وعندما تأكدت ان ذلك مستحيل . وعلا الصراخ . المحكوم يطلب الخروج من السجن . والحاكم يطلب محكوما آخر . لانه بعد ان سجن المحكوم الاول ، عاد الى الفراغ والملل . وهو يطلب الآن محكوما جديدا . يمشي على الخط المرسوم . ولا يخرج عنه . وأن يعمل ضمن الاطار العام . وإن اختلف . فيختلف ولكن من تحت مظلة الحاكم نفسه . ومن ضيق رباب من صراخ المحكوم السجين. وغضب الحاكم. مزقت اللوحة. ورمت اوراقها في الارض . ومرت عليها ايام لم ترسم فيها . كادت ان تنسى عادة الرسم الى ان اتاها شقيقها الذي يحلم بأن يكون ضابطا . في يوم من الايام . قال لها : انه سمع في المدينة كلها. ان اخته فنانة كبيرة. ينتظرها مستقبل لا حدود له. وان لوحاتها ستكون في خلود الاهرامات. طلب منها ان ترسم له جنديا. الجندي الذي سيقوده في الميدان عندما يصبح ضابطا كبيرا ليحرر الارض المحتلة. ويبعد الاعداء عن حدود البلاد. رسمت له الجندي. أسمر وصلبا وعملاقا . وبعد ان انتهت من رسم شاربه الذي يقف عليه الصقر. وحذاءه الميري الضخم . والنسر في منتصف البيريه من الامام . قال لها اخوها :

ــ اين مدفعه ؟

بدات ترسم المدفع في يد الجندي . فاعترض الجندي . اشار للتليفزيون وراء رباب. وللراقصة التي استمرت ترقص ربع قرن من الزمان واكتشفت في آخر الايام موهبة الغناء وجمال الصوت فجمعت الفنين والرقص . وقيل انها المرة الاولى في تاريخ البلاد التي تجمع فيها فنانة بين موهبتين معا . كانت الراقصة تغني . .

ــ الحرب فنش . . الحرب فنش .

قال شقيق رباب :

ـ ولكن الارض ما زالت محتلة .

رد الجندي :

ـ قادتي اصدروا لي تعليماتهم . لا حرب بعد اليوم .

تساءل شقيقها :

ـ والاعداء ما زالوا يتربصون بنا .

قال الجندي :

ـ الاعداء لاحصر لهم . وهم على الحدود . وفي الداخل . من الامام ومن الخلف . ولكن الاوامر . والاوامر قالت بالحرف الواحد : لاحرب بعد اليوم .

قالت رباب :

ـ المدفع لن يضر ..

اكمل شقيقها :

ـ ومن الممكن استخدامه في الاستعراضات والمواكب . ولحفظ الامن الداخلي .

قال الجندي، انه ما دامت الحرب فنتش . فوجود المدفع خطر . ولا يضمن هو ما يترتب على وجوده معه . ترددت رباب . واصر الاخ . قال ان جنديا بدون مدفع مسالة محزنة . وقال الجندي . أن مدفعا بدون هدف يوجه نحوه يعد خطرا عليكم . وحسمت رباب الموقف .. رسمت المدفع الرشاش بيد الجندي . وقربت احدى عيني الجندي من قاعدة التنشين وجعلت قاعدة المدفع مغروسة في تجويف الكتف اليمنى للجندي . قال الجندي لنفسه : ما دام معي لابد من استخدامه . وما دامت التعليمات تمنعني من استخدامه ضد الاعداء الذين امامي . فلأستخدمه اذن ضد الاعداء الذين خلفي . حتى يأتي يوم . املك ان أقرر فيه . ضد من

استخدمه . في لمح البصر . استدار الجندي مصوبا المدفع ناحية شقيق رباب واطلق سبع رصاصات . استقرت في جسد الفتى .

في المحكمة ، كانت تهمة رباب انها رسمت الجندي . الذي لم يمتثل لقول ان الحرب. فنش . وعصى الاوامر. واطلق النار. وقتل الصبي الصغير. وخفف من العقوبة ان الفتى الصغير . يحلم بأن يكون ضابطا . في زمن غير مطلوب فيه الاكثار من هؤلاء الضباط . الذين يتحدثون عن الارض المحتلة وتحرير الاوطان . وتطهير حدود البلاد من قوافل الاعداء ودنسهم. وعندما وقفت رباب في قاعة المحكمة . وقالت انها تعلن بكامل رغبتها اعتزال الرسم . وانها لن ترسم بعد اليوم . مهما كانت الظروف وانها كسرت الاقلام . وسكبت الالوان ومزقت الاوراق . واصدرت لذهنها امرا بأن يحبس خيالها في قمقم يوضع في صندوق . يخبأ في الارض السابعة تحت البحر . فرح القاضي . واشار لكاتب الجلسة ان يأخذ على رباب اقرارا بخط يدها . تقول فيه بوضوح انها اعتزلت الرسم من الآن. بناء على رغبتها . احضر الكاتب القلم والاوراق . وتقدم الى رباب لكي تكتب الاقرار المطلوب . وفي هذه اللحظة فقط اكتشفت انها بدون يدين . وعندما سألها عن اليدين . قالت انهما خلقتا للرسم فقط . وليس لهما عمل آخر غير الرسم .. وعندما قررت اعتزال الرسم . اختفيا . ولكن عندما تقرر الرسم من جديد . وعندما تنوي ان ترسم الجندي الذي عليه ان يقرر مصيره بنفسه دون وصاية من احد . في هذه الحالة . ستجد يديها رهن اشارتها . وهي تعلن على الملأ بصوت عال . انها تعتزل الرسم . وان هذا يغني عن الاقرار المطلوب ■ .

شموع عيد الميلاد

قصة : سميح عيسى

« ... اليوم ساقتل البرد اللئيم المعشش في ضلوعي وعروقي . واشتري مكنسة جديدة ، واتوجه الى عملي الاولي بنفس رضية حتى يغيب القمر ، وتغفو نجمة الصبح بين اخواتها . وتشرق الشمس من جديد .... »

ـ بابا .. بابا !!

ـ نعم .. يا عين بابا .. خير ان شاء الله .. !!

ـ س .. سؤال : كم صار عمرك ؟!

ـ عمري .. ؟ !! انا .. !! ؟

... وراحت الابنة الناعمة ـ ياسمين ـ تداعب شعر ابيها الاشيب وتلامس بأناملها الرقيقة فوديه ووجنتيه .. وكانها تعد سنوات حياته سنة بعد سنة ، على انغام لحن هادىء رزين قد تاه على درب الحياة ، وفي اروقة تعب مزمن خدّر النضارة والشباب وسربل بالوان احلام انساحت قبل أن تختزن . وامنيات انصهرت في الرطوبة والفقر

ـ اين انت يا بابا ..؟! سؤالي لا لبس فيه ولا غموض .. لماذا تحار ..؟

تصمت .. تفكر .. تتمتم .

وطبعت ياسمين قبلة حلوة على جبين ابيها .

رفيقة عمره ـ ولادة ـ ام فهد كانت تراقبهما بحذر ودهشة .

دارت على نفسها .. ابتسمت في وجه ياسمين .. وزرعت في عينيهما دفء الامومة ، وروعة الحنان .. وتساءلت بفرح :

ـ ولكن ، لماذا تسألين يا ياسمين ؟ !!

ـ اعتقد ان عمري الآن اربع عشرة سنة يا ماما .. وطوال هذه المدة لم يحتفل بابا يوما بعيد ميلاده . على الاقل كنت عرفت الجواب من عدد الشموع المضاءة فوق قرص الكاتو ..

« ـ هه .. احتفال .. كاتو .. عيد ميلاد .. وشموع ايضا ..

والله عشت وسمعت يا ابا فهد .. يا الله نشبع الخبز ..

ثم .. هل ابقى عبدة الشموع شموعا لامثالي .. ؟!

هل ترك الفقر والقهر والمرض ضحكة واحدة اسلو بها يوم ميلادي ..؟!!

امر عجيب حقا ، يظهر ان البنت قد اصابها مس أو جنون . »

اطلق ابو فهد ضحكة مثقلة بالسعال ، ومشحونة برذاذ البلغوم .

« الضحكة الهرمة عبرت شفتيه اليابستين ... بصقت على سنوات عمره الطويلة .. وتسللت هاربة من شقوق باب البيت . وقد امتطت صهوة حصان فقد فارسه . تهادت في شوارع المدينة .. صفعت بعنف واسى وجوه شباب تائه على درب الخطيئة مع حلم طري ، وحكاية ضبابية ، وواقع انحسرت عنه المسؤولية فانساح في مزالق التيه والضياع .

امام كهوف الليل ترجلت .. قفزت الى الداخل ، واعطت كل آذانهـا لهمسات روادها وسمارها المخمورين الراقصين على ضوء الشموع وتناغم الكؤوس احتفالا بالنجاحات الكرتونية ، وابتهاجا بعقد صفقات رابحـة غير شرعية ، ورغبة بإباحية لقاءات الحب والجنس .

انعتق في داخله الصمت فطفى على الجرح العميق والبحـة المزمنـة . ومازج العين دمعا لم يجهد في حبسه .

رشقت انظاره الوسط العابق برائحة العرق والعطر والجنس ، وتعمقت تذوب في القلب الوفي . !!

وهناك على الكراسي المخملية والجدران اللامعة انغرزت صور مأساوية لطفولـة تنحسر عنهـا العيون خلف بيـارات البرتقـال السليبة اهتز الكريستال الثمين في ثريـات السقوف .. ونبضت الشموع رغبـة في الهرب .. وتحشرج السعال من جديد .. وقذف بنفسه خارجا للقاء الاحباب في مواقع البؤس والشقاء ، حيث تتصاعد ابخرة القهر والغضب .

ــ أبا فهد .. أبا فهد .. ايه ، اين وصلت ؟!

ياسمين تنتظر الجواب وانت غارق لرأسك في الضحـك والتنهيـد والتمتمة .. !! ايه ، اجب يا رجل ؟!

ــ نعم .. نعم ، امهليني قليلا .. !! كنت انظر بدقة الى صورتي المعلقة هناك . بالله عليك يا أم فهد ، انظري .. وقولي الصدق ، كيف كنـت أيام الشباب ؟!

طلعة بهية .. نضارة وجـه .. عيون واسـعة .. المكنسة على كتفي كالبندقية وسط رفاقي ، عمال البلدية المتزينين بمكانسهم الجديدة .

ــ بابا .. انا زعلت منك .. اسالك ولاتجيب !!

ــ لا .. لا ، يا حبيبتي .. لاتزعلي .. !! هاتي ورقة وقلما واكتبي ..

ــ ورقة وقلم .. ؟! لماذا .. ؟!؛

ــ لتستطيعي حساب عمري بدقة .. هل غيرت رايك ؟!

« ــ أوف .. أوف .. ماذا أقول لها .؟!

عمرها عمر برعم الوردة الجورية .. وتقف على العتبة الاولى للحياة ، ماذنبها .. ؟ ااحدثها عن رحلة الاحزان .. عن ذاك القطار الهرم ، ذي الدخان الاسود ، الذي صدات محركاته وهو يظن انه مازال شـابا يعاند حركة الزمن ..

هي تسكن في قلبي .. وتغفو بين اهداب عيوني .. اذن ، لماذا تسـال وتلح في طلب الجواب .. وتزرعني في قلب العتمة .. ؟! »

ــ انا جاهزة يا بابا .. !؛

ــ يا الله .. وانا ايضا .. وهذه سيجارة .. اكتبي يا غاليتي . !!
تململ ابو فهد في مكانه .. اصلح من استرخاء بدنه على القاطع الخشبي اسند راسه بيديه .. تنحنح قليلا .. اغمض عينيه نصف اغماضة وراح يتكلم :

ــ اولا

قالوا : ولدت في فجر يوم ثلجي عاصف من أيام كانون .. في قرية صغيرة او كبيرة لافرق .. على تخوم الصحراء او المدينة ــ لافرق ايضا .
المهم انها قرية عربية في رحاب هذا الوطن الكبير .. تعصف فيها الرياح.. ويغني فيها الفقر اغنياته السوداء .. وتعوي فيها الكلاب !!
استمر تساقط الثلوج اثر ولادتي اربعين يوما .. وصراخي استمر ايضا ليل نهار مدة شهرين كاملين ..!!

اهل القرية حوصروا داخل بيوتهم الطينية تحت سقوف التوتياء . بعضهم التجا الى الكهوف الصخرية .

اتوا على مخزونهم كله من البرغل والحمص والعدس .. وجاعوا فاكلوا الاخضر واليابس .. لم يتركوا الفتات للكلاب والقطط ، فماتت ..!!

الذئاب والطيور الجارحة سرحت عبر التلال والمروج الى قلب القرية واطرافها .. !! التهمت الجثث البشرية ، ودجاج القرية وفراخها وأوزها وعصافيرها .!

في اليوم الواحد والاربعين ماتت أمي بداء الصدر .. وأبي الشيخ الوقور لحقها بعد شهور قليلة حبا ووفاء ..!!

ــ ثانيــا

اكتبي ... اكتبي ..!!

قالوا : أم خليل ــ زوجة المختار ــ رحمة الله عليها ، حنّ قلبها في ليلة مباركة وارضعتني مدة عام كامل من ثدييها المتلئين بالحليب .!!
عشت مع اخي همام واختي علياء في بيت خالي جمال « رحمة الله عليه » حتى غدوت شابا قادرا على العمل .

لم أتعلم القراءة أو الكتابة كما يجب .. القرية لا يوجد فيها مدرسة . تعلمت عند شيخ الكتاب ــ حميدو ــ رحمة الله عليه .. كان رجلا فاضلا قاسيا .. عندما يغضب كان صوته يصل الى السماء ..!!

ــ يا الله .. ما علاقة هذا الكلام بالسؤال .. قل لها عمرك يا رجل بدل أن تحكي لها قصة أبي زيد ، وحياة حميدو .... الله يمينك يا أم فهد ..

ــ ماذا هناك يا أم فهد ..؟!

ــ لاشيء .. لاشيء .. اقول لو اختصرت في الكلام ..
امتعض أبو فهد .. زار .. هز راسه بصمت .. فرك شاربيه وتابع :
ــ ثالثا

ــ هنا مشكلة المشاكل .. يا الله .. قل ولا تبالي ..

ذات ليلة ربيعية يا ياسمين ... كان فيها القمر بدرا .. والنجوم عناقيد ذهب وفضه وماس ... والعقل في اجازة بين الاحلام الملونة .

قالوا لي : يجب أن تتزوج يا سالم .. ها قد تجاوزت العشرين .
واصبحت ابن حكومة .. والزواج سترة وحلال ..

وقتها يا صغيرتي ضحكت من قلبي .. رفضت .. فكرت طويلا تساءلت :
لماذا .. لماذا ؟!

ورحت احلم بالدفء ايام الشتاء القارسة .. وبممارسات الحب الشرعية ..

وبين سين وسوف خطبوا لي امك ــ ولادة ــ وتزوجتها في غضون عشرة ايام فقط ..

ــ ايه ، ولاّده والاسم عليها ...!! دزينة أولاد .. يا ساتر استر .

ــ بابا .. بابا !! بالمناسبة كم دفعت يومها مقدما ومؤخرا لعروسك ؟!

تضاحك الجميع .. وغزلت اهداب العيون وحبات القلوب حكايات ما كان وصار ..

وربت ابو فهد بيده كتف ام فهد مداعبا .. تنحنح طويلا وقال :

ــ سقى الله تلك الايام يا صغيرتي .. تصوري يا ياسمين أيام زمان ..!!

كان مقدّمها فرشة صوف ، وبابور كاز اصلي ــ بريموس ــ وبدلتين من نوع زفير ــ المتر منه بنصف ليرة سورية .. « أوف .. أوف » .

ومؤخرها مائة ليرة سورية حلال زلال تدفع عند الطلب ..!!

لكن والله يا ياسمين لا ابدّلها بكنوز سليمان ..!! اليس كذلك يا ولاّده ..؟!
« وراحت اصابع ابي فهد تقرص خاصرتها .. وتدغدغ رأسها على جناح ابتسامة صادقة ..

ــ اكمل يا ابا فهد حكاية الف ليلة وليلة .. قل لها عمرك والسلام على رسول المؤمنين ..!!

ــ لماذا اخلاقك ضيقة يا ولادة .. لا تصبري .. لا تطولي بالك ؟!
شو بتعرفيني ابن امير ..؟!

طول عمري كناس بلدية .. وبمكن اموت وانا اجمع زبالة البلد ..!!

« اوف ، شو الناس بياكلوا هالايام فراريج وسمك وعصافير وفواكه .. وشو بيشربوا ويسكي وعرق ..!!

ولك وبيحكوا بالمحبة والمساواة ..!! الله يعينك يا ابو فهد ..!!

« كنس .. كنس .. كنس .. الى متى يا رب !!؟ »

ـ اين وصلنا يا ابنتي ..؟!

ـ عند رابعا .. يا بابا .

ـ ايوه .. ايوه بالضبط ، سجلي قبل ان انسى .:

في عام ١٩٥٢ ـ الله يذكر تلك الايام ولا يعيدهـا ـ سجنت مدة شهر بالتمام والكمال .. ذقت الامرين حتى كدت انسى الحليب الذي

ارضعتني اياه زوجة المختار ..!!

ومن ثم فصلت عن العمل لمدة سنة .. لماذا ؟!

لاني اشتركت واخواني العمال في تظاهرة طويلة عريضة وصرخت امـام دار الحكومة : يسقط الظلم .. يسقط الفقر .. يسقط الاستبداد ..!!

في عام ١٩٦٧ دخلت السجن ايضا .. لماذا ؟!

ذات يوم حرضت كناسي المحافظة على الاضراب من اجـل رفع رواتبنا وتأمين مكانس جديدة ، وجزمات مطاطية مقبولة على حساب البلديـة وقلت حينذاك :

ان تأمين هذه الاشياء افضل بكثير من الزعيق والنعيق في الاذاعـة على هزيمة حزيران ..!!

ـ « يا الله ..!! ماذا حل بأمي واخوتي ..؟!! »

سجلي يا صغيرتي ... سجلي ..!!

ـ بابا ، ارجوك ... كم عمرك الآن ..؟! ماما حدثتني عن كل ما قلته .

ـ لا بأس .. لا بأس .. سأختصر يا ياسمين ..!!

خامسا ـ

« أوف من عام ١٩٦٩ ..!! »

« ارتجفت شفتا ابي فهد .. اطلقت اعماقه التنهدات المزمنة .

اغرورقت عيناه بالدمع .. امتقع لونه بالسواد .. لم ير امامه الا وجها واحدا واضحا تماما بين الوجوه الضبابية المحيطة به ..!!

قضم شاربه الطويل بين اسنانه ... ازاح الضعف الذي اخذ يدب في أوصاله ... وتابع قائلا » :

في عام ١٩٦٩ تسلم اخوك فهد شهادة الطب في حفل كبير في رحاب الجامعة ... لم استطع يومها الحضور ..!!

كنا بانتظاره هنا في هذا البيت .... زينا له الابواب والجدران والسلم بالبالونات الحمراء والصفراء والبيضاء .. هيأنا الشرابات والفواكه والمربيات.. وذبحنا خروفا معلوفا ، وزعنا لحمه وعظمه على الفقراء ..!!

في الطريق بين دمشق وحماه تدهورت السيارة التي تقله ..!!

ومات كل من فيها ما عدا السائق ..!!

من يومها يا صغيرتي راح الخمير والفطير .. والاول والاخير ..!!
كم وكم سهرنا الليالي الطويلة ..

امك وراء مكنتها تخيط الملابس ... وانا اصل الليل بالنهار ..
امسح واكنس حتى نؤمن له مصروفه الشهري ..

ايه .. رحمة الله عليك يا فهد ... لقد كنت ولدا بارا ... وصالحا رحمتك .. ولا غضبك يا رب .

من قلب الحزن واللوعة والاسى .. انفجر ابو فهد بالضحك وبالبكاء معا .

راحت الدموع الحمراء تحاور الضحكات المجنونة وتلتحم فيها بعنف وقوة

صرخت ولادة ـ ام فهد ـ باعلى صوتها :

ـ ما بك يا رجل .. هل جننت ..؟!

ـ ابدا .. ابدا يا ام فهد ..

« اوف .. اوف .... »

ـ يا ابا فهد ..!! اخطات ياسمين وسالتك ..!! اسم الله عليك .. اللهم اجرنا من هذا اليوم ..!!

قم .. قم يا ابا فهد .. الله يرضى عليك .. الماء يغلي على البابور والاولاد على وشك الوصول من السينما ..!!

اقفل المحضر .. قم الى عتبة المطبخ لتستحم عسى البرد يرحل من جسمك .. وتطرد الافكار السوداء من راسك ، فلن تفيدك في شيء ..!!

غدا ستذهب الى العمل .. والا بقينا دون اكل ..!!

ـ دقيقة يا ام فهد ..!! هاتي الورقة يا ياسمين !!

فجاة ، انقطع التيار الكهربائي .

الورقة في يد ابي فهد طرية ، حنونة ، حروفها وكلماتها تقطر دمعا .

وياسمين تحتمي بالعتمة وتكفكف دموعها باكمام قميصها .

ـ صرخ ابو فهد .. احضروا مصباح الكاز ..!!

ـ البلورة انكسرت يا بابا منذ ايام ..!!

ـ شمعة .. شمعة ..!!

اذهب يا عامر واشتر كم شمعة من عند تحسين .. وقل له يسجلها على الحساب ..!!

« ما هذه الدنيا العجيبة ..!!

قمم ووديان .. صيف وشتاء .. غنى وفقر .. ليل ونهار ..!!

ايـه .. ايـه ..!!

الارض تدور ، شموع تشترى وتضاء ، تفتت العتمة وتطرد الظلام حتى تكبرُ الرؤية ..

وشموع أخرى تنصهر ، وبخور يحرق ، واطواق ماس تلمع ، وعيون شبقة تسكر .. و .. و » .

أرى أجمل حدائق الشرق

الشاعر المجري : شندور بيتوفي
ترجمة : د. احمد سليمان الاحمد

شاعر مدهش . لعل هـذه الصفة هي الاكثر التصاقا بهذا الشاعر المجري الذي قضى في هذه الحياة الدنيا ستة وعشرين ربيعا (مـن ١٨٢٣ الـى ١٨٤٩) وغادرها شهيد الدفاع عن الوطن ، وكتب أخلد الشعر، في تاريخ المجر الادبي ، عن الحب والحرية . حياتـه القصيرة ملحمة حقيقية . اكتسب محبة الجماهير وعمل تحت امرة الجنرال جوزيف بيم ، هذا القائد العسكري الذي حارب ضد الطغيـان ، وكـان النصر حليفه لولا تحالف الجيوش الامبراطورية النمساويـة والجيوش الامبراطورية الروسية ، في المعركة الاخيرة التي سقط فيها شندور بيتوفي بعد ان ركز علم البطولة والشاعرية خفاقا في تاريخ بلاده وتراث امته .

الريح

انا اليوم ، نسيم رقيق اوشوش بعذوبة ،
اتنزه في البراري الخضراء الرحيبة ،
وعلى شفاه البراعم اطبع القبل .
قبلي الدافئة العذبة شواهد امينة على الحب .
تفتحي ، تفتحي ، يا بنات الربيع الجميلة .
في آذانها اغمغم : تفتحي ، تفتحي .
وبحياء ، من غلائلها تتجرد
وعلى صدورها الرائعة يعروني دوار اللذة .

●

وغدا أكون صوتا هدارا ، هيوبا وحشيا ،
ترتجف أمامي الأدغال وتخشاني
تشاهد في يد سكينا مسنونا
وتعرف انه لقطع اغصانها .
اما الازهار فاني اهمس في آذانها
« فلتذوي ايتها النباتات الطيبة البلهاء »
وتسقط ذاوية على صدر الخريف
وانا اضحك بسخرية وبرودة .

●

انا ، اليوم ، نسيم رقيق ، نهر هادىء
صامت ، مطمئن ، اجتاز الفضاء .
النحلة الصغيرة وحدها تحس بوجودي

عندما تعود متعبة من البراري
وعلى جنبها الحمل
الذي تحيله الى عسل .
فآخذ بيدهـا
لاساعدها على مواصلة طيرانها

●

وغدا ، زوبعة ، عاصفة ترعد وتهدر ،
على جوادي المتوحش ابحر
وكما يفعل المعلم بالاولاد العصاة
سانشد ، بغضب ، اعراف البحار الخضر
ساقطع العباب ؛ واذا صادفت سفينة
أنتزع اجنحتها ، قلوعها الطافية
وانقش بالصاري مصيرها على الامواج :
لن تلجأ بعد اليوم الى اي مرفأ !

١٨٤٧

ابطال في اسمال

بالقوافي الجميلة ، والاوزان الزاهية
استطيع ايضا تزيين اشعاري .
وبهذا الرداء تستطيع ان تتردد
بكل تهذيب على الاوساط الراقية .

●

ولكني لا اريد لافكاري
ان تغدو خاملة ، تحيا للذة ،
تزجي الوقت ، من زيارة الى زيارة ،
شعرها جعد ، ويداها في القفاز

●

لم يعد ثمة من صليل لبيض الصفاح :
صدئة تحلم السيوف والمدافع
وقد اخذت معركة الافكار
تحل مكان معركة السلاح

●

ولكني سأواصل المعركة
بين جنودي ، وسط فرقتي !
اشعاري مقاتلون متحمسون
ومعهم سأقوم بالهجوم .

●

يحاربون جميعا كالاسود
شجعان وان يكونوا في الاسمال
اذ ما زينة الجندي ؟
اليست شجاعته لا الرداء !

●

انا لا اسأل اذا كانت اشعاري
بعد موتي ستحيا
فاذا كان الموت ينتظرها في ساحة الشرف
فلتتقبل اشعاري هذا المصير

●

الكتاب الذي تستريح فيه افكاري الصريعة
هذا الكتاب وحده يبقى مقدسا .
والابطال الذين نجدهم فيه مكفنين
هم الابطال الذين سقطوا في سبيل الحرية .

١٨٤٧

نار

لا اريد ان اتعفن
كالصفصاف في مستنقع .
اريد ان اشتعل كالسنديانة
محترقة بنار الغيوم

●

النار . هذا مايلزمني ! ولتتكاثر
الضفادع والاسماك في الماء
وكذلك الشعراء الارديا،
الذين ينقون كالضفادع .

●

ايتها النار انت العنصر الذي اريد !
لقد عرفت البرد القاطع كالسكين
وكم ارتعش له جسدي المسكين
ولكن قلبي لم يبرح مستعرا .'.

●

تعالي ، فأنا أحبك ، أيتها الفتاة الجميلة !
ومن الرغبة احترق ، فتعالي !
ولكن كوني ضرما ، والا فبامكانك
كما جئت ، أن تذهبي .

●

أيها الساقي ، الشراب ، الشراب ! فأنا عطشان !
ولكن ، ليكن خمرك نقيا والا
فسوف تكون سعيدا اذا قذفت
بجرتك الى الحائط وليس الى جبهتك ،

●

الحياة غير جديرة باسمها
الا اذا استلانت لنا ، فتاة مشبوبة المشاعر
وخمرا مشتعلا . وأغان
أيضا كنت نسيت ذلك . .

●

غنوا ! ولكن أغان لاهبة ،
اذ علينا أن ننزع اللسان
من يغني دون أن
يكون قلبه من جمر

●

لا أريد أن أتعفن
كالصفصاف في مستنقع
أريد أن أشتعل كالسنديانة
محترقة بنار الغيوم

١٨٤٧

ارى اجمل حدائق الشرق ،
حريما من زهر ، وليد الطبيعة اللاهبة ؛
وجفون الشمس وورود رقيقة
وغيمة بتمزقها سعيدة .،
ارى النخيل بافيائه القاتمة ،
ونسمة تعبر . ما اشد اثارتهـا ،
عندما تمزج صوتها بالافنان الغنيـة .
عصافير حقيقية ام نجوم تشدو ؟
المح ضفة جزيرة زرقاء ،
ولكن من بعيد ، حتى لتبدو غير واقعية ،
الخريف هنا ، وهناك اغصان متمايلة
وطيور مهاجرة تسلك ، عبر السماء ،
الدرب الغامض من الخريف الى الربيع .
قلبي يتبعها . قلبي معها .
وهذا ، في اعتقادي افضل
من لو أن بامكاني ، حقا أن أرحل .
ارى ليالي سحرية تحت القمر .
كل شيء صامت . الموت . سهر وحده هنا :
اشباح احيانا تحوم في الفضاء
واكفانها البيض تتعلق بالفياض .
ليست شياطين ولكن على
الاسلاك الذهبية التي يجدلها القمر ،
بعض موتى سعداء هبطوا

من الحقول النجمية ، من القمم السماوية .
يردون الزيارة لبعض الاصفياء الاعزاء
وفي قبلة حنون نقية
يمنحون شعاعا من الافراح الخالدة ،
التي تناديها الروح الالهية ، ويناديها الجميع .
الذي أراه ، لا أراه بعيني
ولكن باعمق احاسيسي .
الذي أراه ، اراه في العينين
السوداوين العذبتين للمراة التي اهوى

١٨٤٧

---

٥ آب

هنــا الخاتم ، هنــا الخاتم
هنــا ، اخيرا ، في اصبعي !
هنــا فمها ، هنــا فمها
هنا ، اخيرا ، الى فمي

●

هذي القبلة من شفتيها
ماأعذبها ، ماأعذبها ،
كل عذوبات الدنيا
على موعد ، هنا ، تتلاقى

●

اسرعي ، اسرعي ، انهم لايروننا
خذي شفتي ، قبليهما
ولئن راونا فان للخطيبين
حقا في تبادل القبل

●

امنحيني شفتيك ، خديك ،
امنحيني جبينك ، عينيك ،
اغمرها بقلبي
كالفجر يغمر السماء

●

اصابني الدوار .. خذيني
بين ذراعيك ، ايتها الجميلة
اهي القبلة ؟ اهو الخمر ؟
صدقا لا ادري .

●

انه الخمر ! الخمر ! على الاولب ،
عب الالهة دون اذى
اما عقلي المسكين ، انا الانسان ،
فاي مكروه ينتظره !

●

اية سكرة تغرق راسي في الضباب ؟
اية سكرة ، قولوا !
اصعد الى السماء ، اشاهد الارض
في الفراغ تتأرجح

●

تجاوزت مخيم الغيوم
وأنا الان اطير
بين النجوم :
عنادل تمرح

●

وهي تغني ! ما اجمل ماتنني !
لا اعرف اغنيات اجمل .
وهذا الالق ، هذه البروق
في رقصها المتواصل .

●

آه ياقلبي ، قلبي المسكين ،
مازلت اتألم . لماذا ؟
يابني ، حذار يابني
ان يقتلك الفرح . .

١٨٤٧

رسالة الى يانوش آراني

هل انت ميت ؟ أم أن تقلصا جمد يدك
يايانوشي ؟ ربما نسيت اني مازلت في الوجود ؟
أو ماذا ؟ عبثا نتساءل ، اذ نظل دون اخبار .
فاذا كان مهد الابدية القبر الذي يحجبك
فليظلك السلام . واحلم احلاما خالدة سعيدة :
العتاب والسؤال لايعكران صفو راحتك .

لن تسمعني مزعجا لك باسئلتي .
احقا هو تقلص ؟ اسرع اذن الى الصيدلية
واشف سريعا ، يابني ، كي تكتب لي باسرع وقت .
النسيان ؟ اذا كان هذا .. اذا كان هذا جدلا
فلتمت ياصفيري ، وهذه هي امنيتي الحارة .
اسمك الذي نقشته في اعماق قلبي ، اتذكر ،
ماذا كان ؟ هل تعرف ؟ كلمة من فولاذ على صخر ،
حروف الى الابد لاتنفصل عن حياتي
واسمي انا ، اسمي ، هل رسمته على الرمل
كي تذروه الريح وكي يكفنه الثلج ؟
اذا كان هذا ، فشكرا .. ولكني احيانا اصدق
اني شاعر غير متألق ولا اصدق انك تنساني !
كسلان ، اجل ، انت كذلك . وهنا نقيضنا المشتركة
ولكن ارجوك ، دعها لي ، لي وحدي ، في القسمة ،
فهي تلائمني كقفاز ، واجدها ممتعة .
هل تحررت من الكسل ؟ اجل ، انت تمسك الريشة
تضغط على عنقها ، تغمسها في المحبرة ،
وهاهي تشق اثلاما عديدة ، عميقة
وهاهي تبذر رشقة من الافكار ..
ذلك لاني ، كما ترى ، افضل صمتك
على الاقوال الثقيلة الوقورة . رسالة ذكية ، لاشيء أسوأ منها
وانا غير قادر عليها حقا ، ولكن الامر كذلك .
اقسم باغلى شيء علي في الدنيا ،
بالتبغ ، والفطائر بالجبنة البيضاء .
خادمك المتواضع يناشدك ياسيدتي العزيزة

ان تضربي زوجك وتشتميه كما يحلو لك
اذا كان يبغي عدم الكتابة لي ... اللئيم !
رسالته ، انا انتظرها . فليتحدث عنك طويلا
والا ، صدقيني ، لن اكون مسؤولا عن غيظي .
وليفكر « بجولي » الشقراء ، و « لاسي » الكستنائي ،
هذين الطفلين الرائعين ، وليفكر ايضا بالحديقة ،

كيف هي ؟ هل استطاعت ان تسحرني تلك الورود
بينما كانت روحي تستعيد في سبحاتها حَبَّهُ وتستزيد
والبرج الذي نالت منه المعارك القاسية السالفة
وحزنه وصمته والعشب على جبينه
واخيرا انتظار انهياره المحتوم
كالمتشرد الذي جرده الموت من عكازه
هل القلق الحالم مايزال يعود ويحط عليه ؟
اريد ان تخبرني عن كل هذا الذي كان عزيزا علي .
لقد جبت ، منذذلك الزمن ، اراضي رائعة
ولكن ارضك ابدا ، على تواضعها ، تواكب خيالي
فوجودك وحده يكفي لتجميلها
ولقد ترددت منذ ذلك الزمن على قصور فخمة :
عظمة زاخرة هنا وهناك ، الا في روح سادتها .
ولكن لماذا فجاة هذا السيل من المداجاة ؟
اعرف ان اقوالي ليست الا اكاذيب محضة .
ماارید ان اربحه هو احسان الكاتب بالعدل
كي يتنازل ويعينني حارس سكة حديدية او راعي خنازير
عندما تشغر هذه الوظيفة او تلك .
سأتزوج قريبا ، واعتقد انك لاتجهل ذلك ،

ومن الجنون ان اعود الى املاكي
التي باعها ــ ولكن هل ملكها ــ جدي المئة ،
لذلك فأنا ابحث عن عمل
اتعلم الابتسام بلطف ، ورأسي خفيض
خضوع خالد ، رياء زواحف
خبزي اليومي المقبل ــ ليس خبزا يابسا ، ولكن الى الشيطان
الى الشيطان مثل هذا الخبز . مجرد التفكير باني منه سأتغذى
يكدس امام عيني غيوما من لهب ؛
اشعر بقلبي يتوثب مثل مهر صغير
في رسنه الاول ، عندما يقوده الحارس
من اسطبله ليشده الى عربة
فاذا ماأجفل فليس من الحمل
بل من اللجام الذي يكبح دوما جماحه .
فلا الشوفان ولاتجهيزه الرائع
يمكن لهما تعويض مايمكن ان يخسره في هذه اللحظة
غذاء وزينة ؛ هذان هما اقل همه ،
وعشب « البوتسا » الجديب مع ذلك يكفيه ،
فلتجلد جنبيه دفع الامطار العنيفة
ولتمزق عرفه اشواك الغابة
فماذا يهم ، لو انه حر ، ان يسابق العاصفة
وان يطارد البروق ، هذه الافاعي الصفراء .
وداعا ، روحي تود ايضا ان تلهو معكم ،
ياأصدقائي ، ياأحبابي ، ولكن عنيفة هي الريح
التي تنفخ الاشرعة المئة التي زينها خيالي .
لقد انقطعت القلوس واخذت السفينة بالابتعاد

وفي ذراعيه ، في امواجه يهدهدني البحر اللامتناهي .
فليهدر الاعصار ، اني المس اعصاب قيثارتي .
والنشيد الذي القيه بصوت مضطرم ، متأبد
هو نشيدك المدوي ايتها الحرية السماوية !

١٨٤٧

هوميروس واوسيان

اين الهيلينيون ، اين السلت ؟
لقد تواروا ، هكذا ، كما ابتلع مد البحر
مدينتين .
لم تعد تبدو الا قمة الاجراس ..

قمتان باقيتان : هوميروس واوسيان .
متسولا كان الاول
والآخر ابن ملك .
بون شاسع !
ولكن كانا متشابهين :
فكلاهما اعمى .
هل هي النار المتاججة في روحيهما
هل هو ائتلاق مجدهما
الذي نزع من عيونهما الضياء ؟

كلاهما فكر عملاق
عندما تلمس ايديهما المسحورة

اوتار القيثارة
يخلقان ، أمام الناس ،
مثل كلمة الله ،
عالما عبقري الجمال
عبقري العظمة .

هل سمعتم هوميروس ؟
في نشيده الفردوس السماوي
بسمة خالدة من سعادة ناعمة
حيث حمرة الفجر
وذهب الظهيرة المشع
ينتشران ، بسخاء ،
على زبد البحر الاشقر
وعلى جزره المخضوضرة ،
حيث الآلهة والبشر
يمتزجون سعداء
في ملاهيك ، ايها الحب .
وهل رايتم اوسيان ، هناك ؟
على شواطىء البحر ذي الضباب الخالد ،
بينما ، على القمة الصعبة المنحدر
تتكسر امواج العاصفة ،
يغني نشيده في الليلة الشعثاء
ويبدو القمر
بلون الشمس الغاربة ،
بلون الدم
وبربريق حاد يغمر الغابة

حيث تهيم الاشباح الهائمة
لجيش من الشجعان
سقطوا في ساحة المعركة .
كل ما هو نقي
كل ما يزهر
هو في نشيدك
انت يا جد المتسولين ، هوميروس !
وكل ما هو قاتم
كل ما هو حزين
هو في نشيدك
انت يا ابن الملوك ، اوسيان !
انشدا ، انشدا دون انقطاع
ارعشا اوتاركما الالهية
يا هوميروس ويا اوسيان !
فالسنون قادمة
قرونا ، والوف سنين ،
وسينطوي كل شيء تحت وطأتها القاسية ،
ولكن لن ينالكما منها سوى التقديس .
تنشر على كل ما يحيا الموت الاصفر
ولن يبقى من اخضر
الا الاكليل حول راسيكما المعممين بالبياض

١٨٤٧

ريح الخريف الحزينة تتحدث الى الاشجار ،
خفيضا حتى لتبدو اقوالا سرية .
ماذا تريد منها ؟ ويأتي الجواب
هزة راس من الاشجار المهمومة .
لقد شارف النهار على الزوال
وعلى الاريكة ، انعم براحة عذبة .
والى صدري تغفو حبيبتي ،
بعمق ، ومزيد من الامان .

بيد ، المس نهد حبيبتي
النائمة : وجودا لا يوصف .
وفي اليد الاخرى ، كتاب صلواتي :
تاريخ حروب الاستقلال .
وتتغلغل في كلّ كلمة واحس
بروحي مستفزة وبجسدي يضطرب .
والى صدري تغفو حبيبتي
بعمق ، ومزيد من الامان .

الذهب والسوط ، بهذا الثمن تواصل الكفاح
الى جانب الطاغية ، ايها الشعب المستباح .
ولكن الحرية ، بيسمة ، مجرد بسمة
تقود الى ساحة الشرف اتباعها الاقحاح .
وكما نتقبل الزهور من امراة

نتقبل منها الرعب والموت .
والى صدري تغفو حبيبتي
بعمق ، ومزيد من الامان .

كم منحوك نفوسا رائعة
أيتها الحرية . لا . لا يندم احد
فقريبا تصل المعركة الاخيرة
ومعها مجدك المفاجيء ، معها النصر .

ديانة رهيبة لا تلين
هكذا لصرعاك تشارين
والى صدري تغفو حبيبتي
بعمق ، ومزيد من الامان .

ها هو زمن الكوارث .
الافق في كل مكان مرشوش بالدم .
وفي البحيرات العميقة
حفرات مصارع الظالمين .
بلا انقطاع تعبر راسي البروق
ولم يعرف قلبي كهذا الخفوق
والى صدري تغفو حبيبتي
بعمق ، ومزيد من الامان

١٨٤٧

كل ما يامله انسان ، انا نلته .
وقلبي يأتلق اخيرا بسعادة نقية :
على ركبتيَّ امراة حبيبة فتية
حلمت بها روحي
عندما كانت تمضي ، كالفراشة الحيرى
بين ازهارك ايها الخيال !
على ركبتي هذه المراة ، اخت الجنيات
كما كن ينادينها دوما .
على ركبتي ثروة عظيمة .
لدي من الفرحة مالا يغريني بعده شيء ،
ولكن لماذا كل هذا ، لماذا ؟
ليس ثمة شيء وراء ما انا فيه .
ان اهجرك ، في هذه اللحظة ، سيكون سهلا للغاية
ايتها الافكار الوطنية ،
وانت ايضا يا حب بلادي
ومهما تمزق حياتي الالم
يكفي ان استسلم لهذه النعم
تاركا لله آلام اخوتي ..
اطمئن . فانا هنا يا وطني
ولئن كانت السعادة تندفع بجنون
تطفو على كل شيء ، الماضي ، المستقبل
فانها ترعى حرمة مكانك المقدس .
كما في الماضي تتردد أنفاسي

لك يا بلادي ، بعد أزمنة افضل ،
عندما يخلي ، الى الابد ، اكليلك الشائك
مكانه للغار المجيد .
يمضني أن ينالوك بمهانة
وانت تسبب لك الجراح ايدي القتلة .
اتألم للبرد الذي يحل بك ، للجوع ،
لانك بلا صديق قريب او بعيد ،
ولان الشجاعة تخون ابناءك
ـ عليهم اللعنة الالهية ! ـ .
انا خجل اخيرا ، يا وطني المسكين
اذ ارى العالم يجهل انك تحيا ـ
هذا العالم الذي روضته في السابق
وكان يرتجف لاقل خطاب منك
لقد شطبوا عليك الآن .
فاذا كان علي أن اتحرك ، فباسمك سأفعل .

١٨٤٧

أو هي، هو الحب

يا شعراء من عشب ، أيتها المناقير البيضاء ،
اوقفوا زقزقاتكم
عن الحب ، ارجوكم
باسم الانسانية
التي يجب أن لا نجرها
الى مقعد التعذيب .

ارجوكم ، توقفوا !
اتعرفون عن اية شجرة يقطفون
الحب ، وما هو الطائر
الذي يحمل هذا الاسم ؟
الطبخة التي تعدونها
في هذه القدر الملعونة
التي هي راسكم ،
ومعجنات تنهداتكم
في حساء دموعكم
معجنات مزعفرة بحنق واهتياج
يا الهي ، يا رب
ليس هذاايضاهو الحب
انتظروا اذن ، ايها المناقير البيضاء
انتظروا ان تكبروا قليلا
لتعرفوا الحب
ولتنشدوه

●

ان يحمل احدنا ، طوال سنين ،
سهم الشك في قلبه ،
ان نولّد من دمنا الحار
آمالا جميلة
كي نراها تموت ،
وهكذا يكون لنا ، كل يوم ،

ميت عزيز
نبكيه بمرارة ،
ان نجابه الذنب الطويل
لافعى النميمة
ان نتحمل الاهانات
دون ان نستطيع الثار لها ،
لان حبيبتنا
ملك من يهيننا ؛
واخيرا ، ان نتزوج الفتاة
وان نتخلى من اجلها عن اغلى الممتلكات ،
عن الحرية ،
وان نستبدل اللامبالاة
بتكاليف الحياة الباهظة ،
وان نعمل ليلَ نهار
لناكلْ ونلبس
واذا كانت الزوجة ذات مزاج
فلمزاجها يجب ان نخضع
ومادامت احدى الحياتين ستكون
من الفرحة محرومة فلتكن تلك حياتنا
لا حياتها ..
انظروا .. هذا هو الحب !

١٨٤٧

على امواج بحر هادىء

على امواج بحر هادىء ،
في زورقي المنساب
كما لوان قصبة يهدهدها النسيم
في مساء ربيعي
هذا السلام ، استطيع القول ، حقا
بأني استحقه
النهر الذي حملني حتى هذا المكان
قطع دربا طويلة غير مأمونة
وبروق تذرع الغيوم ،
وعلى امتداد الضفتين
كتلٌ منذرة من الصخر
كنت امضي من مهواة الى مهواة ،
وكلُ ضربة من مجذافي
كان يمكن ان تغدو الاخيرة ،
وكل خفقة من قلبي
وكنت اجذف ، جذفت
حتى بعد ان استنفدَتْ
الاملَ ، مناري الوحيد
ولكني لم افقد شجاعتي ،
وكان هذا هو الجوهري .
فالصمود في الصراع
يستحق مكافأته الحقة .
وما اجمل واعذب مكافأتي

ان تهدهدني السعة اللامتناهية
للمحيط المضطجع باسترخاء
المحيط المسالم الهادىء
لاسعد زواج
لقد القيت مجدافيَ
لماذا استخدمه بعد اليوم !
تجذبني تنهيدة طفل ،
رفيق زورقي في ألعابه .
اين امضي ، آه ، ماذا يهم !
دوما فوقي
نفس السماء دون غيوم ،
وفي البعيد تمتزج
بالبحر . انها تصنَعُ لي
اكليلا ضخما
مزينا بأزاهير لازوردية ،
وانا امشي ، ثم امشي ،
تهدهدني ، ثم تعيد هدهدتي ،
دون همومٍ ، استلقي ،
ورأسي مستند بنعومة
الى نهد زوجتي الشابة .
واتأمل عينيها
عينيها العميقتين ، العميقتين بشكل لايصدق .
ولكنهما اكثر ضياء
من ملائكة السماء
على قيثارتي اؤلف

نشيدا حالما غير متماسك .
يمضي ، كما يحلو له ، هذا النشيد ،
غير خاضع لاية قاعدة ،
اترك أناملي تجري
حرة على الاوتار .
ترقص غريزيا ، تلعب
كما لو انها تعبث
بشعر حبيبتي .
ماأعذب واحلى هذا النشيد !
عندما تسمعه ، تصعد النجوم
في السماء ، اعلى فاعلى .
ومن البحر يطفو القمر
مسحورا بتناغمه
وهكذا اغني دون انقطاع
في قاربي محمولا مثل
« اريون » على الدلفين
وفي قمة الصاري احيانا يحط
عصفور الشتاء الحزين .
عند ذاك يغلبني الاسى ، وافكر
بمستقبلك يابلادي .
ولكن كلما تقدمت
نحو عرض البحر ، اقل فاقل
يعذبني بصياحه
الطائر المشؤوم .

١٨٤٧

بحر من اللذات
تستحم فيه روحي
حتى الآن كالعصفور وحده يطير
وهاهو الانسان يفعل مثله .
ايها الفكر اسرع كالسهم
لقد دخلنا في سباق واياك
فاهمز جوادك والا تجاوزناك .
جبال وغابات ، اناس وبيوت وانهار
واشياء اخر ، الله وحده يعلم لماذا
تمر هنا امام عيني
وتمضي ، جسداً في ضبابه .
تركض معنا الشمس
تركض هكذا ، مجنوناً يتخيل
ان فريقا من الشياطين الصغار
يطاردونه كي يمزقوه .
تركض ، تركض ولكن دون جدوى
فلقد تجاوزناها ! متعبة ، تتوارى
في الغرب ، على قمة جبل .
وعلى وجهها حُمرَة الخجل .
ولكننا نطير ، ونطير
ولا مجال للتعب ،
من يعلم ؟ ربما كانت هذه الآلة
ستحملنا الى ماوراء الغيب .

مدوا ، مدوا اذن مئات ،
الوف الخطوط الحديدية
كي تغطي العالم اجمع
كما تغطي الجسد الشرايين الدموية .
انظر شرايين الارض
تحمل الثقافة الى كل موضع
وتنشر ، تسكب في كل مكان
نسغ الحياة ، الدم
لماذا لم تمددوها حتى الان ؟
هل الحديد هو الذي كان ينقصكم ؟
حطموا ، حطموا كل القيود
تحصلوا على حاجتكم من الحديد !

١٨٤٧

غضبي

هل ستجف ياغضبي ،
ايها الشلال المتوحش ،
ايها المنحدر المنيف ،
المنقض مرعدا
من الاعالي حتى الاعماق ،
مثيرا زبدا متوثبا ؟
هل ستجف ياغضبي
والى الابد تغادر قلبي ؟
هل يتدجن

عقاب الغابات هذا
الذي كان يغرس
برائنه في ظهر
العاصفة المجنونة
ويعتلي صوتها
بزهو المنتصر ؟
هل سيغدو ابا مطمئنا
في قبعة ليلية
يرد براسه
ويحرك كتفيه ،
هذا المراهق الناري
الذي لم يكن احيانا يستطيع كبح جماحه ،
والذي كان اسمه على جميع الشفاه
في الماضي :
بيتوفي – الغضب ؟

دون جدوى
هذا القلق !
فغضبي الفتي
ابدا لن يستطيع مغادرتي .
ابدا لن يجف في قلبي
هذا الشلال المتأبد الجبلي
لن يجف ابداً
ولكن مجراه
قد هدأ بعض الشيء
لانه يجتاز

حقول السـهل
حقول الحاضـر
هذا الحاضر المتـد
دون أودية أو جبال
ولكن انظروا هناك
جبال المستقبل الصخرية
بمهاويهـا ..
عندما يبلغهـا
شـلال غضبي
يكون قد غدا نهـراً
وسينقض ــ ياوطني ــ
على اعدائك
كما في دوامات دون قرار
ترتمي شلالات نياغارا !

١٨٤٧

ولكن أي اسم اعطيك

ولكن اي اسم أعطيك
عندما تضيع عيناي في عينيك
متأمـلا النجـوم
في المساء ، في الساعة التي يتعبد فيها الانسـان .
يبدو كما لو لم تلتمع من قبل
هذه النجوم التي تلتقي اشعتها
مثل نهر من حب

محمول الى محيط روحي ..
ولكن اي اسم اعطيك ؟

●

ولكن اي اسم اعطيك ،
عندما تقع على نظرتك
هذه الحماقة الوديعة
التي كل ريشة منها
غصن سلام ،
ناعم ، ناعم لدى الملمس ،
انعم من الحرير
ومن وسادة المهد ..
ولكن اي اسم اعطيك ؟

●

ولكن اي اسم اعطيك ،
عندما يرن صوتك ؟
هذا الذي لو باستطاعة الاشجار العارية
ان تسمعه شتاء
لاكتست خضرتها بسرعة
اذ ستكون على حق في اعتقادها
ان المخلص المنتظر
ان الربيع اخيرا سيسيطر
مادام العندليب يصدح ..
ولكن اي اسم اعطيك ؟

●

ولكن اي اسم اعطيك
عندما ياقوتة شفتيك المشعة
تنير شفتي ،
عندما نار قبلة
تصهر روحينا وتمزجهما
كالنهار والليل عند الفجر
وعندما الكون والزمن
يهربان مني ، كل بدوره
وعندما الخلود ، يجزل لي عطاءه ،
افراحه الغامضة ...
ولكن اي اسم اعطيك ؟

•

ولكن اي اسم اعطيك ،
ياأم سعادتي
يابنتا سحرية لحلم
ينقض مفتتحا السماء ؟
ايتها الحقيقة الاكثر القا
من اشجع آمالي .
ياكنز قلبي الوحيد
الذي لا يعادله اي كنز
ياجميلتي ، ياامراتي الشابة
قولي ، اي اسم اعطيك ؟

١٨٤٨

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

ماذا قالت العصافير

تاليف : فيصل الحجلي

■ ■ ■

الحياة السياسية واهم مظاهر الحضـارة في بلاد الشـام

تاليف : الدكتورة أمينة بيطار

■ ■ ■

للحرب ايضا وقت

قراءات ادبية

تاليف : محمد عمران

حانة الاحزان

شعر :
صالح درويش

أذكُرُ ،

في الزمن الغابرِ ،

كنت أميرة أحلامي السمراء

كنت أغارُ على وجهك

أن تلِدَ النسوة مثلَهُ .

أن تشبه عينيك عيون أخرى .

أن تسرق فضة صوتكِ

ساقية غيرِي

لكن مذ فرّقنا الدهرُ . . .

تغيّر لون الكلمات

هدهدنا الحب الصامت بالآهات .

واجهنا الألم الهاجس بالنسيان

وملأنا قلبيّنا أسراراً ،

ونداوةَ احزان .

وعبرنا كل مكان .

ضعنا ،

تهنا ،

فرسونا في كل الشطآن

° ° °

ياحانات الحزن احتفلي .

بمواسم افراحي الورديه .

فأنا جمّعت طيور الدنيا اللّحلى ،

كي تمرح في دنيانا

وبراري الأرض المجهولة ،

كي تغمرنا سجع سُمّانى

وبحار العالم ،

كي تغزل زغرودة

حب سريّه .

يا هادئة العينين ،

عديني لحظة وجدٍ ،

يرعش ثغرك في ثغري ،

ينهل منه ما أبقاه الصيفْ .

أتمرّى سهواً ،

في لوحة أوهامي النبويه .

تهتمس الشهوات الوالهة النبرات .

فيسيل بقلبك نهر دون مصبٍّ .

أكبح وثبات ذهولي ،

اختزل رقادك ،

انهب دقات فؤادك ،

في ولعٍ ،

أتشهّاك يمامة حبّ

ترنو مطفأة الأجفان

فأقاسمك الحزن الملفوح

بنارٍ لا أعرف

من أين تهبّ ؟

واسيّج صورة أيامي ،

بالأمل المخضلّ الالوان

° ° °

أترى كنا نعدو خلف سراب الأحلام

نتعلّق بالزمن الطافي

كالجثة ،

في بحر الأيام

نتشبّث بالذكرى ،

بالحب العابق بالالفة

نتعاطى آلام الدهر المثقل بالأوهام

هل أنهكنا الوجد المتأجّج ،

هل يتّمنّا كابوس الحبّ ؟

هل غشّانا الألم الدافىء ،

هل شوّقنا حسّ التذكار ؟

أذكرُ ،

أسلمت لحبّك نفسي ،

فعبرنا أبهاء النار

تملؤنا رائحة البحر المتواري ،

نكتشف الشيء الغائر ،

في سرداب القلب .

نمسحُ عنه دَنَسَ الرغبة

نوسعهُ بثّاً ،

تمتمة ،

قلقاً ،

وصلاة

نلبسهُ صور الله الضوئية ،

نترعهُ دفئاً وحياة .

نختنق فيه وسوسة الشيطان

نعشق ،

نلهث ،

حتى يرقأ حبر الصمت

نغمره بالغبطة ،

نحرمه من لون الموت

وأو اري بدموعك ،

آثامي . . .

أشرع رايات الغفران

فهبيني بذر صلاتك ،

بذر حنانك ،

واريني بظلالك ،

ضعت على الباب ،

فقدت صوابي

وجرى الحزن المشبوب ،

رخيصاً ،

آه . . .

تخرُّ شوقاً ،

خصبُ شبابي

آه . . رجَوْتُ براءة عينيك ،

هبيني عفة ثغرك،

أزفُرُ حباً وحشياً ،

أنزف شعراً ،

أنسى ما بي

تتـصَاوَلُ في الاعماق أحاسيس عذابي

تحرثني الآلام . . .

تغشّيني الغمّة ،

تملأ عينيّ دوارا

أتوجّس وحياً ،

يتجاوز قصف الريح ،

مدى الحلم ،

نموّ رغابي

ونواقيس القلب تدقّ . . .

تدقّ سكارى

أتلمّس في الوهم ،

عرَامةَ شوقي الصائت . . .

أزجرنفسي . . .

عن فضّ عفاف الحلم .

أنمو ،

يتفرّع جذري الباذح ،

يزهر ،

يخصب أشعاراً ،

ومعاناة ،

وصياح سُمّاني

ومواسم ينعشها جريان الدم

يهطل غيث القلب . . .

يفيض البحر ثماراً

مطر الحب

شعر :
عزيزة هارون

أغرقْ في الأرض العطشى
يا مطر الحبِّ
روِّ الدنيا كل الدنيا
وأغمرْ قلبي
يا مطر الحب تعبت انا
في صحراء العمرْ
ماذا في الأمر
لو غبت يجرح الليل
وشربت الويلْ
وكسرت ضلوعي
فوق الصخر
ماذا في الأمر

وهنالك احبابي

يصلونْ الجمر

أواه متى أشعر اني دمع

في الاجفان المقروحهْ

ومتى أشعر اني جرح

في الأعماق المجروحة

ومتى أشعر أني نبض

في قلب الشعر

غابة الحزن

أظللُ عينك

يا غابة الحزن

بالغيم

إني اخاف احتراق الشموس

بعينيك

إني أخافْ

وددت لو اني غامرت

آه وددت لو أنّي

تعلمت سحر المطافْ

وكان يعذّب قلبي سؤال

ويجرح قلبي سؤال

مكانك هذا غريب لماذا

فأصمت صمت الليالي الطوال

غابة الرعب

في الغابة ضائعة

والصبح نحيبْ

والأزهار تموت

والأشجار دخان

والشمس لهيب

وطرقت كهوف الجان

أبحث عن مأوى

فارتاع الحارس والسجّان

وسمعت دويّاً يصرخ في رعبٍ

إنسان في البابْ

فلتوصدْ كلّ الأبواب

وبقيت أضيع

في الكون الغارق بالأحزان

ورحت أسامر جرحي

بكل لغات الهوى

فراح يئنّ ورحت أسائل

أين الدوا

وجرحي أنا عربي السماتْ

بنزف آهٍ بكل الجهات

فلم لا يفجرُ صمتَ الحقولْ

ولم لا يفجرّ صمت التراب

سألتك يارب أن تصنع المعجزات

فكيف أصلّي اليك

وجرحي صلاة

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

الظلف الفضي

قصص للاطفال

ترجمة : هاشم حمادي

■ ■ ■

بيل وسيباستيان

القسم الثاني

تاليف : سيسيل اوبري

ترجمة : زيادة العودة

■ ■ ■

حكايات القط الجاثم

تاليف : مارسيل ايمي

ترجمة : حسيب كيالي

لقاء مع الشاعرة آغنيا لفوفنا

ترجمة : محمد الموحد

التقى الصحفي كوركين شاعرة الاطفال الشهيرة آغنيا لفوفنا بارتو واجرى معها المقابلة التالية التي نشرتها مجلة الادب السوفييتي في عددها الرابع سنة ١٩٧٩ ... وهذا نص المقابلة :

كوركين : قال احد الشعراء انه لا يكتب للاطفال الا في لحظات السعادة ، عندما يشعر بالجذل . هل آغنيا لفوفنا ، تقرض الشعر في لحظات السعادة فقط ؟ وماذا يعني تعبيرك المعروف ـ كتابة القصائد التي توفر مجالا للنمو ؟

بارتو : انا اكتب ايضا اثناء اللحظات الصعبة ، ربما لانني اشعر بحرية التعبير عن نفسي كما ارغب في الشعر الذي اكتبه للاطفال . وربما هذا بالضبط ما اسميه الكتابة بـ (مجال النمو) الذي يساعدني . انت تعرف انه عندما يحفظ الطفل قصيدة مفضلة غيبا عندئذ تبقى في ذاكرته وقتا طويلا . غير انه سياتي وقت تصبح فيه هذه القصيدة المحببة للطفل مختزنة في ذاكرته فقط مع انه لم يحصل على اي شيء منها لاتساع خبرته في الحياة .

اود ان اكتب بطريقة يمكن فيها للشخص مهما كان عمره — وهو يتذكر قصيدة الطفولة — ان يعثر في كل مرة على معنى اكثر عمقا ، معنى غير ظاهــر احيانا بل هو ضمني . والحكايات الخرافية مثال جيد عما اقول . بمعنى آخر ، احاول الكتابة وانا ارقب المستقبل ، حتى ينضج شعري مع القارىء . بحيث يمكنني التعبير عن ذاتي على نحو اعمق .

بالطبع ، لست دائمة القدرة على الكتابة وانا افكر بالمستقبل . ومع ذلك ان لحظات ، أو بالاحرى ساعات العمل حتى ولو اتضح انها تمضي عبثا تمنحني ســعادة ، لان تلك الاوقات مكرسة لما اعتبره الشيء الاساسي في حياتي .

كوركين : هذا يعني ان الشخص الراشد لديه فرصته للتعبير عن افكاره في كتابة الشعر للاطفال مثلما لديه فرصة في الشعر الغنائي الفلسفي . تذكرت الآن احدى قصائدك ، (كان وحيدا تماما). بطلها الرئيسي كلب مشرد محبب يبحث عن سيد له فيجد سيدين في وقت واحد ، والمثير حقا هو ردة الفعل غير المتوقعة التي احدثتها هذه القصيدة في الراشدين . ففي رسالة وردت الى مجلة (الشباب) التي نشرت القصيدة ، جاء ان صبية — خلافا للكلب — شكت فيها انها لم تعثر على « سيد » حتى الآن مع انها بلغت الرابعة والعشرين . لاول وهلة يبدو هذا مضحكا ، لكن في الحقيقة كانت الرسالة تعبر عن عزلة انسان. هذه القصيدة ، حقا كتبت والمستقبل في الاذهان . لكنني اشك ان تلك الصبية فكرت ان المؤلفة ، آغنيا لفوفنا ، كانت ، الى حد ما تعبر عن مشاعرها ...

بارتو : حسن لانها لم تفعل ... فالقصيدة تهدف الى ملامسة قلوب الاطفال ، وتحريك تعاطفهم نحو الكلب الذي يود ان يكون مع الناس لكن احد لا يريده . وان راى شخص راشد شيئا مخالفا

في هذه القصيدة ، اي كما يجب ان تكون ، عندها يتوجب عدم اقحام فردية المؤلف هنا .

كوركين : افهمك الآن . هل لي ان اطرح عليك سؤالا ذا صفة عامة ؟ ما هي امكانات وحدود شعر الاطفال بالمقارنة مع شعر الراشدين ؟

بارتو : هذا سؤال صعب . ثمة عامل مشترك وهام جدا في شعر الاطفال وشعر الراشدين — هناك الاهداف الايديولوجية والاخلاقية والمستوى العالي للحرفية . فمجال شعر الاطفال اضيق مما هو عليه في شعر « الكبار » لكنه ليس ضيقا كما يظن عادة ، احيانا نحن نقيده ، محاولين الالتزام بمقاييس قديمة . فالاطفال ، — كما نعرف — سرعان ما يكبرون ويناقشون فيما بينهم مسائل نحن نلزم الصمت حيالها . ان قصص الاطفال في هذه الايام محكية دون ريب ! في الشعر يمكن للمرء ان يتحدث مع الاطفال — حتى الاطفال الصغار جدا — عن كل شيء تقريبا ، بينما يحميهم في الوقت نفسه من الانفعال الشديد .

كوركين : ماذا بالنسبة للتحذير — « لا تحمي الاطفال من الانفعالات الشديدة » — الذي يستشهد به كثيرا ، الا يتناقض مع كلامك ؟

بارتو : لا اطلاقا . ما احاول قوله : من الضروري توفر درجة من البراعة والنزعة التربوية . لا استطيع ان اتخيل شاعرا يكتب للاطفال دونهما . ومن ثم يجب الا تكون العواطف قوية فوق « الدرامية » . ان شعر الاطفال السوفييتي الحالي يعكس ايضا مواضيع اجتماعية حيوية معاصرة تتمازج ابتهاجا وتألقا . وفي شعر الاطفال مواضيع خالدة ومعاصرة ايضا كما هي الحال في شعر « الكبار » . هذه المواضيع التي تبدأ منها حياة الطفل تدور حول دمى الطفل الاولى وحنينه لامه وتواصله مع الطبيعة لاول مرة ... هذا هام جدا بحيث يتوجب على الشاعر رؤية تلك المواضيع الخالدة بمنظار شخص يعيش الآن .

كوركين : على سبيل المثال لنأخذ موضوع الامومة ــ الموضوع الخالد ! ماالذي تغير فيه بالنظر لشاعر معاصر ؟

بارتو : كثير من التغيير قد أصابه . الامومة تختلف باختلاف الاوقات، وينبغي على الشاعر ان يكافح لنقل الصفة المميزة للزمن الذي تعيش فيها ولو باستخدام تفصيل مميز . غير ان الموضوع ذاته يبقى سرمديا دائما .

لنعد الى مصادر شعر الاطفال وشعر « الكبار » . فهي ذاتها مصادر للشعر الروسي الكلاسيكي لكن وسائل التعبير ــ الترتيل والايقــاع ، والمفردات ــ مختلفة بطرق كثيرة . لكــن هــذا الموضوع من اختصاص العلماء . واخشى الضياع خاصة في الاختلاطات النظرية . بامكاني ان اقول شيئا واحدا ــ شعر « الكبار » وشعر الاطفال قريبان من بعضهما جدا ، رغم كل الفوارق القائمة بينهما ، فانهما يمارسان تأثيرا متبادلا .

بعض الشعراء الذين يكتبون للكبار ، والذين يفهمون أن شعر الاطفال يتطلب اسلوبا مقتضبا ، يلتمسون نصيحة شاعر الاطفال في كيفية اختصار قصيدة طويلة جدا ، بينما يتلو شعراء الاطفال قصائدهم الحديثة على مسامع الشعراء الذين يكتبون للكبار كي يتأكدوا من التأثير الشاعري من وجهة نظر ــ « الكبار » ــ التقليــدية .

كوركين : انت تعرفين يا آغنيا لفوفنا ، أن بعض القراء المعجبين بكتابك (ملاحظات شاعر أطفال) قالوا لي انهم يعترضون على كلمة « شاعر اطفال » الواردة في العنوان ، وهم يعتقدون أنه من الافضل تسميته « ملاحظات شاعر » .

بارتو : هذا فقط يبين ان هناك اشخاصا يعتقدون ان تعبير « شاعر اطفال » بشكل ما يحد من الآفاق الهامة والمبدعة للشاعر .

كوركين : لقد اتضح ان الاطفال والكبار معجبون بقصائدك . فالاطفال يعجبون بدعابتك وتألقك وحبك للحياة وقدرتك على رؤيـة الاشياء كما هي ، ويسأل الاطفال في رسائل يبعثون بها اليك أثناء القائك للشعر « كيف تعرفيننا معرفة جيدة ؟ لقد رأيت ذلك بنفسي ، نحن الكبار نحب شعرك ، لانه يحملنا الى « عالم طفولتنا » ولانه يحمل معنى مستترا ، موجها الينا نحن الكبار خاصة . وفي السنوات الحديثة كان لشعرك نغمة غنائية قوية . كيف تعللين ذلك ؟

بارتو : كي أكون صادقـة أقول من يعرف ؟ يصعب أن يحلـل المرء نفسـه . فالطريقة التي كتبت فيها القصيدة ــ بتوتر غنائي أو هجائي ــ تعتمد على موضوع القصيدة وعلى افضل نوع للتعبير عن افكار المرء في كل حالة خاصة . انا اعرف ، ــ أيا كان موضوع القصيدة التي اكتبها ــ انني ملهمة فقط ، عندما اتصل بحقيقة ما أو بملاحظة ما تتحرك مشاعري . وعندما يحـدث شيء ما تأثيرا علي ، سارا كان أو محزنا ، فانا ابدأ بالتخيل آليا عن كيفية تفاعل الاطفال معه . فأستجيب لعدة اشياء حسب تأثيرها المحتمل على الاطفال وكما تبدو من خلال عيني الطفل . ربما حتى لو اثرت علي مأساة الحرب من خلال حالة الاطفال الذين يتمتهم الحرب .

كيف تعللين ذلك ؟

كوركين : هذه فكرة جديدة علي : رؤية شيء ما من خلال وسط الطفولة . يعتقدون أن شاعر الاطفال لديـه معرفة عميقـة وبصيرة في سيكولوجية الطفل . لكن انت تمتلكين مثل هذا الفهم العميق للاطفال بحيث تستطيعين التنبؤ بالتأثير الذي تحدثه الاشياء التي تحصل في الحياة على حياة الطفل الداخلية ، على نمط تصرفه . ويحتمل أن هذا هو السبب الذي مكنك من كتابـة

قصيدة ـ Zvenigorod ـ وهي قصيدة عن حياة اليتامى في بيت للاطفال . ومع انها مفعمة بالدراما الداخلية ، فان التفاؤل والامل يتخللانها في الوقت نفسه . وهي تجمع الدعابة والغنائية . وعموما ، ان الفكاهة في شعرك ليست مجرد ضحك غير مبال ، انها تجعل الانسان يفكر ويشعر بعمق ، اي انها تساعد الانسان على النمو . قصيدة Zvenigorod هي التي الهمتك بذلك البرنامج الاذاعي غير العادي ، (اقتفاء أثر الاقارب) الذي تواصل سنوات عديدة ــ وهو بحث قائم على ذكريات الطفولة « نحو الاقارب الذين شتتهم الحرب . وقد قال قسطنطين سيمونوف ان شاعر الاطفال وحده هو الـذي يستطيع ان ينفذ افكاره . وفيما بعد وضعت كتابا وهو بدوره احدث تأثيرا عميقا على الناس .

بارتو : تمهل ــ ان فضل واستجابة آلاف الناس الذين اشتركوا في هذا البحث على جانب كبير من الاهمية ولايمكن لي ان انساهما . لكن البحث عن الاطفال واقاربهم الذين شتتهم الحرب والقائم على ذكرياتهم لم يدع منذ خمس سنوات تقريبا ؛ لقد وصل البرنامج الى نهايته المنطقية . ان الامهات ــ هن اللواتي بحثن بنشاط أكبر ــ فاما انهن توفين على مر الزمن او ان تذكرهن اصبح ضبابيا وافتقد الدقة الضرورية لمثل هذا البحـث . وكلما ذكر هذا البرنامج في الصحافة تبرز مطالب لم يعـد بالامكان بحثها .

كوركين : لم يعد لذلك جدوى : فالزمن ينال ضريبته . هذا البحث وصل الى نهايته بعد ان تم جمع شمل أكثر من الف اسرة . غير ان بحثك لمادة جديدة لاينتهي .

بارتو : هذا صحيح . فانا اعتقد ان الاصغاء الى ايقاع حياتنا المتغير ، ومحاولة فهم مايشعر به الناس ، والبحث دون كلل عـن مواضيع جديدة في الاثار المبدعة هام جدا .

كوركين : انت الآن تركزين انتباهك على مجموعة تعد بشكل عام غير شعرية . وماهي المشاكل الحديثة التي تواجهك ؟

بارتو : في الوقت الحاضر اكتب للمراهقين وقد اثار عالم اليوم الروحي والمعقد اهتمامي مدة طويلة . غير انني مازال في اول الكتاب (مجموعة قصائد منه فقط نشرت حتى الان)وأفضـــل ألا اناقشه . باختصار ، هذا الكتاب يركز على مسائل اخلاقية .

كوركين : بصفتك شاعرة ، على ماذا تحصلين من خلال مقابلتك وتبادلك الاراء مع الناس الذين يعملون في ميدان الفنون في الخارج ، وبصفتك رئيســة لاتحاد العمال في فن الاطفال وادبهم لديك فرصة دائمة لمقابلتهم ؟

بارتو : هناك جوانب متعددة لعمل اتحادنا يتطلب مني مناقشـــة منفصلة للاجابة على هذا السؤال .

كوركين : نعم ، يحتمـــل ان تكوني محقة . لكن اود الآن ان أسألـــك كيف تنعكس نشاطاتك الاجتماعية في عملك . اعرف ان موضوع الصداقة بين الشعوب كان عزيزا عليك دائما (الاخوة) احـــد كتبك الاولى .

بارتو : اجل، انه اهتمامي الخاص،واعود اليه دائما،لكن لا اظن انني كنت سأكتب قصائد كثيرة ولو انني اشترك اشتراكا فعالا في عمل الاتحاد . وليست المرحلة الفنية التي تضم (على طول المدر طول الطريق الان ، نحن ندور حول العالم) ، ترجمات من شعر الاطفال التي هي ، في الحقيقية ، ليست ترجمات للشـــعر بل لمشاعر وتجارب الاطفال من بلدان مختلفة .

كوركين : افهم من هذا انك تتابعين عملك في هذا الكتاب .

بارتو : انني اكتب تتمة . وبعد أن ظهر الكتـــاب تلقيـــت قصائد وقصصا من اطفال بولونيين وكينيين وبرتغاليين ومن اطفال آخرين .

كوركين : هل ستتابعين كتابتك عن موضوع الاطفال الذين يحتجـون على الحرب ، وهو موضوع برز قويا في كتابك ؟

بارتو : نعم الى حد ما . لكن الشيء الذي لايبرح تفكيري هو ان الناس في كل انحاء العالم يحتجون بعنف واسى متزايدين على قنبلة النيترون الوحشية ، « الموت الطائر » انها ماتزال تلوح فوق فوق الاطفال . بينما في الوقت نفسه شاعت في هذه الايــام اسلحة الموت الاكثر وحشية بين ملايين الاطفال في بلدان مختلفة .

كوركين : هل لك ان تخبريني اكثر قليلا عن هذا الموضوع يا آغنيـــا لفوفنا :

بارتو : هذا ماأعنيه ، ولا أحاول ان ابالغ ، احب ان اؤكد على نظرتي فحسب . ان اختراع قنبلة لاتؤذي المدن والابنية والسيارات بل تدمر الاحياء فقط ـ هو اقصى درجات السخرية . وفي رأي الشخصي الذي ماتت فيه كل المشاعر الانسانية هـــو وحده الذي يفكر فيها . هل توافقني على ذلك ؟

كوركين : أوافقك تماما .

بارتو : ماذا يحدث لو ان بذور الفضيلة والارادة الطيبة اخمدت على نحو متواصل يوما بعد يوم في ارواح الاطفال ؟ طيلة نصف قرن ـــ من خلال ما تقوم به الامبريالية ، فعدد كبير من أجيال الاطفال في بلدان عديدة يستهلك الاثار الفنية السامة منذ الولادة . هذا السم له تاثير غير آني ، وهو يعني ان عقول الاطفال يصيبها التلف باستمرار ومن المستحيل الاعتراض على الهزليات بشكل عام . واحيانا تؤمن تلك الهزليات مصدرا لمعلومات متعددة الالوان وتقدم للقارىء الصغير على شكل تسلية . وبعضها يهدف الى التسلية الخالصة ، مع أنه يصعب تسميتها اثارا ادبية . لكن الحال فيما يتعلق بغزو الهزليات الضارة ؟ لقد منع معظم ماهو (مرعب) منها في العديد من الدول .

في عام ١٩٧٧ التقت ديانا بولين طومسون كاتبة الاطفال الشعبية باعضاء اتحادنا ، وحكت لنا أشياء كثيرة عن نفسها وعن عملها ، وعما يقرأ الاطفال في بلادها . واجابت على اسئلتنا العديدة ، مشيرة الى وجود عنصر قوي للعنف في الكتب في الدول الاستعمارية وفي برامج التلفزيون الموجهة للاطفال التي تستغل الغرائز المنحطة فيهم .. الاطفال ينصرفون عن الكتب الحزينة والحبكات الدرامية ، ويبحثون عن الفكاهة او المعلومات والنهاية السعيدة . نحن نعرف ذلك ليس من ديانا بولين طومسون فحسب بل من مصادر اخرى ايضا ، فغالبية الاطفال تستمتع بسلسلة كتب « الفكاهة » — التي تدور حول الاشباح والوحوش ومصاصي الدماء، كما تستمتع بقصص العصابات المليئة بالمطاردات والجرائم ، وبالحبكات التي تفقد القارىء صبره في اكتشاف شيء ما — من يقتل ؟ الجريمة ، القتل — اليست هذه حبكات درامية الان ؟ لكن ثمة كتب كثيرة من هذه الشاكلة بحيث لايعد الطفل العنف فيها شيئا دراميا . وهي تصبح عادية في نظره . ذكرت ضيفتنا الزائرة ايضا مجموعة كبيرة من الكتب الجيدة الشعبية ، وامتدحت احد برامج التلفزيون الذي يوسع اهتمام الاطفال بالمطالعة والذي زاد من شعبية الحكايات الخرافية بشكل خاص .

وبعد عرض فيلم (دافيد كوبر فيلد) المتعدد الحلقات ، اخذ الاطفال من الاسر الفقيرة يسألون عن هذا الكتاب في المكتبات . وبالطبع تنشر في الدول الغربية وامريكا كتب جيدة للاطفال لكن هذه الكتب غالية وتبقى في متناول ايدي اطفال الاسر الميسورة بشكل عام .

ان ركام حكايات القسوة من اجل القتل تنصب على اطفال الاسر الفقيرة ، لان اي شخص تقريبا يمكنه الحصول على هذه الاعمال التافهة الرخيصة . لكن ثمنا غاليا ندفعه لتنشئة

الاطفال على العنف ! شيء هام أن تظهر في الصحافة مثل هذه المقالات « اغسل يديك بعد ان تقرأ المجلات الهزلية » - هذا تقرير من اليابان نشر في (المجلة الادبية) . ان الجرعات النظامية للسم ذي المفعول غير الاني سيكون لها تأثيرها عاجلا أم آجلا . وفي افضل الحالات يغدو الطفل غير مبال بالعنف او انـــه يتجاهله على نحو هادىء ، أو انه يشترك في العنف في أسوأ الحـــالات .

كوركين : هل تعتقدين ان هناك علاقة بين تأثير الكتب ذات المستـــوى المنخفض وبين جنوح الاحداث ؟

بارتو : دون ريب . هذا ليس رأيي فقط . كنت مهتمة على نحو خاص بما يفكر به طبيب الاطفال الامريكي المعروف والمكافح من اجل السلام الدكتور بنيامين سبول ، حول تأثير الادب المزيف علـــى عقول الاطفال ونفوسهم . وقد سألته عما اذا كان قد وجد علاقة بـــين التعميم المتنامي لهذا الادب السام وبـــين جنوح الاحداث المتصاعد في امريكا ام لا . وقد رد الدكتور سبوك بالايجاب ثم اضاف قائلا « يوجد ارتباط هنا بالحرب العالمية» يبدو انها صرخة بعيدة من أدب الاطفال المنحط الـــى الحرب العالمية ، لكن اذا فكرت في الامر مليا ستجد ارتباطا معينا هنا لان اطفالنا هم علماء ومخترعو المستقبل وان وعيهم لانفســـهم ينبغي الا ينتهي الى جو لا انساني وغير اخلاقي ، والا سيؤدي ذلك الى مخترعات اكثر همجية .

الأم العاملة

عبده عبود

باحث اجتماعي الماني يقول :

« الام العاملة هي المربية الافضل »

عمل المراة مسألة لاتطرح وتناقش بحــدة في بلادنا « النامية » فقط ، بل انها مازالت موضع طرح ومناقشة في أوروبا الصناعية « المتقدمة » أيضا . تارة يطرحها علماء الاجتماع وتارة اخرى علماء النفس .. واحيانا السياسيون والادباء ، وذلك على الرغم مــن مضي عشرات السنين على دخول المراة ميدان العمل غــير المنزلي الى جانب الرجل .

لكن الفرق بين طرح لمسألة المذكورة في اوروبا الصناعية وبين طرح المسألة ذاتها في بلادنا « النامية » هو أن الطرح يتم في الحالة الاولى بشكل منهجي مســتند الى ابحاث ودراسات نظرية وميدانية . أما عندنا ؟ فانه يتم غالبا بشكل اخلاقي او عقائدي . في جو يكاد يفتقد الى البحث الاجتماعي تماما .

هـذا وقد ظهرت في المانيـا الغربية حـول الموضوع الآنف الذكر دراسة اجتماعية ـ نفسية جديدة لباحث اجتماعي شاب اسمه (ر ٠ كوخ) ، تحت عنـوان : ((عمل الام وتطور شخصية الطفل))(١) ٠ ولقد اثارت هذه الدراسة اهتماما واسعا في صفوف العاملـين في القضايا الاجتماعية والتربوية ، وذلـك على الرغم من طابعها ((الاكاديمي)) الرصين ٠

فيما يلي عرض لهذا الكتاب ٠

■ ■ ■

قل ان انتشرت خرافة في مجتمعنا بشكل عنيد ولزج مثل الخرافة القائلة ان علاقة الطفل بأمه غير قابلة للاستبدال او التجزئة ٠ فالاطباء وعلماء النفس والمربون والصحفيون الذي يحذرون من تشغيل الام ، يستطيعون الاعتماد على اكوام من المقالات والدراسات ، لكي يبرهنوا على ان الحضور الفيزيولوجي المستمر للام شرط لاغنى عنه لنمو الطفل بشكل سليم ٠

في كتابه المنشور عام ١٩٧٠ تحت عنوان (السياسة العائلية في المانيا) ادعى ف ٠ بينجر «ان علم النفس والطب الحديثين متفقـان على ان اشتغال الام خارج المنزل ضار جدا بتطور الاطفال الصغار » الامهات يواجهن يوميا عواقب هذه الموضوعة على شكل تحاملات وافتراء وانحياز على صعيد العمل ٠ والمدرسة والصعيد الخاص ، بالاضافـة الى ما يعانينه من عذاب نفسي غني عن التعريف ٠

وعندما تقل فرص العمل ويصبح في استطاعة راس المال الاستغناء وعن عمل الامهات ، كما هي الحال عليه اليوم في اوروبا الراسمالية ـ تعلو من جميع وسائل الاعلام دعوة واحدة : « ايتها الامهات ، عدن الى البيت والا فسيلحق باطفالكن ضرر شديد ! » ٠

---

(1) R-Koch : Berufsätigheit der Mutter und Persoenlichkeitsentwicklung des Kindes.

لحسن الحظ تستطيع الامهات العاملات اللاتي لاتردن السماح لمثل هذه الدعوات المشبوهة ان تخيفهن او تقلقهن .. يستطعن الان الاستفادة من كتاب ظهر حديثا في احدى دور النشر الالمانية للمؤلف ر . كوخ تحت عنوان « عمل الام وتطور شخصية الطفل » . ففي هذا الكتاب تقلب نظرية بينجر الانفة الذكر راسا على عقب ، من خلال تحليل نظري متماسك ومعتمد على احدث ماتوصلت اليه الابحاث الامبيرية .

في دراسته يتوصل كوخ الى نتيجة مفادها ان عمل الامهات خارج المنزل لايترك آثارا سلبية على تطور شخصيات الاطفال ، بل يؤثر عليها بشكل ايجابي . « فربات البيوت المحصنات ، وبسبب من نمط حياتهن الضيق لايصلحن لتأدية المهمة التربوية مثل الامهات العاملات » . (ص ١٦٦) .

كان موضوع « عمل الام » يناقش دائما ضمن اطار مسألة غياب الام عن الاطفال نتيجة لعملها . لذلك كان اول ماقام به كوخ في مقدمة كتابه التاريخية هو تلخيص النتائج التي توصل اليها علم التربية وعلم اعماق النفس وعلم الانتروبولوجيا الثقافية المقارنة وعلم نفس الحيوان بصدد مسألة آثارغياب الام على تطور الطفل كما اخضع كوخ هذه النتائج لنقد نظري منهجي .

الجزء التالي من البحث خصص لمعالجة نظرية شائعة مستقاة من التحليل النفسي وضعها ر. شبيتس ، وهي نظرية تعطي لعلاقة الطفل بالام اهمية خاصة بالنسبة لتطوره . فخلافا لما ذهب اليه شبيتس يبرهن كوخ بالاستناد الى العديد من الابحاث التجريبية الحديثة « ان العلاقة العاطفية التي تربط الطفل بأمه ليست هي التي تشكل الشرط الاساسي لعمليات الادراك الحسي والتجارب الحسية اللاحقة ، كما يعتقد الكثيرون من ممثلي علم نفس التطور . فتلبية حاجة الطفل الى مزيد من الانطباعات هي التي تؤدي الى نشوء حاجته الى الاتصال الاجتماعي والتبادل العاطفي . » (ص ١٦٣) .

« بذلك يصبح الدور الاساسي والاولوي الذي يعطيه شبينس للام في عملية التنشئة الاجتماعية للرضيع موضع تساؤل شديد . » ويؤكد كوخ، انطلاقا من ذلك أن الاضرار التي تلاحظ لدى الاطفال الذين ينشأون في دور اللقطاء — والتي تساق دائما كبرهان على الاثار المدمرة « لفقدان الام » — هي في الغالب نتيجة لنقص شديد في تنبيه الحواس ، ولايجوز ردها الى عامل منفرد هو « فقدان الام » .

الرعاية المتعددة

يعالج المؤلف مسألة الرعاية المتعددة انطلاقا من مثال حي هو تربية صغار الاطفال في الاسرة الفيتنامية الكبيرة التي تتم فيها التربية بشكل جماعي وضمن مؤسسة غير عائلية . من خلال دراسة هذا المثال وامثلة اخرى يبرهن كوخ بما لايدع مجالا للشك على ان تبديل الاشخاص الذين يتعامل معهم الطفل الصغير ويقومون برعايته لايترك اية اثار ضارة بتطور الطفل .

ان ماتوصل اليه كوخ لايزيد على القول « ان غياب الام طوال النهار بسبب العمل ليس في حد ذاته ضارا بتطور الطفل الصغير .. وان الرعاية المتعددة لاتولد اثارا ضارة بالاطفال الصغار » . ولمنع حدوث أي سوء فهم لهذه الموضوعية ، يتعرض كوخ بشكل مباشر لمشكلات مايسمى بـ « الرعاية الجماهيرية » التي تمارس في بعض دور الحضانة الالمانية الغربية . يقول كوخ : « من الواضح ان التطبيق الحالي لمبدأ الرعاية المتعددة في دور الحضانة هذه لايشكل بديلا للتربية العائلية . وذلك يرجع الى الاوضاع السائدة في هذه الدور ، حيث ينطبق عليها مفهوم « الرعاية الجماهيرية » الى حد بعيد . وفشل هذا النوع من « الرعاية » يؤدي الى تشويه مبدأ الرعاية المتعددة للاطفال الصغار والى دمغه بأنه ضار بالنمو بشكل عام » (ص ١٦٤) .

بعد ان ناقش المؤلف في القسم الرئيسي من بحثه مسالة غياب الام واثره على تنشئة الطفل من جوانبها المختلفة ، حاول في المقالات التالية ان يضع اطارا نظريا لدراسة تاثيرات اشتغال الامهات على اطفالهن .

عرض كوخ الخطوط العريضة لنظرية مادية لنمو الشخصية . في هذه النظرية تبرز اهمية العمل الاجتماعي كشرط اولي لكل حياة انسانية وبالتالي كعلامة رئيسية من علامات نمو الشخصية . بعد ذلك يستقصي كوخ تاثيرات كسب الرزق خارج المنزل على شخصيات النساء والامهات انفسهن ويوضح كوخ من خلال لوحة احصائية تتصدر هذا الفصل حجم وطبيعة عمل النساء والامهات واهميته الاجتماعية . تبين هذه الاحصائية نتيجة مفاجئة ، هي ان عدد الامهات العاملات قد ارتفع منذ عام ١٩٥٠ بنسبة تقارب ٥٠٠٪ . ثم يحاول المؤلف ان يحلل الاسباب التي تدفع النساء للعمل وموقف النساء العاملات من نشاطهن خارج المنزل .

ومن خلال تحديد العلاقة بين « العمل والشخصية » يتوصل كوخ الى تحديد العلاقة بين « تحرر المراة » و « دورها في الانتاج الاجتماعي » بشكل مفصل . مفاد النتيجة التي يتوصل اليها المؤلف هو ان اشتغال النساء والامهات ليس بالامر الذي يحتمل لانه شر لابد منه ، بل هو شرط مهم جدا من اجل تحرر المراة ونمو شخصيتها . (ص ١٦٥) في هذا السياق يورد كوخ تحليلا لنشاط واسلوب حياة ربات البيوت منطلقا من الابحاث الامبيرية الحديثة التي اجريت حول هذا الموضوع .

في الفصل الاخير من الكتاب يعالج المؤلف المشكلة الرئيسية التي تصدى لبحثها الا وهي مشكلة اثر العمل على السلوك التربوي للامهات وعلى سلوك اطفالهن . فمحصلة بحثه التي اوردناها قبل قليل والتي تتلخص في ان اشتغال الامهات يؤثر بشكل ايجابي على تطور اطفالهن ، هذه المحصلة يبرهن عليها المؤلف الان بواسطة النتائج التي توصلت اليها جملة من الاستقصاءات الميدانية . هذه النتائج تدل على ان اطفال الامهات

العاملات يتميزون على غيرهم من الاطفال بالقدرة على انجاز الاعمال وتنفيذ المهمات وبالثقة بالنفس وبمزيد من الاستقلالية وبالمعارف والمعلومات الافضل » (ص ١٦٦) .

غير انه من الطبيعي ان نلاحظ هنا وجود نوع من التناقض بين التحصيل المدرسي الحسن الذي يتوصل اليه اطفال الامهات العاملات وبين الاجحاف الاكيد الذي يلحق بابناء العمال من التلاميذ ، والذين تعمل نسبة كبيرة من امهاتهم ايضا . انه تناقض يحتاج لانه يوضح بشكل منهجي ولقد ادرك كوخ ذلك عندما كتب : « ان الابحاث الجادة التي تدور حول تأثيرات اشتغال الامهات على تطور اطفالهن نادرة جدا » (٤١٩) . اذن هنالك مهمات كثيرة مازالت تنتظر الباحثين الاجتماعيين في هذا الحقل !

ملاحظات ختامية :

لئن كان عمل الامهات لايؤثر بشكل سلبي على تطور الاطفال ــ كما برهن على ذلك ر. كوخ وخلافا للاعتقاد السائد ــ فتترتب على هذه الحقيقة جملة من النتائج العملية ابرزها :

١) على المجتمع ــ ولاسيما الدولة ــ ان يكفل رعاية الاطفال خلال اوقات عمل اماتهم ، وذلك بتوفير دور الحضانة ورياض الاطفال التي تتمتع بمستوى تربوي جيد يمكن الام من الانصراف لعملها مطمئنة البال .

٢) لابد من اعادة النظر في مسألة توزيع العمل المنزلي ، بحيث يشارك فيه الرجل ولا تتعرض الام لتحمل اعباء مزدوجة . لابد للرجل من تغيير موقفهم من العمل المنزلي الذي يظنون غالبا انه ينجز نفسه بنفسه .

ولكن هذا ليس بالامر السهل ولن يتم بدون صراعات (على المستوى الفردي ، ومن خلال الحركة النسائية) .. كما لن يتم هذا التغيير خلال

جيل واحد او جيلين . ففكرة اقتصار العمل المنزلي على المرأة قديمة جدا وراسخة في الاذهان ، بحيث ان اقتلاعها يتطلب جهدا كبيرا ، ولا سيما على الصعيد التربوي . لابد لنا من ان نربي لدى الاجيال الجديدة مواقف جديدة : سواء تجاه عمل المرأة خارج المنزل ام تجاه مساهمة الرجل في العمل المنزلي . دروس « التدبير المنزلي » لايجوز لها ان تبقى مقتصرة على الفتيات .. وما يدعى « الفنون النسوية » لن يبقى نسويا فقط .

سلسلة احياء التراث

المختار من كتاب

أحسن التقاسيم

في معرفة الاقاليم

لمحمد بن احمد المقدسي

اختار النصوص وعلق عليها

غازي طليمات

■ ■ ■

علم السكان وقضايا التنمية

تأليف الدكتور صفوح الاخرس

دراسات اجتماعية

■ ■ ■

الجدران الاربعة

دراسات تطبيقية في المسرح

تأليف : نديم محمد

الفكر الأدبي المعاصر

البنوية – النقد الجديد الفرنسي – اللغويات الجديدة

تأليف : جورج وطسون

ترجمة : د. محمد مصطفى بدوي

هذا كتاب غاضب ، مؤلفه غاضب(*) ، والغضب لوجه الحق ولمستقبل الادب والنقد الادبي جميعا . لقد حدثت تطورات في النقد الادبي الغربي في العقد السابع من هذا القرن كان لها اثر خطير في ميدان الدراسات الادبية . وكان منشأ هذه التطورات فرنسا منبع الموضات ، وسرعان ما انتشرت في غيرها من البلاد ولاسيما امريكا وهي سوق الموضات . ومن شأن الموضات انها ظواهر عابرة وحين تقتصر على النواحي السطحية الخارجية من الحياة لايكون لأثرها ضرر ذو بال . ولكن الوضع يختلف عندما تغزو الموضات الحياة الفكرية فحينئذ قد يكون الضرر بليغا . واذا كان لنا أن نصف هذا الكتاب في جملة واحدة قلنا ان صاحبه يشن فيه حربا شعواء على تلك الموضات التي حلت بميدان دراسة الادب واستحوذت على عقول الكثيرين. وقد آثرنا ان نطلع القارىء العربي على الفصل الثاني من الكتاب المذكور .

* من مقدمة المترجم .

البنيوية هي تحليل عام للعقل يزعم أصحابه أنهم يجدون «سمتريات» أو تماثلات أو تقابلات وبالذات تعارضات ثنائية في معتقدات الافراد والجماعات وفي سلوكهم .

كانت اول معرفتي الشخصية بالبنيوية في باريس خلال الخمسينات . في تلك الايام ، كما هي الحال الآن كان من الممكن للمرء أن يجلس في قاعات الدراسة العاطلة من الزخرف في معهد (كوليج دي فرانس) في شارع (ري ديزيكول) أو في معاهد الدراسات العليا الاخرى الاشد تقشفا على الشاطىء اليساري لنهر (السين) ، ويستمع الى ابناء دعوة كانت حينئذ في سبيلها الى أن تحل محل الفلسفات الوجودية وكانت هذه قد أخذت في الذبول . أما اليوم فليس من المرجح أن تسمع الناس يتحدثون عن البنيوية في باريس اللهم الا حين يشيرون اليها بوصفها من بقايا نظرية بالية . لقد انقرضت فترة البنيوية وبقيت اللفظة في مصطلحات المدارس فقط . اذن فقد حان الوقت لان نعيد النظر في البنيوية وآن الاوان لان نسأل أنفسنا ما هي الدوافع التي ادت اليها وكيف ظهرت الى حيز الوجود ؟

ان الزعم بأن في النتاج الثقافي بما في ذلك الادب تماثلات يمكن تبينها قد استمد من مناهج العلوم اللغوية السائدة حينذاك . غير أن البنيوية بالنسبة الى الادب كانت دائما نظرية ولم تكن اداة عملية ، فهي كما يقول احد المعجبين بها من الامريكيين « ليست منهجا لايجاد تفسيرات جديدة ومدهشة للاعمال الادبية » وانما هي باب من التفكير « يتساءل كيف يمكننا الوصول الى دلالات الاعمال الادبية . » ومع ذلك فمزاعم البنيوية عظيمة جدا اذ كانت تدعي في اوج ازدهارها اي في اواخر الخمسينات وما تلاها مباشرة من سنوات انها تفسر جميع الحقائق البشرية او على الاصح انها

على وشك ان تفسر كل شيء . وكان هذا هو سر جاذبيتها . لقد كان ل (فرويد) في العشرينات ول (ماركس) في الثلاثينات ما يناظر هذه الجاذبية بسبب تقديمها حلا فكريا شاملا لجميع المسائل ، ثم جاءت بعد ذلك افكار شمولية اخرى مماثلة : افكار (يونج) و (تيلار دي شاردان) و (مارشال مكلوان) و (لانج) و (نورثروب فراي) . ولسوف يجد المؤرخون في هذا البحث المتصل العلامة الكبرى التي تميز عقلية القرن العشرين . اننا نعيش في عصر يتسم باشكال من التعصب سريعة التغير ، نودي فيه بمذهب فكري تلو مذهب باعتباره الحل الذي سيخرجنا من حيرتنا . وكانت الدعوة دائما قصيرة الامد ، وفي السياق الفرنسي تصطدم الوان التعصب هذه عادة بعدوين معا : بروح جامعة (السوربون) ممثلة في الاستاذ الكهل وقد انزلقت نظارته بدون الذراعين الى اسفل واخذ يثرثر بالمعلومات بصوت ضعيف ذي نبرة عالية ويثبت باصبعه جسر نظارته الى قصبة انفه بشيء من العصبية هذا من جهة . ومن جهة اخرى هناك شخص آخر نقيض له وهو الاديب العلامة الوقور وهو عضو في احدى الاكاديميات او يتوق الى ان يصبح عضوا في القريب العاجل ، ينظر من عليائه ويعبر عن نفسه بلغة مقتضبة مفعمة بالاشارات والتضمين . والتناقض الاكبر الذي يدعو الى السخرية في النظام الاكاديمي الفرنسي هو انه ما من ثائر سواء كان وجوديا او بنيويا بمقدوره أن يقوم طويلا احدى هاتين القوتين الجاذبتين فهما المحوران اللذان يتحرك كل اديب فرنسي نحوهما . فمثلا ليس هناك عمل يتسم بروح السوربون اكثر من الدراسة الضخمة التي وضعها (سارتر) عن (فلوبير) ، وبالمثل فلا يوجد نتاج يتسم بروح الاديب العلامة الوقور اكثر من كتاب (بارت) « قطع من مقال في الحب » . ان النظام السائد في فرنسا ينتصر في نهاية الامر عن طريق استغراقه للثائرين . ومن ثم كانت هناك دائما حاجة الى ثورة جديدة .

وفي المراحل الاولى للتعصب الثوري لا يستنكف الثائر عن استخدام

شيء من الارهاب الفكري . والصورة الشائعة التي يأخذها هذا الارهاب هي مايمكن تسميته تخويف المولعين بالموضات . فمثلا في مبنى (مركز بومبيدو) بباريس في احدى قاعات العرض وفيها معرض للوحات تتألف من لطخ من الوان الزيت واكوام من الطوب تجد اعلانا ضخما معلقا في عرض القاعة كما لو كان تحديا لجميع الزائرين بالا يهمس احد منهم بأن « الامبراطور لا يرتدي في الواقع اي ملابس » كما يحدث في قصة الاطفال المعروفة . اذ يقول الاعلان : « لا تكونوا ضيقي الافق ، فالابداع في جميع العصور يعني التجديد والاختلاف . واذا ادهشكم هذا العرض فذلك بلاشك لانه شيء جديد . وفي هذه الحالة تذكروا ان الجديد هو المعيار الثابت الوحيد في تاريخ الفن بأسره . » غير ان من يعرف شيئا عن تاريخ الفن لن يمكنه ان يهضم هذا الكلام . هذا فضلا عن ان اسلوب ما كان معروضا هناك عام ١٩٧٧ لم يكن جديدا بقدر ما يزعمون ، بل لو كان عرض منذ اثني عشر عاما في مدينة نيويورك او لندن لاعتبره الناس هناك اشياء عادية في عالم الفن . وبالمثل فان البنيوية تقوم لى اساس آراء كل من (بيرس) و (فرناند دي صرصير) وكلاهما غير فرنسي وكلاهما مات قبل الحرب العالمية الاولى . وفي عالم الثورة الفكرية بباريس تستخدم لفظة « تقليدي » بدلا من لفظة « محافظ » التي تعتبر اهانة لا يلقى بها الا في الحالات القصوى ، كما ان كلمتي « الجديد » و « المثير » تكادان تعنيان نفس الشيء . وهكذا فليس من قبيل الصدفة ان باريس هي مركز موضة الازياء في العالم .

وتخويف الموضة يتحرك بسرعة كما هي الحال في ميدان موضة الازياء . فان لم تكن وجوديا في الاربعينات وبنيويا في الخمسينات وماركسيا في الستينات ومتحمسا لنظرية اللغويات في السبعينات قضي عليك بسهولة باعتبارك شخصا تعوزك الحساسية ازاء مقتضيات الحياة الفكرية . ولذلك سيكون من الممكن تخطيط السيرة الفكرية للبارزين من الادباء في حدود

تلك المذاهب الفكرية العامة التي سرعان ما اعتنقوها ثم سرعان مانبذوها. لقد وصفنا هذه الصورة السريعة التقلب من الوان التعصب بأنها علامة العصر الكبرى لاننا لا نستطيع ان نذكر عصرا آخر من تاريخ البشرية يماثله في ذلك . فقد كان الادباء في العصور الماضية يكتفون بمذهب فكري واحد يدينون بالولاء له طول عمرهم ، فيصدق هذا الكلام في جوهره على (تشوسر) و (شكسبير) كما يصدق على (صموئيل جونسون) . وهناك ادباء آخرون من عصور اقرب الى عصرنا مثل (وردزورث) و (كولردج) و (ت. س. اليوت) جربوا ازمة روحية واحدة غيرت أفكارهم مرة واحدة والى الابد . اما الادباء في منتصف القرن العشرين واواخره فتختلف سيرهم عن ذلك اختلافا جذريا فيما يبدو . لقد اختاروا روما (الكاثوليكية) او موسكو او بيكنج او مذهب (يونج) او هذه المدرسة او تلك من باريس ، الواحدة تلو الاخرى ، بسرعة خاطفة وكان ولاؤهم لها ولاء سطحيا وان لم يخل من الانفعال ، فعلوا ذلك قبل ان تدركهم الشيخوخة ويستقروا في موقف الشك والقلق الذي يصحبها . هذا الايمان السريع التقلب الذي ينحدر بتشنج نحو الشك في جميع القيم مارا من خلال عدد لا يحصى من المواقف هو في نهاية الامر العلامة الكبرى التي تميز رجل الفكر المعاصر.

وتشترك البنيوية مع هذه العقائد السريعة في انها في جوهرها تزعم انها تمتلك المفتاح لمغاليق المعرفة البشرية كلها . فالكلمة الاثيرة لديهما هي كلمة « كل » فتتحدث مثلا عن « الحضارة البشرية كلها » او « الادب كله » وما الى ذلك . الا انها تمثل هذا الزعم في شكل اقل انضباطا من مزاعم (فرويد) . لقد كانت للبنيوية قدرة عجيبة على الصمود أمام القرائن المتناقضة ، وهذا هو السبب في انها على اساس افتراضاتها المسبقة كان دحضها أمرا صعبا دائما . حقا لقد تمكن اساتذة متخصصون في علم الانثروبولوجيا مثل (السير ادموند ليتش) و (فرنسيس كورن) من هدم ما تقوم عليه انثروبولوجية (ليفي ستروس) البنيوية من أساس من الواقع هدما كاملا . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان هذا التكذيب للبنيوية كان

السبب الرئيسي في انقراضها ، لان جاذبية البنيوية كانت ترجع اساسا الى رؤيتها انماطا ونماذج في معطيات الواقع التي كانت تنظمها من أجل ما في النمط من تماثل او سمترية . فهي تقدم نظريات « يحلو التفكير فيها » كما كان يقول (ليفي ستروس) اي ان التفكير فيها شيء ممتع . وافضل تلخيص لها هو في العبارة الانجليزية القديمة التي تتحدث عن قدرتنا على « رؤية صور في نار المدفاة . » ولازلت شخصيا اذكر قول استاذ من مريدي (ليفي ستروس) في معهد (كوليج دي فرانس) لتلامذته : « ستجدون الكثير من الصدق في هذا ان اطلتم النظر فيه . » قال هذا الكلام وهو يشير الى السبورة في قاعة الدرس وقد رسم عليها رسما بيانيا لتماثلات من المحرمات في مجال الجنس والطعام . وكان (ليفي ستروس) نفسه حينذاك جالسا في الصف الامامي يبدو على وجهه الملل من هذا الكلام واستمر يلعب بقلمه على الورقة التي امامه . لقد وجد هو الكثير في مثل هذه الاشياء من قبل طوال عدة سنوات ولقد بدأ يضجر منذ وقت طويل بوسيلة التحليل هذه التي ابدعها . وكانت عبارته التي تمثله خير تمثيل في تلك الايام هي « من الممكن ان نفترض ان . . . » اذ بمقدور الباحث الحقلي دائما ان يجد ، متى اراد ، طوطما او محرما يوازن غيره مثل النييء والمطبوخ . وكان من الواضح اذ ذاك ان (ليفي ستروس) ذاته لن يكلف نفسه عناء التفتيش عن هذه الاشياء . فالذي كان يهمه هو ان يوازن بين الرسومات الايضاحية على السبورة ، لا ان يكتشف حقائق او مادة جديدة . فنظريته اذن نظرية تماثلات بديعة الشكل بين المواقف الانسانية بعضها والبعض الآخر وفي سلوك البشر .

طبعا لسنا بحاجة الى التساؤل لماذا كان التماثل بديع الشكل أولكنه يجدر بنا ان نتساءل لماذا كان رجال الفكر من وقت لآخر حريصين على الاعتقاد بأن السلوك البشري يتحقق فيه التماثل . لعل الولع بخلق الانماط هو اهم ما يجذب الناس الى الموضات الفكرية في القرن العشرين . ومن الامثلة

العابرة لهذه الصور البنيوية وعلم اللغويات البنيوي . فقد وصف (جورج اورويل) طبيعة هذا الانجذاب وصفا موجزا في عبارته التي يتحدث فيها عن « الاحساس المتضخم بالنظام » الذي يمتلك على نحو غير متوقـع الاديب ذا الشعر المشعث . فاذا كانت حياة المرء فوضى بحيث يتعذر عليه ان يقوم من نومه مبكرا في الصباح او ان ينجز الكثير بعد ان يقوم حينئذ ما اسهل عليه ان يتوق الى فكرة شمولية تحقق النظام في حياته كلها . فمجرد الايمان بفكرة النظام ـ مميزين بين ذلك وبين محاولة تحقيق النظام فعلا على صعيد عملي ـ كفيل بأن يتيح للمرء السعادة بدون أن يغير نمط حياته : عليه ان يغير افكاره وليس عليه ان يعدل من سلوكه . فالبنيوية ـ هي بالنسبة لرجل الفكر الاوروبي ما سميناه بالفكرة ذات المجازفة الضئيلة بمعنى انها لا تتطلب من اي احد ان يغير من نفسه شيئا تقريبا سوى اسلوبه البلاغي . اما الحياة الجادة فقد استمرت كما كانت من قبل في العالم الغربي الثري بينما استغرق الاسلوب البلاغي القـديم التغير والثورة على نحو ملائم في مصطلحات فنية جديدة ومهيبة الهياة . وستظل الحاجة دائما الى شيء ، اي الى مبدأ يمكن المرء من ان يظهر بمظهر الجديد في كلامه بينما يظل في الواقع كما هو .

ليس النقد الانجليزي الامريكي مستعمرة من مستعمرات باريس ولذلك فلم يتحول الكثيرون من نقاد العالم المتحدث بالانجليزية الى البنيوية في الخمسينات والستينات . على حين ان اولئك الذين اعتنقوا البنيوية لم ينتجوا اكثر من مؤلفات قدموا فيها افكار اساتذتهم من باريس . وعلى الرغم من ان البنيوية هي الان مدرسة ميتة لاتظهر الا في هيئة اشباح لنظرية ، فان بعض هذه الاشباح لاتزال تتردد على التراث النقدي بشـدة تستحق المناقشـة . وهي غالبا تقلل من شأن عقلانية الانسان .

واعم هذه الاشباح ضررا هو الافتراض القائل بان شرح الاسباب التي دعت الفرد الى اعتناق عقيدة من العقائد من شانه ان يقلل من مكانة هذه

العقيدة او يلغي صدقها . لقد كان هذا الافتراض اساسيا في كتابات اصحاب الانتروبولوجيا البنيوية امثال (ليفي ستروس) وسلفه البريطاني العظيم (سير جيمز فريزر) في كتابه «الغصن الذهبي» (١٨٩٠ – ١٩١٥). وتشترك حجج (فريزر) و (ليفي ستروس) في صفة هامة وهي انه يكفي ان نعرض لمحظور في الاكل او العلاقات الزوجية بالتحليل المقارن لكي نجعل هذه الاشياء غير قابلة لان يعتنقها العقل المتمدن الراقي . لقد كانت البنيوية دائما ديانة راقية بكل مافي هذه العبارة من غرور وتعال، اذ قدمت لمعتنقيها احساسا بالثقة وبانهم اسمى من ان يرتكبوا تلك الحماقات التي توجد في سلوك القبائل النائية والامم المتخلفة التي يدرسونها من بعيدة . وكانت بديلا راقيا لمبدأ تفوق الرجل الابيض في القرن العشرين ، ولكي ندرك صحة ذلك ماعلينا الا ان نتصور مقدار دهشة (فريزر) وكان استاذا بجامعة كمبردج لو اقترح احد عليه ان يطبق اسلوبه في التحليل على طريقة الحياة الاكاديمية في كمبردج ومقدار دهشة (ليفي ستروس) الاديب الباريسي لو اقترح عليه احد ان يحلل عالم الادباء المحترفين في باريس متبعا في ذلك نفس منهجه . حقا ان مثل هذا الاقتراح لهامكانياته الكوميدية ، ولكنه ليس من المرجح ان يتتبع احد هذه الامكانيات خارج ميدان الصحافة الفكاهية . فالطموحات والمحرمات مثلها في ذلك مثل الخرافات هيمن الاشياء التي لاتوجد الا عند الاخرين. فالبدائيون يفعلون هذا والبرجوازيون يفعلون ذلك . اما البنيوي فمن المفروض انيشعرنابانه اسمى من كل مايفعل هؤلاء . وهذا الافتراض بسمو البنيوي هو في رأينا افتراض لم يكتسبه عن جدارة ، ونود الان ان نفسر لم نعتقد ذلك .

لنفترض ان شخصا قال لي ان السبب الوحيد في اعتقادي بأن ٧×٧=٤٩ هو ان قبيلتي علمتني هذا الاعتقاد او ان المجتمع حدد لي ذلك او انني اجبرت على ذلك سيكولوجيا . بمقدوري انا شخصيا ان اقبل جزءا كبيرا من هذه المزاعم على انه صادق لانني تعوزني الموهبة في علم

الحساب ومن بعيد الاحتمال انني كنت ساكتشف هذه المعادلة بنفسي . ومع ذلك فهل يوجد احد يعتقد ان محتوى الصدق في ٧×٧=٤٩ قد تؤثر فيه باي شكل من الاشكال هذه الاعتبارات مهما كان مقدار الصدق فيها ؟

لقد آن الاوان ان يقوم رجل ويدافع علنا عما في الحضارات التي ندرسها من صدق المحتوى ــ تلك الحضارات التي نهيب بالشباب ايضا ان يدرسوها . فلا يزال موقفنا هذا من الامور التي لايسهل قبولها الان ومن الحواجز التي تقف عقبة في طريق قبوله ولع الناس باشكال الاسطورة وبتراكيب الاحاسيس ، بحيث تستحوذ بنية هذه الاشياء على عقولهم استحواذا كاملا . والذي يجعله حاجزا في نظرنا هو فرط اهتمامه بالتركيب او البنية واصراره على استخدام الفاظ مثل «الاسطورة» و «الاحساس».

ان الاهتمام البنيوي بالعقائد البشرية لابد وان يؤدي في نهاية الامر الى التقليل من شان هذه العقائد . فليس بوسع من له اهتمام جاد بما في الالتزامات الدينية وغيرها من صدق وكذب ان يهتم اولا بما تؤلفه هذه الالتزامات من انماط وتماثلات . فلم يؤمن الناس كما آمنوا ولم يعيشوا ويموتوا من اجل ايمانهم لكي ينظر احفادهم الى معتقداتهم نظرة جمالية مستعلية كما لو كانوا لايجدون فيها شيئا اهم من مجرد نمط في سجادة او اشكال في نسيج تطريزي . لقد كانت البنيوية ساحة للعب ليس اكثر في نهاية الامر . ويزداد ذلك وضوحا عندما ننظر الى اهتمامها السائد بالاسطورة . حقا من الممكن بشيء من الجهد اعتبار لفظة « اسطورة » ذات معنى محايد ، الا ان هذا المعنى المحايد ليس بأي حال معناها الطبيعي المباشر . وحينما نتحدث ونكتب عن الاسطورة المسيحية او الفرويدية انما نضع انفسنا على الاقل في منتصف الطريق الذي يؤدي الى الشك حقا ان الشك بمعناه المباشر النفل اي بمعنى عدم الايمان التام او الرفض المطلق لم يعد هو الموضة الان ولكن الكثير من رجال الفكر عندنا يؤثرون ان يدرسوا طرق الرؤية على دراسة الاشياء المرئية ، وتلك العناصر

المتبقية من البنيوية هي من مظاهر هذا الموقف السائد . ويسهل على الدارس في مدارس الادب عندنا ان يفترض ان كبار الشعراء والروائيين نظروا الى الامور على هذا النحو او ذاك بينما يصعب عليه ان ان يفترض انهم راوا اشياء كانت موجودة فعلا وكان من الممكن للناظر ان يراها . فنحن ننزع الى دراسة المفترضات المسبقة في رؤيتهم بدلا من دراسة رؤيتهم ذاتها .

كل هذا يتفق وموقف الشك من المعرفة الذي لايوجد في صورة اقوى مما هو في دراسة الادب . ومع ذلك فلم نقدر بعد مايتقاضاه هذا الشك في المعرفة او هذه الذاتية من ثمن .

وفي اعتقادنا انه من الشطط الا نقدر ثمن موضة الذاتية في الفكر الادبي وذلك لسببين :

اولهما انه في اي عصر كان ولا سيما في عصر تخفض فيه الميزانية الخاصة بالتربية ليس في وسع دراسة الادب ان تسمح لنفسها ببساطة بان ينظر اليها كما لو كانت نشاطا يدخل في باب الزينة او الاستمتاع الذاتي . ان المعركة التي نحاربها الان تتعلق بصدق الادب العظيم . لقد سبق ان حارب في هذه المعركة وكسبها من قبل افراد مثل (وردزورث) في مقدمة كتابه « قصائد قصصية غنائية» (١٨٠٠) . واذا كنا نتصور ان دافعي الضرائب من المواطنين من الدول الغربية سيظلون طويلا يمولون دراسات يعلن اصحابها امام الملأ بانها عديمة المحتوى فاننا اذ ذاك نخدع انفسنا بلا شك . وطالما كان هذا الكلام هو اقصى مايمكننا قوله في وصف مهنتنا فان مقدار ما ستنفقه الحكومات على الدراسات الادبية سينخفض تخفيضا شديدا وتكون الحكومات محقة في ذلك . ان الادب العظيم يهتم اهتماما شديدا وعلى نحو مباشر بحقيقة الوجود الانساني . هذه قضية يدرك صدقها الملايين من الناس العـاديين خارج اطار الحياة الاكاديمية . واذا كان الذين يدرسون الادب يعجزون عن رؤية ما يراه

من لايدعون انهم في مستوى الخبراء المتخصصين حينئذ لن يكون من حقهم ان يتوقعوا ان يعاملهم المجتمع باحترام او ان ينفق عليهم الاموال الطائلة . وسيدرك الناس حينئذ ان هؤلاء الخبراء قد حولوا ما كان عليهم ان يدرسوه الى شيء تافه ، وانهم كما قال (وردزورث) شجعوا على « الكسل واليأس والجبن » . وفعلوا ذلك بلغة وصفها بانها « لغة اناس يتحدثون عما لايفهمون ويتكلمون عن الشعر كما لو كان مجرد مسألة تسلية ومتعة فارغة ، يحدثوننا بلهجة رزينة عن تذوق الشعر على حد قولهم كما لو كان ذلك شيئا لاتعدو اهميته اهمية تذوق الرقص بالحبل او لون من الخمر . » هناك مواضع كثيرة بين البنيوية وبين النزعة الشكلية من القرن الثامن عشر التي احتقرها (وردزورث)باعتبارها ضيقة الافق ومجانبة للحق ويشتم فيها رائحة المكتبات الخاصة التي يمتلكها السادة . » فهي عاجزة عن ان تدرك ان الشعر كما قال (وردزورث «هدفه الحقيقة» ولا يقصد بذلك انه يستهدف مجرد احساس واهن بالاخلاص اعجزه الوعي المزيف وانما يستهدف الحقيقة ذاتها . ان ادراك (وردزورث) هذا في غاية الخطورة لحيوية الادب ولاحتفاظه بسمته الطيبة . ولكنه ادراك ثبت أن البنيوية قد عجزت عادة عن بلوغه .

اما السبب الثاني فلا يتعلق بسمعة الدراسات الادبية بقدر مايتعلق بنفسية المشتغلين بها وبروحهم المعنوية . فمن الامور التي تزداد وضوحا في نظر الطلاب عامة وليس في الجامعات الفرنسية فحسب ان النظريات الشكلية مثل البنيوية تؤدي الى التفاهة ولا يحدث ذلك عرضا وانما هو نتيجة لطبيعة هذه النظريات . فالنظرية الادبية التي تنكر الدلالة الشاملة للادب ــ اي قدرته على وصف الواقع وعلى وصفه بدقة احيانا ــ من شأنها ان تسلب دراسة الادب قيمتها في نظر المعلمين والمتعلمين جميعا . لقد اعترف بصراحة احد الدارسين لمدرسة باريس في النقد حديثا بأن البنيوية لاتعيننا على تفسير النصوص وانما تسعى فقط الى

« تحديد شروط المعنى » . ولكنه لم يشرح لنا لماذا يحتاج المرء الى هذا التحديد قبل ان يدرك ان النصوص تعني شيئا او قبل ان يدرك كنه ماتعنيه . فالحجة هنا ، كما هي الحال في مثل هذه الدراسات ، تقوم على الخلط بين معرفة المرء كيف يصنع شيئا من الاشياء وبين قدرته على تقديم شرح كاف لما هو يصنع . لقد بذل الكثيرون من أصحاب الدراسات البنيوية لنظرية الادب جهدا كبيرا في محاولتهم شرح عمليات القراءة والكتابة شرحا كافيا . ثم لم يلبثوا ان يئسوا من شرحهم فدفعهم ذلك الى اليأس من هذه العمليات ذاتها .

ومهما كانت الاهمية الميتافيزيقية لمثل هذه الدراسات فليس من المرجح انها ستعين على وجود اهتمام جاد رزين بما يمكن ان يقدمه لنا الادب العظيم . فهي لاتدخل في حسابها قدرة الادب على الخير او الشر . لقد كان افلاطون على الاقل يعتقد بان الشعراء خطر على الدولة الى حد جعله يطردهم من جمهوريته . ولن ينسى تعليق الناقد (صمويل جونسون) على الفصل الاخير من مأساة « عطيل » في طبعة اعمال شكسبير التي حققها عام ١٧٦٥ ، فلا يزال يتردد في الذهن صدى عبارته هذه « اني سعيد لانني فرغت من مراجعة هذا المشهد المريع ، فهو مشهد لايمكن احتماله . » لقد كان (جونسون) عالم لغة وصاحب قاموس ومن ثم فلم يكن يعوزه الاحساس بأنماط المعنى او بثنائيات الاضداد في اللغة . ولكن لو كانت نظرته لشكسبير توقفت عند هذا الحد لما كان من حقه ان يضيف هذا التعليق المذهل . ان الشكل والبنية في الفن العظيم لايستحقان التعليق الالكون الفن العظيم أكثر من مجرد بنية وشكل .

صدر حديثا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

خفايا بلاد فارس القديمة

جزءان ـ أدب اليافعين

ترجمة : أوديت سلوم

■ ■ ■

مختارات من الاقاصيص الشعبية التشيكية والسلوفاكية

ثلاثة اجزاء ـ أدب اطفال

ترجمة : نزار عبد الله

■ ■ ■

في الاغنية الشعبية

تاليف : ابراهيم الفاضل

AL-MARIFA

CULTURAL MONTHLY REVIEW



سعر العـدد

١٥٠	قرش سودي	٨	دنانير جزائرية
١٥٠	قرش لبناني	٧ر٢٥	درهم مغربي
٢٢٥	فلس اردني	٤٧٥	مليم تونسي
٣٠٠	فلس عراقي	٣	ريال سعودي
٣٠٠	فلس كويتي	٣ر٥٠	ريال قطري
٦٠	قرش سوداني	٣ر٥٠	درهم (ابو ظبي)
٦٥	قرش ليبي	٢٥٠	فلس (بحرين)